



استراقات

جان چاك روسو

الجزء الثاني



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
٩٠٨٤٤٥ - القاهرة - ٩٠٨٤٤٥

ماتى راد

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

٤٠

كتابي

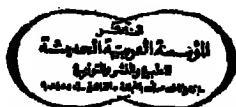


يصدره : هامي مراد

مطبوعات كتابي

اعترافات جان چاك روسو

الجزء الثاني



استشار جليل

كتاني

وهله حلى مراد

•••

كتب دورية للقصة والثقافة الرقمية ..

• مختارات كتابي : بالة متفحة

• مجلدة لأروع الكتب العالمية .

• مطبوعات كتابي : الترجمة

الأمينة الكاملة لأدوار الكتب العالمية.

• روايات كتابي : . ترجمة

أحدث الروايات العالمية للعاصرة

•••

شعر كتابي



مصباح الفكر عند الإمبريق

•••

نشرة

الإستاد / إسماعيل دياب

•••

إشراف

الإستاد / جيلدى مصطفى

•••

المكتبات

هيئة التحرير : حلى مراد : ١٨ شارع العباسين - مصر الجديدة ٦٧٥١٢٦٠ - ٢٩١٤٤٤٩

الناشر : المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة : ٨٢٦٧٤٧ - ٨٢٦٢٨٠

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ١٦٠٩٠ شارع كامل صدق القهالة -

٥ شارع الإسماعيل بنفحة الكرى بركسى مصر الجديدة - القاهرة : ت : ٨٢٦٢٨٠ -

٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ع. ٢٠٠٤



اعترافات
جان جاك روسو
الجزء الثاني

الجزء الأول . . فى سطور

ولدت فى (جنيف) - فى عام ١٧١٢ - لأب كان يعمل فى
صناعة الساعات ، ولأم توفيت عند مولدى . وبدلاً من أن
يكرهنى أبى لذلك ، فإنه أسرف فى حبى ، لأننى كنت شديد
الشبه بأبى .

تنبه احساسى قبل أن يتنبه فكرى . ثم عمد أبى إلى
أسلوب خطر، إذ أشركنى فى قراءة الروايات والكتب الدسمة .

اضطر أبى إلى أن يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين
عسكرى فرنسى ، كادت تلقى به إلى السجن دون مبرر قانونى .
فبقيت فى كنف خالى « برنار » ، الذى كان متزوجاً من عمى ،
والذى أرسلنى مع ابنه إلى « بوسى » لتقييم فى رعاية القس
البروتستانتى « لامبرسييه » ، وتلقى العلم على يديه ويدر
أخته التى نبه عقابها إياى، المشاعر الحسية والشهوانية فى
كهاى !

على اثر عقاب ظالم ، لذنوب لم ارتكبه ، كرهت الظلم ،
وولت طمأنينة طفولتى . . وألحقنى خالى بكتب موثق للعقود،
فلم استفسخ هذا العمل . ومن ثم ألحقنى بكسبى - أو تلميذ
صانع - لبدى حنار ينقش على المعادن . وهناك اختلطت بالعمال
الذين كانوا يكبروننى ، وتعلمت السرقة ، سيما وأن معلمى كان
يقسو على بالعقاب والحرمان . ومع ذلك فرائى لم أكن أسرق
حباً فى المال أو الحيازة . . وإلى جانب هذا ، اشتد إقبالى على
القراءة حتى أصبح تهوساً .

واضطرتنى قسوة معلمى ، وفورى من حياتى ، إلى الهرب من (جنيف) . . وانتهى بى المطاف إلى سيدة محسنة فى (انيسى) ، كان ملك سردينيا قد خصها بمعاش ، لأنها اعتنقت الكاثوليكية . . تلك هى « مدام دى فاران » ، التى أشفقت على ، وأرسلتنى إلى دير نبذت فيه عقيدتى البروتستانتية ، وأصبحت كاثوليكية .

واستقطبت بعد ذلك حياة الترحال ، وعانيت الفاقة والمتاعب . ثم انتهيت إلى العودة إلى مدام دى فاران ، التى رحبت بى ، وانزلتنى من نفسها منزلة الابن ، وأفردت لى غرفة فى دارها ، وراحت تنفق على تعليمى الموسيقى ، برغم انكماش مواردها . . وتعلقت بهذه السيدة تعلقا ملك على كل حواسى وعقلى . . ويمرور الأيام صرت أدعوها « ماما » !

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم . فقد أوفدتنى « ماما » مرة لأعاون السيد « لوميتز » ، الذى كان رئيسا لفرقة الموسيقى بكنيسة (انيسى) ، والذى اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء أن يفر من وجوههم . . وقد رافقته إلى (ليون)، حيث أخذت تعاوده نوبات الصرع ، لفرط إسرافه فى الشراب ، ففررت منه فى إحدى هذه النوبات ، وعدت إلى (انيسى) . . وإذا بى أفلجاً بأن « ماما » قد رحلت فى بعض شئونها ، ولم أدر لها مقصدا أو مقرا !

واقمت فترة مع « فينتور » ، وهو شاب كنت أعرفه من قبل ، كان يزعم أنه موسيقى موهوب . وكان لبقاً ، أثيقاً ، مرحاً ، يستهوى الإناث . . وعرفنى « فينتور » بالاضابط

القضائى - السيد سيمون - الذى أبدى ارتياحا لصحبتى .. وكان مشوه الجسم ، شديد القصر ، كبير الرأس ، لذلك كان يطلو له أن يعقد مقابلته فى الضباح ، وهو فى السرير ، حيث تبدو رأسه ذات القسّمات الجميلة ، ولا يبدو جسده المشوه !

والآن .. تابع قراءة هذا الحادث الذى بدأ به « روسو » الكرّاسة الرابعة من اعترافاته .



وفى ذات صباح ، بينما كان ينتظر فى سريره - أو بالأحرى ، على سريره - أصحاب الشكايات ، وقد ارتسدى قطنسوة بيضاء بديعة ، مزدانة بزائدتين عريضتين من شريط وردى اللون ، وصل أحد الرّيفيين وطرق الباب . وكانت الخادم قد خرجت ، فما أن سمع السيد سيمون الطرقات ، حتى صاح مجيبا : « ادخل ! » .. وهو إذا لفظ الكلمة بشيء من القوة ، انبعثت بصوته الحاد . ودخل الرجل ، فبحث عن مصدر هذا الصوت النسوى ، وما أن رأى فى السرير قطنسوة وثريطا ، حتى هم بالخروج ثانية ، وهو يقدم « للسيدة » اعتذارات بالغة . فغضب السيد سيمون ، ولم يزد إلا صراخا ، فتأكد الرّيفى من فكرته ، ورأى أنه قد أهين ، فافترقه بالشتائم ، وقال له - لها : « لست سوى فاجرة » ، وإن السيد الضابط القضائى لا يضرب بحياته المنزلية مثلا طيبا ! .. واشتد بالسيد سيمون الغضب ، فلم يجد فى تناول يده سوى الوعاء الذى يقضى فيه حاجته فى المخدع ، فأوْثسك أن يلقي به على رأس الرجل المسكين ، لولا أن وصلت مدبرة بيته !

وإذا كان هذا القزم الضئيل قد شوهت الطبيعة جسمه ، فإنه لقي تعويضا في الناحية العقلية التى كانت بطبيعتها مقبولة ، والتى كان يعنى بتحسينها . ومع أنه كان يقال عنه إنه كان مستشارا قضائيا موفقا ، إلا أنه لم يكن يحب مهنته . فالتقى بنفسه فى غمار الأدب ، واستطاع أن يوفق . ولقد اكتسب — فوق كل شيء — تلك اللباقة السطحية ، تلك الموهبة التى تبعث فى المجتمع طرافة ، سيما مع النساء ! . . كان يعرف عن ظهر قلب دقائق المأثورات (١) وما إليها ، وقد أوتى من إيرازها ، وربطها بالمناسبات ، وإحاطتها بجو غريب ، وكأن الذى حدث مثلا منذ ستين عاما ، حكاية وقعت بالأمس ! وكان ملها بالموسيقى ، يحسن الغناء — بدرجة مقبولة — بصوته الأدنى . وقصارى القول أنه أوتى مواهب أجمل مما يحتاج إليه مستشار قضائى . وكان بحكم مجاملته لنساء (انيسى) قد أصبح «موضة» بينهن ، فكان دائما يسحبهن وراءهن وكأنه «نفساس» صغير! . . حتى لقد راح يزعم أنه كان محظوظا لدى النساء ، فكان ذلك يطربهن كثيرا . وكانت سيدة منهن — تدعى «مدام ديبانى» — تقول إن أقصى ما يشتهيها هو أن يقبل امرأة فى ركبته! (٢) !

ولما كان مطالعا على كتب الأدب الراقى ، ومشغول بالحدث عنها ، فإن كلامه لم يكن ممتعا فحسب ، وإنما كان مفيدا

(١) مجموعات الأقوال المأثورة من بعض الشخصيات ، والطرائف

الصغيرة الموهبة بهم .

(٢) تعنى أنه لا يستطيع أن يصل الى غيها أو يدها لتصر قائمته !

٩ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى

ايضا . وعندما اكتسبت - فيما بعد - ميلا إلى الدروس ،
أنهيت معرفتى به ، فافدت من ذلك نفعا عظيما . وكنت أسعى
فى بعض الأحيان من (شامبرى) - حيث كنت إذ ذاك - لى
أزوره . وقد أذكى هو فى هذا الميل وشجعه ، وكان يقدم لى
بعض الإرشادات فى مطالعاتى ، فكنت كثيرا ما انتفع بها . ولسوء
الحظ ، كانت تعمر هذا الجسد الواهن نفس مرهفة الحس ،
وقد قدر له - بعد ذلك بسنوات - أن يرتكب ذنبا لا أدريه ،
مما أحزنه ، فلم يلبث أن قضى نحبه . ويا لها من خسارة !
لقد كان - يقينا - رجلا طيبا ، ضئيل الجسم ، يبدأ المرء
بالضحك منه ، ثم ينتهى بأن يحبه ! . . ومع أن حياته لم تكن
مرتبطة بحياتى فى شيء ، إلا أنني أخذت عنه بعض دروس
نافعة ، فرايت - بدافع من العرفان - أن أخصه بحيز من
ذكرياتى !



وما أن انصرفت من لدن السيد سيهون ، حتى هربت
إلى الشارع الذى كانت الأنسة جالى (١) تقيم فيه ، مهنيا نفسى
بأن أرى شخصا ما ، داخلا أو خارجا ، أو فاتحا إحدى النوافذ ،
على الأقل ! . . ولكن شيئا ما لم يلح لى ، ولا هرة ! بل إن
المبيت ظل - طيلة مكثى هناك - مغلقا تماما ، وكأنه لم يعمر
قط بسكان . وكان الشارع صغيرا ومقفرا ، فكان وجود إنسان

(١) اعتاد الماشق فى أمبانيا أن يثق على قارعة الطريق ، بالقرب من دار
الحبيبة وينفى فى المزق على « الجيتار » متى أن تظن الى وجوده ، فتتم
عليه بنظرة !

كثيرا بأن يستلقت الأنظار . . وبين الحين والحين ، كان يعبره مار ، ما بين داخل أو خارج من البيوت المجاورة . وتلفتت من أجل نفسى ، فقد تراءى لى أنهم كانوا يحدثون سر وجوذى هناك . وأمضتني هذه الفكرة ، فقد اعتدت دائما أن أقدم شرف وطمانينة أولئك الأعزاء لى ، على مسراتى الخاصة .

وأخيرا ، ملكت لعبة العاشق الاسبانى (١) ، ولما لم يكن ثمة «جيتار» معى ، فقد اعترمت الكتابة إلى الأنسة دى جرافينرييه . وكنت أفضل أن اكتب لصديقتها ، ولكنى لم أكن أجسر ، فضلا عن أنه كان من الالىق أن أبدا بالتى كنت مدينا لها بمعرفة الأخرى ، والتى كنت معها أكثر ألفة ومودة . وما أن أنهت رسالتى ، حتى حملتها إلى الأنسة « جيرو » (٢) ، وفقا لما اتفقت عليه مع الأنستين عندما افترقنا ، وكائنا هما اللتان اقترحنا هذه الطريقة للتراسل . ذلك أن الأنسة «جيرو» كانت تحترف تنجيد الأثاث ، وقد عملت حيناً فى دار السيدة جالى ، ومن ثم فقد كان دخول الدار مباحا لها . والحق أن اختيار هذه الوسيلة لم يبد لى موفقا ، ولكنى خشيت ألا ترشح الفتاتان سواها ، إذا أنا أثرت أى اعتراض . كما أننى لم أجرو على القول بأنها كانت تعمل لحسابها الخاص . . وكنت أشعر بالضغّة لمجرد

(١) الأنسة جالى والأنسة دى جر افينرييه هما الفتاتان اللتان قضى روسو معهما يوما بهيجا فى الزيت - (الصفحات ٢٦٠ - ٢٦٢ من الجزء الأول)

(٢) « جيرو » هى صحيفة لوصيفة مدام دى غاران المدعوة « مرسريه » ، وكانت « جيرو » قد أعلنت على روسو الحب ، برغم نفوره الشديد منها

أنها كانت تجرؤ على أن تظن نفسها — فى نظرى — منتمية إلى نفس جنس الأنستين ! على أننى ارتضيت فى النهاية هذه الوسيلة لنقل رسالتى ، نظرا لعدم وجود سواها ، فأقدمت عليها برغم كل النذر !

واكتشفت « جيرو » سرى منذ الكلمة الأولى، فما كان هذا بالأمر العسير . وإذا كانت الرسالة الموجهة إلى فتاة شابة لا تشئ بحقيقة الأمر ، فإن ارتباكى واضطرابى كانا كفيلى بأن يكشفنا سرى ! وقد يخطر بالبال أن هذه المهمة لم تبعث فى نفس الفتاة أى سرور ، ولكنها فى الواقع تكلفت بها ، وأدتها بأمانة . وفى الصباح التالى هرعت إليها ، فوجدت الرد المنشود . وما كان أسرعنى فى الخروج من دارها ، لأقرأه وأقبله دون حرج ! . . . وليست بى حاجة إلى أن أفيض فى هذا ، ولكن الذى يختاج إلى إسهاب ، هو مسلك الأنسة جيرو ، فقد وجدت فيه من الرقة والاعتدال فوق ما كنت أتوقع . كانت من الحكمة بحيث رأت أنها — بسنى عمرها السبع والثلاثين ، وبعينيتها الشبيهتين بعينى الأرنب ، وبأنفها الملوث بالسعوط ، وبصوتها الحاد الرقيق وبشرتها السوداء — لا يمكن أن تبارى فتاتين شابتين ، ملينتين بالحسن ، وفى كل أبهة الجمال . . . ومن ثم لم تشأ أن تغدر بهما ، كما لم تشأ أن تخدمهما . . . بل إنها آثرت أن تفقدنى على أن تسامدهما على الظفر بى . (كما سيبدو فيما بعد) .

٧ — سنة ١٧٣٢

وكانت « ميرسيريه » قد بدأت تفكر — منذ فترة — فى العودة إلى (فريبور) ، إذ أنها لم تنطق أى فبا من سيدتها ،

١٢. اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثاني

وما لبثت الأنسة جيرو أن حملتها على أن تقرر ذلك ، بل إنها ذهبت إلى أبعد من هذا ، فأدخلت في روعها أن المستحسن أن يرافقها أحد إلى دار أبيها ، ورشحتني لذلك^(١) ورأت ميرسريه الصغيرة — التي لم أكن بغيضا إليها — أن الفكرة صالحة ، فإذا بهما تحدثاني عنها ، في نفس اليوم ، وكأنها أمر مفروغ منه ! ولما لم أجد ما يضريني في البعد بهذه الطريقة ، فقد وافقت ، وأنا أحسب أن الرحلة لن تعدو ثمانية أيام على الأكثر . ولكن جيرو لم تحسب مثل هذا الحساب ، وتولت تدبير كل شيء . واضطرت إلى أن أكتشف حالتي المالية ، فسرعان ما دبرت لى الموارد ، إذ تكفلت «ميرسريه» بنفقاتي . وتعويضاً عن الخسارة التي تكبدتها بذلك ، وافقت الفتاة — تحت إلحاحي — على أن ترسل متاعها البسيط مقدماً ، بينما نقطع نحن الرحلة على الأقدام ، متجهين .. وهذا ما حدث !

ولكم يؤسفني أن أتحدث عن فتيات عديدات كن يحبينني .. على أنني لا أجد مبرراً لأن أزهو بما خرجت به من كل هذه الغراميات .. ومن ثم أرى أن بوسعي أن أقول الحق دون تمويه ، فإن الأنسة « ميرسريه » — التي كانت أصغر سناً وأقل دهاء من جيرو — لم تبد قط نشاطاً كالذي كانت هذه تبديه لإغرائني ، وإنما كانت تقلد لهجتي وصوتي وإغائتي ، وتردد كلماتي ، وتولينني من الاهتمام ما كان ينبغى أن أوليها

(١) كانت هذه هي الحيلة التي لجأت إليها « جيرو » المكرة كي تبعد

روسو عن محبوبته ، ومن المدينة كلها !

اعترافات جان چال روسو - الجزء الثانى ١٣

يايه .. كما كانت تحرص دائما على أن ننام فى حجرة واحدة ، إذ كانت شديدة الخوف .. ! وهى ألفة نادرا ما تقف عند هذا الحد ، فى رحلة تجمع بين شاب فى العشرين وفتاة فى الخامسة والعشرين ! .. ولكن هذا هو عين ما جرى ، فى هذه المناسبة . فبالرغم من أن « ميرسيريه » لم تكن دهيمة ، فإن سذاجتى لم تقف عند حد أننى لم أعمد — خلال الرحلة بأسرها — إلى النطق بأتفه مغازلة فحسب ، وإنما بلغت بى السذاجة أننى لم أفكر — مجرد تفكير — فى شيء من هذا القبيل على الإطلاق ! .. بل إنه لو خطرت لى هذه الفكرة ، لعجزت لغبايى عن أن أفيد منها ! فما كنت لأتصور كيف تنام فتاة وشاب فى فرائش واحد .. وكنت أخال أن الاستعداد لمثل هذا الأمر الرهيب يتطلب قرونا من الزمن ! .. وإذا كانت ميرسيريه البائسة قد طمعت — حين تكلمت بنفقتى — فى جزاء من هذا القبيل ، فقد خاب حدسها ، لأننا بلغنا (فريبور) بنفس الحال التى غادرنا بها (انيسى) تماما !

وعندما مررنا بجنيف ، لم أسع لزيارة أحد ، ولكنى أوثقت أن أصاب بمرض من فرط انفعالى وأنا أعبر جسور المدينة . أبدا ما أقبلت على هذه المدينة ، ولا ولجت أبوابها دون أن أحس بقلبي يغوص وقد أثقلته الانفعالات الطاغية ! .. فبينما كانت صورة الحرية النبيلة تسمو بروحى ، كان التفكير فى المساواة والاتحاد ورقة الخلق يؤثر فى نفسى إلى الدرجة التى تدمع عندها عيناي ، ويبعث فى حسرة محتدمة على كونى قد حرمت من كل هذه النعم ! .. وكنت مخطئا ! — ولكن ، كم

كان هذا الشعور طبيعيا ، كذلك ! — لقد كنت أخال أننى أرى كل هذه النعم فى وطنى ، لأننى كنت أحملها فى سويداء قلبى ! واضطررنا إلى أن نهرب مدينة (نيون) .. فهل كنت اجتازها دون أن أرى أبى الشيخ ! ؟ لو أننى فعلت ، لكنت خليقا بأن أموت — بعده — كمدا ! .. ومن ثم تركت ميرسريه فى الفندق وذهبت لأراه ، برغم كل الاعتبارات . آه ، ما كان أشد خطئى إذ أوجست من لقائه ! .. فما أن اقتربت منه ، حتى تفتح قلبه لعواطف الأبوة العارمة .. وكم بكى عندما تعانقنا ! .. ولقد ظن — بادئ الأمر — أننى عدت إليه ، فأنبأته بقصتى وبخطئى .. وعارض فى وهن ، وراح يصرفنى بالآخطار التى كنت أعرض نفسى لها ، قائلا إن أقصر النزوات والحماقات هى أفضلها ! .. وفيما عدا ذلك ، لم يداخله أى ميل إلى غصبى على البقاء ، وأرى أنه كان فى ذلك على حق ، ولكن من المؤكد أنه لم يبذل كل ما كان فى وسعه لاستيقائى ، إنها لأنه كان يرى — فى تقديره — أن من واجبى ألا أعود إليه ، وإيا لأنه كان فى حيرة .. ولعله لم يكن يدرى ما الذى يفعله بى فى مثل تلك السن التى بلغتها ! .. ولقد علمت فيما بعد أنه يكون لنفسه من زميلتى فى الرحلة فكرة كانت جد ظالمة وجد بعيدة من الحقيقة ، ولكنها — على أية حال — كانت طبيعية ! .. وكانت زوجة أبى امرأة طيبة ، على شئ من الدهاء والقول المعسول ، فقد تظاهرت بالرغبة فى استيقائى للعشاء .. ولكنى لم أمكث ، وإن وعدتها بأن أبقى معها وقتا أطول عند عودتى ، وعهدت إليها بحزمة منامى الصغيرة ، التى كنت قد أرسلتها فى مركب ، والتى كنت جاثرا

فيما أفعله بها . وفى اليوم التالى رحلت مبكرا ، وأنا جد مغتبط بأننى رأيت والدى ، وأننى وجدت الجرأة على أن أؤذى واجبى !



ووصلنا بسلام إلى (فريبور) ، وكانت مغازلات الانسة ميرسيريه قد خفت عندما اقتربت نهاية الرحلة . حتى إذا وصلنا ، لم تعد تبدى لى سوى الفتور ، كما أن أباهما — الذى لم يكن غارقا فى الرخاء — لم يولنى حفاوة بالغة ، فاضطرت إلى أن أقضى ليلتى فى إحدى الحانات . . وزرتهما فى اليوم التالى ، فدعوانى إلى العشاء ، وقبلت الدعوة . . ثم افترقنا دون ما دموع ، وعدت فى المساء إلى حائتى . وفى اليوم التالى رحلت ، دون أن أدري وجهة أقصدها !

وكانت تلك فرصة أخرى أرادت فيها العناية أن تمنحنى ما كنت أبتغيه لى أنفق أيامى فى هناء . . فلقد كانت ميرسيريه فتاة جد طيبة ، ولئن لم تكن بالذكية ولا بالجميلة ، فانها لم تكن — كذلك — بالدميمة ، كما أنها كانت على شئ من النشاط وكثير من الرزانة . وكانت تتعرض أحيانا لنوبات قصيرة عابرة ، تقضيها فى بكاء ، ولكن هذه النوبات لم تكن تفضى قط إلى مواعب عاصفة . ولقد كانت الفتاة صادقة الميل نحوى ، فكان بوسعى أن أتزوجها دون عناء ، وأن أحترف مهنة أبيها (١) — إذ أن ميلى للموسيقى كان كفيلا بأن يجعلنى أحب هذه المهنة — وأن أستقر فى (فريبور) ، وهى بلدة صغيرة ، قليلة الجمال ،

(١) يلهم من هذه العبارة أن أباهما كان موسيقيا .

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثانى

١٦

ولكنها تضم قوما طيبين . وكنت بذلك سأحرم بلا شك من متع عظيمة ، ولكنى كنت خليقا بأن أعيش فى سلام إلى آخر لحظة فى حياتى . ولقد كنت جديرا بأن أعرف — أكثر من أى امرئ آخر — أنه لم يكن ثمة ما يبرر التردد لحظة واحدة ازاء صفقة كهذه !

وعلى اثر رحيلى من (مرييور) لم أرجع إلى (نيون) ، وإنما اتجهت إلى (لوزان) ، فقد شئت أن أتلى بمنظر البحيرة الجميلة التى تشاهد هناك فى أكثر أجزائها اتساعا . ولم تكن اغلب البواعث الخفية التى تقرر مسلكى ، بواعث جامدة . . فإن المناظر التى تشاهد عن بعد ، نادرا ما كانت من القوة بحيث تحفزنى على العمل ، كما أن المستقبل غير المضمون كان يجعلنى انظر دائما إلى المشروعات التى يتطلب تنفيذها اجلا طويلا ، نظرتى إلى حيل خادعة ! . . وأنا بطبعى ، أنغمس فى الآمال كغيرى ، طالما كانت لا تكبدنى شيئا ، أما إذا كانت تتطلب رعاية مستمرة فلننى لا أمضى وراءها . . وأن أقل متعة صغيرة تعرض لى ، وتكون فى متناول يدى ، لأكثر إغراء لى من مباحج الفردوس . . على أننى أستثنى من ذلك، المتعة التى يعقبها ألم، فهى لا تغرينى قط ، لأننى لا أحب سوى المسرات النقية الخالصة ، وهذه لا يحظى بها المرء اطلاقا عندما يعرف أنه إنما يهيب نفسه للندم !

وكنت بحاجة ماسة إلى بلوغ أى مكان . . فكان اقرب الاماكن هو افضلها ! ولما كنت قد ضللت طريقي ، فقد الفيتنى — ذات مساء — فى (مودون) ، حيث أنفقت القليل الذى كان قد تبقى

معى ، ما عدا عشرة « كروتزرات » (١) ، لم تلبث أن تبددت فى الغذاء ، فى اليوم التالى . . حتى إذا بلغت - فى المساء - قرية صغيرة على مقربة من (لوزان) ، دخلت إحدى الحانات وليس فى جيبى دائق أدفعه لقاء مبيتى ، بل إننى لم أكن أدري ما قد يكون من أمرى ! وكنت جد جائع ، فوجدت وطلبت عشاء . كما لو كنت أملك أن أدفع ثمنه ! . . ثم أويت إلى مضجعى دون أن أحملهما ، فاستغرقت فى نوم هادى . وبعد أن أفطرت - فى الصباح التالى - وحاسبت مضيقى ، أردت أن أترك له صديرى رهنا ، لقاء السبعة « باتزرات » (٢) ، التى بلغت نفقاتى . ولكن الرجل الطيب أبى ، وقال إنه - والحمد للسماء - لم يجرّد أحدا قط من ثيابه ، وأنه ما كان ليشرع فى ذلك لقاء سبعة « باتزرات » ، ومن ثم فقد بات فى وسعى أن يحتفظ بصديرى ، على أن أدفع له حقه متى استطعت . وقد تأثرت لطيبته ، ولكن بدرجة أقل مما كان ينبغى ، وأقل مما صرت أشعر كلما تذكرت الأمر بعد ذلك . وقد بادرت بإرسال المبلغ إليه فيها بعد ، شاكرا ، مع رجل أئتمنته . . على أننى بعد خمس عشرة سنة ، مررت بلوزان ، فى عودتى من إيطاليا ، فحسرت بأسف صادق لكونى نسيت اسم الحانة واسم الرجل ، وإلا لذهبت لرؤيته ، ولحظيت بسرور حقيقى وأنا أذكره بالخير الذى أسداه ، وأثبت له أنه لم يضعه فى غير موضعه ! . . وكمن من خدمات أكثر أهمية ، بلاشك - ولكنها بذلت بكثير من

(١) « لكوتزر » عملة ألمانية ونمساوية قديمة .

(٢) « الباتز » عملة ألمانية أخرى .

وفيما كنت أقترِب من (لوزان) ، رحت أتأمل الضيق الذي وجدتني فيه ، والوسائل التي أستطيع بها أن أنتزع نفسي منه دون أن اطلع زوجة أبى على تعاسى ! .. واخذت أقيس نفسي — فى سفرى على الأقدام — بصديقى منتور عندما وصل إلى (انيسى) ، فإذا بهذه الفكرة تبث الدفء فى نفسى، حتى اننى اعترمت أن أكون « منتور » صغيرا فى (لوزان) ، دون أن يجول بخاطرى أننى لم أوت لطفه ولا مواهبه .. وقررت أن أقوم بتدريس الموسيقى التى لم أكن على علم بها ، وأن أزعم اننى وفدت من باريس — التى لم أزرها قط ! — وبناء على هذا المشروع البديع ، شرعت فى السؤال عن فندق صغير أستطيع أن أجد فيه مقرا مريحا بابخس النفقات . إذ لم تكن ثمة مدرسة للشمامسة أستطيع أن أعرض عليها معونتى ، كما اننى لم أكن من الغباء بحيث أندس وسط أهل الفن ! .. ودلنى البعض على شخص يدعى « بيروتيه » كان يؤجر غرضا فى داره . وتجلى لى أن هذا الـ « بيروتيه » كان خير رجل فى العالم ، وقد أحسن استقبالى . وإذ رويت له أكاذيبى الصغيرة — كما دبرتها — وعدنى بأن يذكرنى لدى الفاس ، وأن يسعى ليأيننى ببعض التلاميذ . وقال لى إنه لن يسألنى أجرا إلا بعد أن اكتسب ثغورا . وكان أجر المنزل خمسة دنائير بيضاء (١) ، وهو أجر

اعترافات جان چالد روسو - الجزء الثانى ١٩

زهيد بالنسبة للمكان ، ولكنه كان باهظا بالنسبة لى . ولقد نصحنى « بيروتيه » بأن أكون فى البداية « نصف نزيل » ، أى أن أستمتع بالإقامة ، وبغداء يتألف من حساء دسم — لا أكثر — وبعشاء طيب فى المساء . . فوافقت . كان هذا الـ « بيروتيه » المسكين يقدم لى كل هذه الميزات عن طيب خاطر ، وعن خير نية فى الدنيا . ولم يكن يدخر وسعا كى يساعدنى !

ترى لماذا قدر لى — وقد وجدت كل هؤلاء الناس الطيبين فى صباى — ألا أجِد منهم فى كبرى إلا القليلين ؟ . . أياكون نوعهم قد انقرض ؟ . . لا ، ولكن الطبقة التى اضطر إلى البحث عنهم فيها اليوم ، لم تعد عين الطبقة التى كنت أعتز عليهم فيها من قبل ! ذلك لأن نداء الأحاسيس الفطرية يزداد ترددا وانبعاثا لدى الناس الذين لا يسمع التمشدق بالعواطف العظمى بينهم إلا قليلا ! . . أما بين أبناء الطبقات الراقية، فإن المشاعر الفطرية تختنق تماما ، فلا يعلو سوى صوت المصلحة أو الغرور !



وكتبت لأبى من (لوزان) ، فأرسل حزمة متاعى ، وخصنى بنصائح رائعة ، كان خليقا بى أن أفيد منها . . وكنت قد لاحظت أننى أصبحت أتعرض لفترات من الشرود لم أدر مأتاها ، بل كنت لا أشعر خلالها بنفسى — وهنا أيضا بادرة من البوادر التى تستحق الملاحظة ! — ولكى تدرك إلى أى مدى كنت أفقد رأبى ، وإلى أى مدى « ففترت » نفسى — أى تشبهت بففتورا ، إن صح هذا القول — يكفى أن نرى كم من الأعمال الجنونية كنت آتيها معا ، وفى آن واحد ! : فهنا قد غدوت

وإذ صرت باريسيا من (جنيف)، وكاثوليكا في بلد بروتستانتى، فقد رايت أن على أن أغير اسمى كما غيرت عقيدتى ووطنى، إذ كنت أحاول دائما أن أصبح أقرب ما أكون إلى المثل العظيم الذى اتخذه . وقد كان يسمى نفسه « فنتور دى فيلنيف » ، لذلك قلبت اسم « روسو » إلى « ووسور »، أو « فوسور »، وأسمايت نفسى « فوسور دى فيلنيف » ! ولقد كان « فنتور » على معرفة بالفلحين ، وإن لم يقل شيئا عن ذلك . . أما أنا ، فبدون معرفة بالفلحين ، رحت أفخر ببراعتى أمام العالمين . . وبدون أن أستطيع تمييز أبسط أغنية دارجة ، جعلت من نفسى ملحنًا ! . . ولم يكن هذا كل ما فى الأمر ، فقد قدمت إلى السيد دى تريوران — وكان أستاذًا فى القانون، أحب الموسيقى واعتاد أن يقيم حفلات موسيقية فى داره — فشئت أن أعرض عليه « عينة » من براعتى ، وعكنت على وضع لحن لإحدى حفلاته فى جراحة باللغة ، وكائننى كنت أعرف كيف أؤدى المهمة ! . . وواظب على العمل خمسة عشر يوما فى إعداد هذا اللحن الجميل ، وفى نسخ صورته ، وفى تقسيم أجزائه ، وفى توزيعها بإطمئنان بالغ ، وكان اللحن تحفة متناسقة . وأخيرا — الأمر

(١) لعله يقصد أن الفن لم يكن موهبة أصيلة في نفسه .

الذى لا يكاد يصدق ، ولكنه الحقيقة الخالصة — أردت ان أتوج هذا الإنتاج الراقى بشكل يليق به ، فأضفت فى النهاية أغنية بديعة كانت تتردد فى الطرقات ، ولعل الناس أجمعين لا يزالون بذكرونها ، وهذا نصها :

« يا للفجور .. ويا للجحود .. ماذا ؟ !

هل غدرت حبيبتيك كلاريس بأهلك ؟ ! .. الخ » .

وكان فتور قد لقننى هذا اللحن — الذى يعزف على أوتار الطبقة الثانية — مع كلمات أخرى بذينة ، تذكرته بفضلها . ومن ثم أضفت فى نهاية لحنى هذا المقطع وأنغامه الخفيفة ، وقدمت الجميع على أنها من ابتداعى ، فى اعتداد ، وكأننى كنت مخاطب قوما من سكان القبر !

واجتمعت الفرقة لعزف لحنى ، فشرحت لكل فرد نوع الحركة ، وطريقة الأداء ، وعلامات تكرار الأجزاء ، وانهمكت فى ذلك كل الانهماك .. فمضى العازفون خمسا أو ست دقائق — بدت لى كخمسة أو ستة قرون ! — فى تنسيق أصواتهم وآلاتهم ، حتى أصبحوا أخيرا على تمام الأبهة ، فوقعت الضربات الخمس أو الست إشارة الانتباه ، على منضدة القيادة ، بأنبوبة بديعة من الورق ، فساد الصمت ، وبدأت أوقع الوقت فى عظمة وجد .. وبدأ العزف ! — لا ، فمبذ ظهور « الأوبرا » الفرنسية على قيد الحياة ، لم تسع مثل تلك « الضوضاء » ! — ومهما يكن قد خالج القوم بصدد براعتى المزعومة ، فإن الأثر كان أسوأ من أى شيء توقعوه ! .. وكتم الموسيقيون ضحكهم ، بينما فتح المستمعون عيونهم عن آخرها ، وكانوا على استعداد لأن

يسدوا آذانهم ، ولكنهم لم يعرفوا لذلك وسيلة . وعمد العازفون القساة - رغبة في السخرية - إلى العزف بشدة كافية لأن تخرق طبلة أذن الأصم (١) !

وأوتيت من الجلد ما يكفى لأن أستمر في دورى دون توقف ، وإن راح عرقى يتصبب غزيراً في الواقع . . فقد منعنى الحياء ، فلم أجرؤ على الهرب ، بينما كان الجميع جالسين . . وعلى سبيل العزاء ، سمعت المساعدين المحيطين بى يتهايمسون بعضهم في آذان بعض ، أو - بالأحرى - في أذنى . . فقال أحدهم : « ليس في هذا ما يطاق ! » . . وقال آخر : « يا لها من موسيقى جنونية ! » . . وقال غيره : « يا للحن الشيطاني » . . مسكين أنت يا جان جاك ، فما طمعت - في تلك اللحظة - في أن تنتزع أنفامك هذه يوماً ، وفي حضرة ملك فرنسا وحاشيته بأسرها ، تمتات الدهشة ، وتصفيق الإعجاب . . وأن تتهايمس النسوة الفاتنات ، في المقصورات المحيطة بك : « يا لها من نغمات ساحرة ! . . أية موسيقى فائنة ! . . كل هذه الأنغام تنفذ إلى القلب ! » .

على أن الذى رد القوم إلى رضاهم ، هو ذاك المقطع الذى أضفته في النهاية . . فما أن عزفت بضع نغمات منه ، حتى سمعت القهقهات تتصاعد من كل جانب . . وأخذ كل امرئ

(١) في الأصل : تخرق اثن أحد الخمسة عشر عشرينا . . كتابة عن نزيل المستشفى الذى يحمل هذا الاسم « الخمسة عشر عشرينا » في باريس ، والذي انتهى في الأصل ليأوى ٣٠٠ أسمى .

يهنئنى بذوقى الجميل ، ويؤكد لى ان هذا المقطع كميل بان
يذيع اسمى ، وائنى جدير بأن تردد انغماسى فى كل مكان .
ولست بحاجة إلى أن أصف غمى ، ولا إلى أن أعترف بأننى
كنت أستحقه !

وفى اليوم التالى، جاء أحد العازفين- وكان يدعى « ليتولد »-
ليرانى ، وكان من الأمانة بحيث أنه لم يهنئنى بنجاحى ..
فإذا شعورى العميق بحماقتى ، وبالخجل والندم واليأس من
جراء الحال التى انحدرت إليها ، واستحالة إبقاء قلبى مغلقا
على هذه الآلام الجسيمة .. إذا شعورى هذا يحملنى على أن
أفتح قلبى له ، وأن أطلق العنان لدموعى .. وبدلا من أن أكتفى
بان أعترف له بجهلى ، أفضيت إليه بكل شئ ، وسألته أن
يكنم سرى ، فوعدنى بذلك ، وبر بوعده على النحو الذى يمكن
تصوره .. فما أن حل مساء اليوم ذاته ، حتى كانت (لوزان)
بأسرها قد عرفت حقيقتى ! .. وكان أعجب ما فى الأمر ، أن
أحدا لم يطلعنى على أنه قد عرفها ، ولا « بيروتيه » الطبيب ،
الذى لم يحجم ، برغم ذلك كله ، عن إيوائى وإطعامى !

وقدر لى أن أعيش ، ولكن فى حزن غامر . وكان من جراء
موقف كهذا ، أن لوزان لم تعد بالنسبة لى مقاما مستحبا ،
فلم يقبل التلاميذ زراعات . بل اتنى لم أظفر بظلمة واحدة ،
ولا بأحد من أبناء المدينة .. كل الذين ظفرت بهم كانوا اثنين
أو ثلاثة من الألمان الذين كانوا من الغباء بقدر ما كنت من الجهل ،
وكانوا يضايقوننى إلى درجة الموت ، كما أنهم لم يصبحوا -
على يدى - ولو عازفين غير منتظمين ! .. ولم ادع إلا إلى

بيت واحد ، كانت فيه فتاة صغيرة - كانها الحية - أخذت تنلهى باطلاعى على كثير من القطع الموسيقية التى كنت عاجزا عن قراءة « نوتاتها » ، ثم كانت تنطلق فى الغناء - بعد ذلك - أمام مدرس الموسيقى لقريه كيف يجب ان يؤدى اللحن ! . . وكنت لا أكاد أستطيع أن أقرأ أى لحن من أول نظرة ، حتى اننى - فى الحفلة الباهرة التى تحدثت عنها - كنت عاجزا عن أن أتتبع العزف لحظة لأتبين ما إذا كان العازفون يحسنون توثيق ما كان تحت بصرى ، وما كنت قد الفته بنفسى ! ، أم لا !

وفى غمرة هذا الهوان ، وجدت عزاء فى الانباء التى كنت ألتقاها بين وقت وآخر ، من الصديقتين الفانتيتين . . فلقد اعتدت دائما أن أجد طاقة مرفهة عظيمة فى الجنس الآخر ، فليس ثمة ما يواسى أحزانى - فى المصائب - أكثر من أنثى لطيفة تعنى بى ! . . على أن هذا التراسل لم يلبث أن انقطع بعد ذلك بقليل ، ولم يقدر له أن يستأنف قط . . غير أن ذلك كان فى الواقع ذنبى ، إذ أننى عندما غيرت محل إقامتى ، أغفلت أن أبعث إليهما بعنوانى ، ثم نسيتها تماما ، إذ كنت مضطرا - بحكم الضرورة - إلى أن أفكر فى نفسى باستمرار !



ولقد انقضى وقت طويل دون أن أتحدث عن « ماما » (١) المسكينة . على أن المرء يكون جد مخطيء إذا ظن أننى نسيتها

(١) رابنا فى الجزء الأول كيف أطلق روسو على راعيته الكريمة « مدام

دى فاران » لقب « ماما » .

هى الأخرى ، فإتبنى لم أكف عن التفكير فيها ، وعن الشوق إلى العثور عليها ثانية ، لا لحاجتى المادية فحسب ، وإنما لما هو أكثر من ذلك .. لحاجتى القلبية ! .. كان تعلقى بها — برغم ما كان عليه من حرارة وحنان — لا يحول بينى وبين أن أحب غيرها ، ولكن على غير شاكلة حبى لها ! فإن النساء جميعا كن — على السواء — مدينيات بعاطفتى لمفاتيهن .. أما هى ، فكانت لها مكانة فريدة ، دونها مكانات الأخريات ، فلم تكن مفاتيهن تعدو عليها .. بل لقد كان من المحتمل أن تهرم « ماما » وأن تصبح دمية ، وأنا مقيم على حبها ، دون أن يقل شغفى بها ! .. كان قلبى قد نقل إلى شخصها كل التجديد الذى استشعره من قبل نحو جمالها ، فما كانت عواطفى نحوها لتتغير قط — مهما يكن التغير الذى يتعرض مظهرها له — طالما ظلت فى جوهرها هى بذاتها ! .. وكنت أدرك تمامها أننى مدين لها بالفضل ، ولكنى لم أفكر فى ذلك قط ، فى الواقع .. بل كان ما فعلته وما لم تفعله من أجلى سواء عندى ، إذ أننى لم أحببها عن شعور بالواجب أو بالمصلحة الذاتية ، ولا عن خضوع وامثال ، وإنما أحببتها لأننى خلقت كى أحبها ! .. وكنت عندها أقع فى هوى أية امرأة أخرى ، أشغل بها — كما ينبغى أن أعترف — فيقل تفكيرى فى « ماما » .. ولكنى كنت إذا ما عدت للتفكير فيها ، أفكر بنفس المتعة . وما شغلت بها قط — سواء كنت على حب أو لم أكن — دون أن أشعر بأننى لن أجد سعادة حقيقية قط فى الحياة طالما كنت بعيدا عنها !

ومع اننى لم اسمع عنها منذ امد طويل ، إلا اننى لم اعتقد قط بأننى فقدتها تماما ، ولا خطر لى أن من الممكن أن تكون قد نسيته . وكنت أقول لنفسى : « إنها لن تلبث أن تعلم — طال الوقت أو قصر — بأننى شريد وحيد ، فتبعث إلى بما يطعننى إلى أنها على قيد الحياة . ولسوف القاها ثانية ، بكل تأكيد . وفى انتظار ذلك ، كان من بواعث البهجة أن أعيش فى مسقط رأسها ، وأن اجتاز الطرقات التى سارت فيها من قبل ، وأمر بالبيوت التى كانت تقيم فيها . . كل هذا بالحديث والتخمين ، فقد كان من نزواتى الحمقاء اننى كنت عاجزا عن أن أحمل نفسى على الاستعلام عنها ، بل عن ذكر اسمها ، ما لم تكن ثمة ضرورة ماسة . . كان يبدو لى أننى بذكر اسمها أثنى بكل ما كانت تلهمنى إياه من مشاعر ، وأن فى يفضح سر قلبى ، وأننى أخرجها بطريقة ما ! كذلك خيل لى أن تخرجى عن ذكر اسمها كان يمتزج بشعور ما كان يوحى إلى بأن أحدا قد يذكرها أمامى بسوء ! فقد كان الناس يكثر من الحديث عن الخطوة التى اتخذتها ، ويهسون سلوكها بعض الشيء . لذلك أثرت ألا اسمع أى شئ يقال عنها — على الإطلاق — خوفا من أن يقال لى ما لا أتوق إلى سماعه !

ولما لم يكن تلاميذى يشغلوننى كثيرا ، وكان مسقط رأسها لا يبعد عن (لوزان) بأكثر من أربعة فراسخ ، فقد قضيت ثلاثة أيام أو أربعة أتمشى هناك ، دون أن يفارقنى أعذب شعور عرفته . كان لمنظر (بحيرة جنيف) وصفائها البديعة سحر يأسر هينى دائما ، ولا قبل لى بوصفه . . سحر لم يكن

ينحصر فى جمال المنظر فحسب ، بل كان يشتمل ايضا على شىء أكثر جاذبية ، وأقدر على التأثير على ، والسيطرة على مشاعرى . وفى جميع المرات التى كنت اقترب فيها من مقاطعة (فود) ، كان يخامرنى شعور ينطوى على ذكرى « مدام دى فاران » — التى ولدت هناك — وأبى ، الذى عاش هناك ، والآنسة دى « فيلسون » التى استمتعت بأولى ثمار حب صباى ، وكثير من الرحلات البهيجة التى قمت بها فى طفولتى . . . وسبب آخر — فيما يبدو لى — كان أكثر إثارة ، وأشد غموضا ، وأقوى سلطانا من كل هذه مجتمعة ! . . . كانت الرغبة المتأججة فى هذه الحياة الهائلة الوادعة — التى كانت تفرمنى برغم أننى ولدت لها — تتجه دائما إلى مقاطعة (فود) ، على مقربة من البحيرة ، ووسط الريف الفتان . . . كنت أصيبو إلى أن يكون لى بستان على شاطئ هذه البحيرة دون سواها ، وإلى أن يكون لى صديق أمين ، وامرأة لطيفة ، وبقرة ، وزورق صغير . . . ولن أنعم بسعادة كاملة على الأرض ، إلا إذا تحقق لى كل هذا ! وانى لأضحك من السذاجة التى كانت تحسبى إلى زيارة هذه البلاد مرارا ، لمجرد البحث عن هذه السعادة الخيالية ! وكنت أدهش دائما إذ كنت أجد سكانها — لا سيما النساء منهم — على النقيض مما كنت أئشد . . . لكم كان يهولنى هذا التناقض ! . . . أبدا لم يلح لى أن كلا من المقاطعة وأهلها قد خلق من أجل الآخر !



وفى خلال الرحلة إلى (فيفای) (١) ، أطلقت نفسى —
وأنا أتمشى على شاطئ البحر الجميلة — للشجون العذبة ،
غإذا بقلبي يندفع فى شوق إلى آلاف من المئات الريئة ،
وأترعت نفسى بالانفعالات ، فرحت أأنهد وابكى كالطفل ! ..
كم من مرة توقفت لأبكى ما شاء لى البكاء ! .. وكنت أجلس
على حجر كبير ، أتسلى بتأمل دموعى وهى تتساقط فى الماء !

وفى (فيفای) ، أتمت فى (لاكلية) . وفى خلال اليومين
الذين أقمتهما هناك دون أن أرى أحدا ، تملكنى نحو هذه
الدينية حب ظل يلاحقنى فى كل رحلاتى ، وحملنى — فى
النهاية — على أن أقيم فيها معبدا لأبطال خيالى القصصى . وانى
أقول — عن طيب خاطر — لأولئك الذين أوتوا ذوقا وحسا
مرهفين : « اذهبوا إلى فيفای .. وجوسوا خلال ريفها ، وتأملوا
المواقع ، وتمشوا على ضفاف البحيرة ، وقولوا ما إذا كانت
الطبيعة لم تخلق هذا البلد الجميل لجوليا وكليروسان برو (٢) ..
ولكن ، لا تتوقعوا أن تجدوهم هناك ! » .. على انى أعود الآن
إلى قصتى :

ولما كنت كاثوليكيًا ، وقد اعترف بى كذلك ، فقد رحلت
أمارس جهارا ، وبدون إحجام ، العقيدة التى اعتنقتها ..
وكنت — فى أيام الأحد ذات الجو المعتدل — أحضر الصلاة فى
(اسين) ، على مبعدة فرسخين من (لوزان) ، فكانت أقطع

(١) مستط رأس مدام دى « تاران » .

(٢) هؤلاء الثلاثة من أبطال قصة روسو الطويلة (هيلوبز الجديدة) .

المسافة عادة فى صحبة غيرى من الكاثوليكين ، اذكر منهم بالذات شخصا كان يحترف التطريز الباريسى ، وقد غاب عنى اسمه . ولم يكن الرجل باريسيا على شاكلتى ، وإنما كان باريسيا صميما ، من باريس . وكان تقيا مؤمنا ، ذا فطرة طيبة كابناء (شامبانى) ، وقد بلغ من حبه لوطنه أنه لم يسمح لنفسه البتة بالارتياح فى أننى باريسى مثله ، خوفا من أن يضيع على نفسه فرصة الحديث عن باريس . وكان لدى السيد « دى كروزا » - مساعد الحاكم - بستانى من باريس كذلك ، ولكنه كان أقل طيبة ، وكان يرى أن من المساس بكرامة بلده أن يجروا أى إنسان على أن ينتهى إليها دون أن يكون له حق فى هذا الشرف ! . لذلك راح يطرئنى بالأسئلة ، وهو يبتسم فى خبث ، بلهجة الواثق من أنه لن يلبث أن يكتشف غلطة ! ولقد سألتنى مرة عن أبرز معالم (مارثسيه نيف) ، فأجبته اعتباطا وتخبطا ، كما يستطيع المرء أن يحدث . وجدير بى اليوم - وقد أقمت فى باريس عشرين عاما - أن أكون على دراية بها ، ومع ذلك ، فلو أن أحدا وجه الى سؤال كهذا السؤال ، لما كان ارتباكى فى الإجابة أقل منه يومئذ ، ولاستنتج أى امرئ - من هذا الارتباك - أننى لم أظن باريس قط ! . إلى هذا الحد يكون المرء معرضا للاعتماد على ظواهر خداعة ، ولو صادف الحقيقة !

وليس بوسعى أن أذكر تماما مدة إقامتى يومئذ فى (لوزان)، فإننى لم أحمل من هذه المدينة ذكريات حية . كل ما أدريه هو أننى حين وجدت نفسى عاجزا عن كسب عيشى فيها ،

نزلت منها إلى (نيوشاتيل) حيث قضيت الشتاء . ولقد كنت في هذه المدينة أكثر توفيقا ، إذ كان لدى تلاميذ ، كما أننى كسبت منها ما مكفى من الوفاء بدينى لصديقى الطبيب « بيروتيه » ، الذى كان من النبل بحيث أرسل الى - فى الماضى - حزمة متاعى الصغيرة ، برغم أننى كنت مدينا له بمبلغ كبير !

ولقد تعلمت الموسيقى - دون قصد منى - خلال تدريسى إياها . وكانت حياتى على قدر لا بأس به من الدعة . كانت حياة تكفى لأن يقنع بها أى رجل عاقل ، ولكن قلبى القلق كان يصبو إلى شئ آخر . . . وكنت فى أيام الأحد والأيام الأخرى التى أخلو فيها من العمل ، أرتع فى الريف والغابات المجاورة ، دون أن أكف عن التجوال ، والتأمل ، والتنهيد . وكنت إذا ما خرجت من المدينة ، لا أعود إليها قبل المساء . وفى ذات يوم ، كنت فى (بودرى) فولجت فندقا لأتناول الغداء ، وإذا بى أرى رجلا طويلا اللحية ، ذا حلة بنفسجية على النمط اليونانى ، وقلنسوة من الفرو ، وقد أوتى مظهرا ينم عن نبيل . وكان يجد عناء - فى أكثر الأحيان - فى أن يجعل القوم يفهمون ما كان يبنى ، إذ كان لا يكاد ينطق بغير لهجة ركيكة لا سبيل إلى تمييزها تقريبا ، ولكنها كانت شديدة الشبه باللغة الإيطالية ، ولا لغة غيرها . وفهمت كل ما كان يقول تقريبا ، وكنت الوحيد الذى فهم . ولم يجد الرجل بوسعة أن يوضح ما يبنى إلا بتبادل الإشارات مع صاحب الفندق ومع أبناء المنطقة ، فوجهت إليه بضع كلمات بالإيطالية ، فهمها تماما ، فنهض وعانقنى فى

ابتهاج . وسرعان ما تعارفنا ، ومنذ تلك اللحظة عهلت مترجما له . وكان غداؤه شهيا ، فى حين أن غدائى كان أقسل من المتوسط ، فدعائى إلى أن أشاركه طعامه ، فلم أبد تمنعا يذكر . وبينما كنا نشرب ونتكلم ، وثقنا من تألفنا ، فلم ينته الغداء حتى أصبحنا لا نطيق افتراقا ! . . وروى لى أنه كان قسسا يونانيا ، و « أرشيمنديريت » لبيت المقدس ، وقد أوفد لجمع اكتبابات من أوربا لتجديد كنيسة المهد المقدس . وأطلعنى على شهادات بديعة من القيصرة والإمبراطور ، كما كان لديه كثير غيرها من ملوك آخرين . وكان جد راض عما جمع حتى ذلك الحين ، ولكنه كان قد صادف فى ألمانيا صعوبات لا تخطر بالبال ، إذ أنه لم يكن يفقه كلمة واحدة من الألمانية أو اللاتينية أو الفرنسية ، فكان مضطرا إلى الاقتصار على لغته اليونانية ، وعلى اللغة التركية ، واللغة الفرنجية ، مما لم يسعفه كثيرا فى البلدان التى لم يكن ملما بالسفنها . لذلك عرض على أن أصحبه فأكون له سكرتيرا ومترجما . وإلى جانب أن حلتى البنفسجية المتواضعة - التى كنت قد ابتعتها حديثا - لم تكن تنسجم مع مركزى الجديد ، فإتنى لم أوت من أناقة المظهر سوى قسط بسيط ، مما جعله يعتقد أن الخلفرى أمر غير عسير . ولم يكن فى ذلك مخطئا ، فسرعان ما تم اتفاقنا ، إذ أننى لم أطلب شيئا ، فى حين أنه وعد بالكثير . . وبدون احتياط ، ولا ضمان ، ولا معرفة ، أسلمته قيادى . . وهكذا رحلت من الفد فى طريقى إلى بيت المقدس !

وبدأنا رحلتنا بمقاطعة (فريبور) ، فلم يخرج منها بطائل ،



وبينما كنا نشرب ونتكلم ، وثقنا من تألفنا ، فلم ينته الفداء حتى
أصبحنا لا نطيع أفتراقا ! ..

إذ أن كرامته الكنيسية لم تكن لتسمح له بأن يقوم بدور المتسول ، ولا بجمع الاكتسابات من خاصة القوم . على أننا عرضنا مهمته على مجلس الشيوخ ، فمنحه مبلغا صغيرا . ومن هناك يمينا شطر (بيرن) ، وهبطنا في فندق « اوفوكون » ، وكان في ذلك العهد نزلا طيبا ، يؤمه وسط طيب . وكانت المائدة حافلة ، ومحفوفة بالعناية . وكان قد انقضى وقت طويل اضطرتت فيه إلى النزول بالفنادق الرخيصة ، ومن ثم فقد كان لزاما على أن أهيب نفسي لتعويض ما فاتنى ، وكانت الفرصة سانحة ، فاستغللتها . ولقد كان السيد « الارشمندريت » نفسه رجلا طيب المعاشرة ، مشغوبا بالمائدة ، مرحا ، يجيد الحديث مع من كانوا يفهمونه . ولم تكن تنقصه المعرفة ، وكان يجيد عرض بلاغته اليونانية بكثير من البراعة . وحدث ذات يوم أنه أصاب أصبعه بجرح عميق ، بينما كنا تكسر بندقا عقب الغداء ، فلما انساب الدم دافقا ، عرض أصبعه على الحضور وهو يقول ضاحكا : « ألا أبدوا إعجابكم يا سادة . . إنه دم بيلا سجي ! » (١) .

ولم تكن خدماتى له قليلة النفع فى (بيرن) ، فلم أخرج منها بنتيجة سيئة كما كنت أخشى ، وإنما كنت أكثر جرأة وأبلغ حديثا مما لو كنت أعمل لنفسى ! . . على أن الأمور لم تجر

(١) نسبة الى «بيلاسجو» ، وهو عنصر عريق كان ينتشر قديما على سواحل

فى جزر شرقى البحر الابيض المتوسط وبحر ايجيه ، ويرتبط بالاعندر الاغريقى .

بالبساطة التي جرت بها في (فريبور) ، بل كان لا بد من مؤتمرات طويلة وعديدة من كبار رجال الدولة، كما أن فحص شهادات « الارشيمندريت » لم يكن بالمسألة التي تتم في يوم واحد . واخيرا ، عندما تمت الإجراءات اللازمة ، كان علينا أن نعرض الأمر على مجلس الشيوخ . فذهبت مع « الارشيمندريت » بوصفى مترجما له ، فطلب إلى أن أتكلم ، وكان هذا آخر ما توقعت ، فما خطر ببالي أن ثمة ضرورة - بعد المحادثات الطويلة مع الأعضاء فرادى - إلى مخاطبة المجلس مجتمعا، وكأنما لم يدر من قبل أى حديث ! .. فتصوروا ارتباكى ! .. تصوروا رجلا خجولا مثلى ، يطالب بأن يتكلم لا أمام ملاء من الناس فحسب ، وإنما أمام مجلس شيوخ (بيرن) بالذات .. وإن يتكلم ارتجالا ، وليست أمامه مذكرة واحدة معدة .. كان هذا ما أوشك أن يقتلنى ! .. ومع ذلك فإننى لم أجب ، وإنما عرضت في وضوح وإيجاز مهمة الارشيمندريت ، وأطريت تقوى الأبراء الذين ساهموا في الاكتساب الذي جاء لجمعه ، ولكى أثير حمية مثل هؤلاء السادة الفخام ، قلت إنه من غير المتوقع إزاء كرمهم المألوف أن يكونوا أقل من أولئك .. ثم حاولت أن أثبت لهم أن مثل هذا العمل الخيرى يهم المسيحيين جميعا ، دون ما تمييز بين مذاهبهم .. وانتهيت بأن وعدت كل من يساهم فيه ببركات من السماء !

ولن أقول إن خطابى كان مؤثرا ، بيد أنه صادف - بالتأكيد - هوى لدى المستمعين . وعند مغادرة الاجتماع ، تلقى « الارشيمندريت » تبرعا سخيا مشرفا، فضلا عن إطراءات لذكاء

سكرتيره ، نعمت بمهمة ترجمتها إليه ، وان لم أجسر على أن أنقلها بنصها ! وكانت هذه هي المرة الوحيدة في حياتي التي تكلمت فيها على الملأ وأمام صاحب سلطان ، ولعلها أيضا المرة الأولى التي تكلمت فيها بلباقة وإجادة . فأى تحول في تصرفات نفس الرجل ! .. لقد ذهبت أخيرا - منذ ثلاث سنوات - إلى (ايفردون) لأزور صديقي القديم السيد « روجان » ، فاستقبلت وفدا جاء يشكرني إذ أهديت مكتبة البلدة بعض الكتب .. والسويسريون خطباء بارعون ، ومن ثم انطلق هؤلاء السادة في الخطابة لى ، ووجدتني مضطرا للرد ، ولكنى ارتبكت بدرجة كبيرة حين شرعت في ذلك ، واضطريت أنكارى إلى درجة جعلتني أوجز وأجعل نفسى موضع السخرية ! .. وعلى الرغم من أنني خجول بطبيعتى ، إلا أنني كنت جسورا في بعض الأحيان - في شبابى - ولكنى لم أكن كذلك قط في كبرى .. فكلما ازدحت تعرفنا على المجتمع ، قلت قدرتى على أن أكيف نفسى وفقا لأساليبه في الحديث !



وإذ غادرنا (بيرن) ، ذهبنا إلى (سولير) ، إذ ارتأى الارشيمندريت أن يجتاز ألمانيا ثانية ، عائدا عن طريق المجر أو بولندا ، وهى رحلة بالغة الطول . ولكنه لم يخش طولها ، إذ كان كيسه خليقا بأن يمتلئ خلال الطريق بدلا من أن يفرغ ! .. أما أنا ، فكان سواء لدى أرحلت على جواد أو على قسدى ، فما كنت لأبتغى أفضل من الترحال بهذا الشكل ، طيلة العمر .. ولكن كان مكتوبا لى ألا أمضى في ترحالى بعيدا !

كان اول ما فعلناه عند وصولنا إلى (سولير) هو الذهاب
 نحية السيد سفير فرنسا . وكان هذا السفر — لسوء حظ
 أسقفى — هو « المركيز دى بوناك » الذى كان سفيرا لدى
 الباب العالى ، والذى قدر له أن يكون على معرفة وافية بكل
 ما يتعلق بكنيسة المهد المقدس . وقضى الارشيمندريت ربع
 ساعة فى المقابلة التى لم يسمح لى بحضورها ، لان السيد
 السفير كان يفهم لسان الفرنجة ويعادلنى — على الأقل — فى
 اتقان الحديث بالإيطالية . وعندما خرج صاحبنى اليونانى ،
 هممت بأن أتبعه ، ولكنى استوقفت ، إذ حان دورى لمقابلة
 السفير ، فقد تقدمت على أنفى باريسى ، ومن ثم تحت ولاية
 صاحب السعادة ! وسألنى السفير عن اكون ، وناشدنى ان
 أقول الحقيقة ، فوعدت بذلك ، ورجوت بأن يأذن لى بأن أخلو
 إليه، فأذن لى ، وصحبنى إلى مكتبه ، وأغلق الباب . . . وإذ ذاك
 ارتيمت على قدميه ، وبررت بوعدى . . . وما كنت خليقا بأن
 أضن بالكلام ، ولو لم أعد بشيء، إذ كانت الرغبة المستمرة فى أن
 أفضى بها فى صدرى تدفع قلبى إلى شفتى فى أية لحظة . .
 وإذا كنت قد كشفت حقيقتى دون تحفظ للموسيقى « ليتولد »
 فما كان من المحتمل أن الجأ إلى التكتم أمام المركيز دى «بوناك!»

وبدا عليه الاقتناع بقصتى القصيرة ، وبالصرحة التى
 فضفت بها عن صدرى ، فأمسك بيدي وقادنى إلى السيدة
 زوجة السفير ، فقدمنى إليها ، وأوجز لها قصتى ، ففلقتنى
 السيدة دى بوناك فى رفق ، وقالت إننى يجب ألا اترك مع ذلك
 الراهب اليونانى . ومن ثم تقرر ان أبقى فى الدار حتى يريا ما يمكن

أن يفعل من أجلى . ووددت أن أذهب. فاودع أرشيمندريتي المسكين الذى كنت أشعر بميل نحوه ، فلم يؤذن لى ، وإنما أوعد إليه من أنباءه بأننى قد احتجرت . . . وأن هو إلا ربع ساعة ، حتى كانت حزمة مقاعى الصغيرة قد وصلت . وعهد بى إلى السيد دى لامارتنير - سكرتير السفارة - فقال وهو يرينى الغرفة التى أعدت لى : « لقد شغل هذه الحجرة - فى عهد كونت دى لوك - رجل مشهور كان له نفس اسمك (١) ، وعليك وحدك أن تملأ مركزه من جميع الاعتبارات ، حتى يقال: روسو الاول ، وروسو الثانى ! » . . . وما كان لهذا التشابه - الذى لم أعلق عليه أملا إذ ذاك - أن يستهوى مطامعى ، لو قدر لى أن أطلع على المستقبل فأرى الثمن الذى كان مقدرًا على أن أدفعه من أجله يوما !

ولقد أثار قول السيد « دى لامارتنير » فضولى ، فقرأت مؤلفات ذلك الذى شغلت غرفته . وإزاء المجاملة التى وجهت الى ، واعتقادا منى بأننى أوتيت موهبة الشعر ، نظمت أغنية فى مدح السيدة دى بوناك ، كمحاولة أولى ، على أن هذه النزوة لم يطل أمدها . . . ولقد اعتدت أن أنظم الشعر جزافا - بين

(١) كان الشخص المتصود هو جان بابتيست روسو (١٦٧١ - ١٧٤١) . وكان شاعرا غنائيا فرنسيا . . . وهناك « روسو » ثالث ، هو « بير روسو » (١٧٢٥ - ١٧٨٥) وكان كاتبًا مسرحيا . وقد قيل بهذا الصدد : « ثلاثة مؤلفين يدمون باسم روسو ، ذاع صيتهم من باريس الى روما : روسو الباريسى كان عظيمًا ، وروسو الجينيى كان أحب ، وروسو التولوزى كان . . . هباء ! » .

وقت وآخر — فهو مران لا بأس به لتدريب المرء على الرشاقة فى تكوين العبارات ، ولتحسين الأسلوب النثرى ، ولكنى لم أجد فى الشعر الفرنسى قط جاذبية كافية لأن تجعلنى أتفرغ له !

ورغب السيد دى لامارتنيير فى أن يرى أسلوبى ، فسألنى أن اكتب عين القصة التى رويتها للسيد السفير ، فكتبت له رسالة طويلة — سمعت أنها الآن فى حوزة السيد دى مارتان ، الذى ظل زمنا طويلا ملحقا بالسفارة فى عهد الماركيز دى بوناك ، والذى خلف السيد دى لامارتنيير فى عهد تولى السيد دى كورتى السفارة ! — ولقد رجوت السيد دى مالىشيرب أن يسعى للحصول لى على نسخة من هذه الرسالة . . وإذا قدر لى أن أظفر بها بوساطته ، أو بوساطة سواه ، فسوف توجد فى المجموعة التى ستلحق باعترافاتى .

وأخذت الخبرة التى بدأت أحظى بها ، تخفف من جموح مشروعاتى الخيالية شيئا فشيئا . فلم أقتصر — مثلا — على عدم الوقوع فى هوى السيدة دى بوناك فحسب ، بل إننى رايت لتوى أننى لن أجد مجالا كبيرا للرقى فى دار زوجها ، إذ كان السيد « دى لامارتنيير » راسخا فى منصبه ، وكان السيد دى ماريان متربصا ليخلفه ، مما كان لا يدع لى مجالا للأمل — مهما يكن الحظ — فى أكثر من منصب مساعد السكرتير ، الذى لم يكن يستهوينى كثيرا . ومن ثم فأتنى حين استشرت فيها يطلب أن أفعل أبديت رغبة شديدة فى الذهاب إلى باريس . واستساغ السيد السفير هذا الراى ، الذى بدا خليقا بأن يخلصه منى على الأقل ! . . وقال السيد دى مرفيه ، السكرتير

المرّجم للسفارة ، إن صديقه السيد جودار — وكان ضابطا سويسريا برتبة كولونيل ، فى خدمة فرنسا — كان يبحث عن شخص يعهد إليه برعاية ابن أخيه ، الذى التحق بالخدمة وهو بعد صغير السن ، ومن ثم فقد رأى أننى خليك بأن أروق له . وبناء على هذه الفكرة ، التى قبلت فى تسرع ، تقرر سفرى . . . قطار قلبى فرحا ، إذ رأيت أمامى رحلة تنتهى بى إلى باريس! . . . ومنحونى بعض خطابات للتوصية ، ومائة فرنك للانفاق على الرحلة ، تصحبها نصائح طيبة . . . ثم رحلت !

وقضيت فى هذه الرحلة خمسة عشر يوما، أعدها بين الأيام السعيدة فى حياتى . وكنت شابا ، وموغل الصحة، وكان معى مال كاف ، وآمال وافرة ، وقد انطلقت فى الرحلة على قدمى . وكنت أسافر وحيدا ، وقد يعجب المرء — إن لم يكن قد ألم بطباعى — إذ يرانى اعتبر ذلك ميزة ، فقد كانت تصوراتى الناعمة تؤنسنى ، ولم يكن بوسع الواقع أن يتمخض عن أروع من هذه التصورات التى كان يوحى الى بها خيالى المتأجج . . . وهكذا كنت إذا عرض على امرؤ مجلسا فى عربة ، أو اقترب منى شخص فى الطريق ، أمبس خشية أن يهدم الصرح الذى كنت أبنيه فى خيالى أثناء سبرى ! . . . على أن أفكارى كانت فى هذه المرة « عسكرية » صرفة ، فقد كنت موثكا أن أكون مرافقا لرجل عسكرى ، وأن أصبح عسكريا أنا الآخر ، إذ كانت التدابير قد اتخذت لكى التحق بالمدرسة العسكرية . ورحت أتمثل نفسى فى زى ضابط ، وقد حملت ريشة بيضاء بديعة ، فأنعمتلى بهذه الفكرة الرفيعة . وكانت لدى بعض معلومات باهتة

٤ . اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى

عن هندسة التحصينات ، فقد كان خالى مهندساً ، ومن ثم فقد اعتبرت نفسى - بطريقة ما - عسكرياً بالفطرة! .. وكان قصر نظرى عقبة، ولكنها عقبة لم تزعجنى، فقد عولت على أن أعوض هذا العيب بالجلد والشجاعة . وكنت قد قرأت أن الماريشال (شومبيرج) كان قصير النظر، فلماذا لا يكون الماريشال روسو على شاكلته ؟ .. وهكذا رحت اتدفأ على حرارة هذه الأوهام حتى أننى لم أعذ أرى سوى فرق من الجند ، ومقاريس ، ولسال الطوابى (١) ، والمدفعيات ، وشخصى وسط النار والدخان ، أصدر الأوامر فى هدوء ، وأنا أمسك بمنظار الميدان فى يدي ! .. ومع ذلك، فأننى عندما كنت أجتاز المناطق الريفية الجميلة ، كنت أرى الأدغال والجداول ، فيجعلنى هذا المنظر الفئان أتهدد حسرة ، وأشعر فى غمرة ابتهاجى بالمجد أن قلبى لم يخلق لمثل هذا الضجيج، وسرعان ما كنت أتمثل نفسى وسط خرافى الحبيبة - دون أن أدرى كيف انتقلت إليها - نابذاً إلى الأبد أعمال مارس (٢) !



كم كذبت مشارف باريس الفكرة التى كانت لدى عنها ! .. كانت المناظر التى رأيتها تزين ظاهر مدينة (تورين) ، وجمال طرقاتها ، وتناسق صفوف بيوتها ، قد جعلتنى أطمع فى مزيد

(١) أداة اسطوانية الشكل ، مفتوحة الطرفين ، كانت نهلاً تراما ويستعان

بها فى بناء الحصون ، فى ذلك العهد .

(٢) آله الحرب ..

٤١ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى

من ذلك كله فى باريس ، فكننت أتمثلها مدينة لها من الجمال بقدر ما لها من الاتساع ، وقد أوتيت أبهى حسن .. لا يرى المرء فيها سوى شوارع رائعة ، وقصور من مرمر وذهب ! .. فلما دخلتها عن طريق ضاحية (سان مارسو) ، لم أر سوى شوارع صغيرة قذرة قميئة ، وبيوت بشعة سوداء ، وجو من الدنس والفقر ، ومتسولين ، وحوذيين ، وتجار للثياب القديمة ، ومنادين يعلنون عن العلاج بالركة وعن القبعات القديمة ! .. كل هذا صدمنى منذ البداية ، إلى درجة أن كل العظمة الحقيقية التى رأيتها فى باريس — بعد ذلك — لم تقو على أن تقضى على هذا الأثر الأول ، ومن ثم ظلت أكن دائما نفورا خفيا من الإقامة فى هذه العاصمة ! .. وأستطيع أن أقول إن المدة التى عشتها فيها — بعد ذلك — لم تشغل بأكملها إلا فى السعى وراء موارد تمكننى من العيش بعيدا عنها !

هكذا تكون ثمار الخيال البالغ النشاط ، الذى يتمادى إلى ما وراء مبالغات البشر ، والذى يطمع دائما فى أن يرى أكثر مما يقال له ! .. فكم امتدحت لى باريس ، حتى أننى صورتها لنفسى على غرار بابل القديمة ، التى كان من المحتل — لو قدر لى أن أزورها — أن أجد فيها الكثير الذى لا يتفق مع الصورة التى أكون قد رسمتها لها فى خيالى ! .. ولقد حدث لى الشيء نفسه عندما زرت دار « الأوبرا » ، التى سارعت إلى مشاهدتها فى اليوم الذى أعقب وصولى .. ثم وقع لى الشيء ذاته — فيها بعد — عندما زرت (فرساي) ، ثم حين شهدت البحر للمرة الأولى . ولسوف يظل الأمر ذاته يراودنى كلما رأيت

وخيل الى - من الطريقة التى استقبلنى بها كل أولئك الذين حملت إليهم رسائل التوصية - أن حظى قد اكتمل . وكان الشخص الذى تلقى أكبر قسط من التوصية، والذى استقبلنى بأقل قسط من الحفاوة ، هو السيد دى «سوريك» الذى كان قد اعتزل العمل وعاش متفلسفا فى ضاحية (بانيو) ، حيث زرته مرارا ، وحيث لم يقدم لى كوب ماء قط ! . ولقد حظيت باستقبال أوفر من مدام دى «مرفيه» - زوجة أخ المترجم - ومن ابنهما ، وكان ضابطا فى الحرس . فإن الأم وابنها لم يتلقينى فى حفاوة فحسب ، بل أنهما دعوانى إلى مأدنتهما ، فاستغللت هذه الدعوة مرارا أثناء إقامتى فى باريس . ولاح لى أن مدام دى «مرفيه» كانت حسناء يوما ما ، فقد كان شعرها ما يزال ذا سواد بديع ، وكانت تنسقه فى حلقات على جبينها ، وفقا للنمط القديم . وكانت محتفظة بما لا يخبو حين تخبو المئات الشخصية . . وأعنى بذلك : عقلا لا بأس به . وقد بدأ أنها استسافت فكرى ، وأخذت تبذل كل ما فى وسعها لمساعدتى ، ولكن أحدا لم يؤازرها . . وما لبثت أن تبينت بجلاء الاهتمام العظيم الذى تولاهما نحوى . على أن من واجبنى انصاف الفرنسيين ، فإنهم لا يغالون فى الاحتجاجات - كما يقال - بل إن ما يبدونه منها يكون صادقا على الدوام . على أن لهم فى التظاهر بالاهتمام بك أسلوبا أكثر خداعا من زخرف القول !

٤٣. اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى

اما المجاملات الضخمة الماثورة عن السويسريين ، فلا تجوز إلا على الحمقى! ان طباع الفرنسيين ليست بالغة الإغراء والفتنة إلا لأنها بالغة البساطة . . وقد يلوح أنهم لا يقولون لك كل ما يودون أن يفعلوه ، لكى يستطيعوا أن يقدموا لك مفاجآت مستحبة . بل إننى لأذهب إلى القول بأنهم ليسوا كاذبين فى مظاهريهم ، فهم بطبيعتهم بشوشون ، عطوفون ، محبوبون للخير . . بل إنهم — مهما يقال — أكثر صدقا فى عواطفهم من أبناء أمة أخرى . . بيد أنهم نزقون ، سريعو الملل والتقلب . إنهم يشعرون فى الواقع بالعواطف التى يبدونها لك ، ولكن هذه العواطف سرعان ما تذهب كما جاءت . . وهم حين يحدثونك ينصرفون إليك بجماع أنفسهم ، ولكنهم ينسسونك بمجرد أن تغيب عن أبصارهم . . فلا دوام لشيء فى قلوبهم ، بل ان كل شيء لديهم ابن لحظته ! .

ومن ثم فقد حظيت بكثير من المجاملات وقليل من النفع . وظهر أن ذلك الكولونيل «جودار» — الذى أوفدت لابن أخيه — كان شيخا وغدا شحيحا ، ما أن رأى ما كنت فيه من محنة ، حتى طمع فى أن يظهر بخدماتى دون مقابل ، برغم أنه كان يتقلب فى الذهب ! . . فلقد أرادنى على أن أكون لابن أخيه بمثابة وصيف بدون أجر ، أكثر منى رائدا ومربيا حقيقيا ! ولما كنت مرافقا إياه باستمرار ، ومعنى من الخدمة لذلك ، فقد كان لزاما أن أعيش على مرتبى كطالب عسكرى — أو بالأحرى ، كجندى — وكاد التمسس لا يوافق على منحى حلة عسكرية ، إذ كان يريد أن أقتنع بحلة الخدمة التى تقدمها الكتيبة للجندى العادى.

ولقد حالت مدام دى مرفيه نفسها بينى وبين قبول هذه المقترحات، إذ استنكرتها . . . وكذلك أبدى ابنها عين الشعور . ودار البحث عن عمل آخر لى ، فلم يسفر عن شيء . وبدأت فى تلك الأثناء أحس بحاجة ماسة إلى المال، فما كانت الفرנקات المائة التى أنفقت منها على رحلتى لتكفينى فترة أطول . على أننى - لحسن الحظ - تلقيت من لدن السيد السفر منحة صغيرة أخرى . كانت عظيمة النفع لى . واعتقد أنه ما كان ليتخلى عنى لو أننى كنت قد أوتيت مزيداً من الصبر ، ولكن التقاعس ، والانتظار، والاسترحام أمور مستحيلة بالنسبة لى . . . فأنصرفت عن هذه الأسرة ولم أعد أتردد عليها !

ولم أكن قد نسيت « ماما » المسكينة ، ولكن كبف كان لى أن أعرثر عليها ؟ أين كان لى أن أبحث عنها ؟ . . . وكانت « مدام دى مرفيه » - التى عرفت قصتى - قد ساعدتنى فى هذا البحث فترة طويلة ، دون جدوى . . . وأخيراً ، علمت أن « مدام دى فاران » قد غادرت باريس منذ شهرين ، ولكن أحداً لم يدر هل ذهبت إلى (سافوى) أم إلى (تورين) ، بل أن بعض الناس قالوا إنها عادت إلى سويسرا . وما كنت بحاجة إلى أن أضيع وقتاً فى عقد العزم على الانطلاق فى أثرها ، وأنا واثق من أن البحث عنها - أيا كان مكانها - سيكون فى الأقاليم أيسر من كل ماقدّر لى أن أقوم به فى باريس !

وقبل أن أرحل ، مارست براعتى الشعرية الجديدة فى رسالة إلى الكولونيل جودار، نلت منه فيها بأقصى ما استطعت! ولقد عرضت هذا الهديان على مدام دى « مرفيه » ، فبدلاً

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى ٤٥

من أن تلومنى — كما كان ينبغى أن تفعل — ضحككت كثيرا من سخريائى ، وكذلك فعل ابنها الذى لم يكن يحب السبد جودار ، على ما أعتقد — وخلق بى أن أعترف بأنه لم يكن أهلا للحب! — وهكذا الفيتنى ميالا إلى إرسال القصيدة إليه ، بعد أن وجدت تشجيعا على ذلك ، فحزمت الصفحات ، وكتبت عليها عنوانه . وإذ لم يكن فى باريس خدمة داخلية للبريد — يومئذ — فقد وضعت الخطاب فى جيبى ، وأرسلته من (أوكر) ! عندما مررت بها . وما زلت أضحك أحيانا عندما أفكر فى الامتناعات التى لا بد أن يكون الكولونيل قد أبداها وهو يقرأ هذه القصيدة التى وصفته أدق وصف ، والتى بدأت هكذا :

» أظننت أيها الكهل الآثم ، أن نزوة حمقاء

توحى الى بالشوق إلى تربية ابن أخيك ؟ « !

ولقد كانت هذه القصيدة الصغيرة ركيكة فى الواقع ، بيد أنها لم تكن تفتقر إلى الطلاوة ، كما كانت تنم عن استعداد طيب لفن « الهجاء » . . على أنها كانت الهجو الوحيد الذى انساب من قلبنى ، فإن قلبى لم يحو من الخبث ما يمكننى من استغلال موهبة كهذه ، وإن كنت أرى أن المرء يستطيع أن يحكم — من بعض المجادلات القلمية التى اكتبها من وقت إلى آخر ، دفاعا عن نفسى — أننى لو كنت قد أوتيت روح الصراع ، لعز على من يهاجموننى أن يضحكوا عقب النزال !

إن أكثر ما أسف عليه من تفصيلات حياتى التى قدر لها أن تضيع من ذاكرتى ، هو أننى لم اكتب يوميات عن أسفارى .

فما قدر لى قط أن أكون أكثر تفكيرا ، وأكثر استمراء لوجودى وحياتى ، وأكثر قربا من حقيقتى — إذا جاز لى أن أقول هذا — بما كنت فى تلك الرحلات التى كنت أقوم بها سيرا على قدمى .

نفى المشى شىء ينعش نشاطى ويسمو بأفكارى . وأنا لا أكاد أفكر عندما أكون ساكنا ، لا بد لجسمى من أن يكون فى حركة حتى يتحرك عقلى . ان رؤية الريف ، وتتابع المناظر الممتعة ، والخلاء ، والشهية المفتحة والصحة الطيبة للذين اكتسبها بالمشى ، والحياة الحرة فى الفنادق الريفية . . وغياب كل ما يجعلنى احس بأننى عالمة على غيرى ، وكل ما يذكرنى بمركزى ، وكل ما يفكرنى بحالى . . كل هذا يطلق روحى من عقاليها ، ويمنحنى جراحة بالفة فى التفكير ، ويلقى بى — كما يتبغى أن يقال — فى بحار الكائنات الشاسعة لكى أجمعها وافرزها وأنسحقها كما يحلو لى ، دون ما حرج أو خوف ! . .

كنت أتصرف فى الطبيعة بأسرها ، وكأئننى المسيطر عليها . . فكان قلبى فى تنقله من شىء إلى شىء يتحد مع تلك الأشياء التى تروق له ويميزها عن سواها ، ويحيط نفسه برؤى غائبة ، وينتشئ بأحاسيس عذبة . وإذا كنت — فى سبيل تسجيل هذه الاحاسيس وإثباتها — استعذب وصفها فى نفسى ، فاية خطوط قوية ، واية ألوان بهيجة ، واية تعبيرات متألقة أضفيها عليها ! . . وقد يقال إن هذه كلها قد وجدت فى مؤلفاتى وإن كانت قد كتبت فى سنى أمولى . . آه ! ليت أحدا قد رأى ما كتبت فى صدر شبابى ، وما الفت فى رحلاتى ، وما انشأت من أفكار لم اكتبها اطلاقا ! . . وقد تقولون : لماذا لم تكتبها ؟ . . وأجيب أنا : ولماذا اكتبها ؟ . . لماذا أحرم نفسى

٤٧ اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثاني

السحر الواقعي للذة ، لكي أقول للغير إنني استمتعت بهذه اللذة ؟ .. وفيهم يعنيني القراء ، والجهور ، والأرض بأسرها ، ما دمت أحلق في السماء ؟ .. ثم ، أفتراي كنت أحمل - في رحلاتي - ورقا وأقلاما ؟ .. لو أنني كنت قد فكرت في كل هذا ، لما وافاني شيء مما كان جديرا بالتسجيل .. انني لم أكن أتنبأ بموعد الأفكار ، وإنما كانت تواتيني عندما تشاء هي ، وليس حين أشاء أنا ! .. وكانت تمتنع عن موافاتي ، أو تأتي زرافات فتطغى على بقوتها وعددها .. وما كانت عشرة مجلدات في اليوم بكافية لتدوينها ! فمن أين لي الوقت الذي أكتبها فيه ؟ .. كنت إذا بلغت بلدا ، لا أفكر إلا في غداء شهى . وإذا بارحت بلدا ، لا أفكر إلا في سير سريع ، فقد كنت أحس بأن ثمة نعيما جديدا على الأبواب ، فلا أفكر إلا في السعى إليه !

وما شعرت بكل هذا يوما قدر ما شعرت به في رحلة العودة ، التي أحدث عنها .. ففى طريقى إلى باريس ، كانت خواطرى محدودة بما كنت ذاهبا لعمله هناك ، إذ كنت قد انصرفت إلى الحياة العملية التي ظننت أنها كانت تنبسط أمامي ، والتي كنت خليقا بأن أخوضها بكثير من الفخر . ولكن هذه الحياة كانت غير تلك التي دعائى قلبى إليها ، وقد آذت مخلوقات الواقع كائنات الخيال .. كان الكولونيل جودار وابن أخيه لا يتسقان مع بطل مثلى . أما الآن ، فقد تخلصت من هذه العقبات ، بفضل السماء ، وأصبح في مقدورى أن أغوص وفق هواي في عالم الأوهام ، إذ لم يبق أمامي سوى هذا العالم ! .. ولقد همت فيه تماها ، حتى أنني ضللت طريقى عدة مرات

فعلا ، ولكنى كنت خليقا بأن اغتم لو أننى سلكت طريقا أكثر اتجاها إلى مقصدى . ذلك لأننى توهمت أنى لن البث أن أجد نفسى على الأرض من جسد ، لدى وصولى إلى (ليون) ، فوددت ألا أبلغها أبدا !

وفى يوم من الأيام ، انحرفت عن طريقى عمدا ، لاناهل عن كذب مكانا تراءى لى جديرا بالإعجاب . وبلغ من ابتهاجى به انى أكثر من الدوران حوله ، حتى ضللت تماما فى النهاية! . . وبعد عدة ساعات من السير على غير هدى ، وقد انهكتى التعب وبرح الجوع والعطش ، دخلت لدى فلاح لم تكن داره جميلة المظهر ، ولكنها كانت الوحيدة التى رأيتها فبما حولى . وكنت أخال أن الأمر كما فى جنيف أو فى سويسرا عموما ، حيث يخف جميع السكان الميسورى الحال إلى إظهار كرمهم . وسألت هذا الفلاح أن يمنحنى ما أتناوله غداء ، عارضا عليه أن أدفن الثمن . فقدم لى لبنا خثرا وقطعة من خبز الشعير الخشن ، قائلا إن ذلك كان كل ما لديه . فشربت اللبن جذلا ، وأكلت الخبز ، بقشه و « رده » ! بيد أن هذا لم يكن قوتا كافيا لرد النشاط إلى رجل أنهكه التعب . . وأدرك الفلاح الذى تفرس فى عن كذب — صدق قصتى ، بما تجلى له من شهيتى ، فصارحنى بعد ذلك فورا بأنه استطاع أن يتبين أننى كنت شابا طيبا وأميناً (١) ، وأننى لم آت كى

(١) من الجلى أن ملامحى — فى ذلك العهد — لم تكن قد شابهت بحد

اللامح التى رسمت فى صورة بعد ذلك



وفي يوم من الأيام ، انحرقت عن طريقى عمدا ، لأنامل عن كُتب مكاننا
تراءى لى جديرا بالاعجاب .

ابتز منه مالا .. ثم فتح باب مخزن صغير - بالضرب من المطبخ - وهبط منه ، وعاد يعد دقيقة برغيف بديع من خبز القمح المحمص ، وقطعة شهية من لحم الخنزير ، وان توخى التقتر في حجمها ، وزجاجة نبيذ أنعش مرآها فؤادى أكثر من كل ما عداها ! .. وأضاف إلى ذلك قطعة سميكة من العجة ، فحظيت بفداء لم يحظ بمثله قط عابر سبيل ! .. وعندما حان وقت الدفع ، عاود الرجل قلقه وخوفه ، فأبى ان يأخذ شيئاً من نقودى ، ورفضها في انزعاج غير عادى . والطريف فى الأمر اننى لم أستطع ان أتصور ما كان يخفيه . وأخيراً ، أطلق هذه الكلمات الرهيبة وهو يرتجف : « محصلو العوائد » و « جرذان القبو » (١) ! .. وأتهمنى أنه كان يخبئ نبيذه بسبب العوائد ، وكان يخفى خبزه بسبب الضرائب (العشور) ، وأنه يغدو رجلاً ضائعاً لو ارتاب هؤلاء فى أنه لم يكن يتضور جوعاً ! .. ولقد ترك كل ما قاله الرجل عن هذا الموضوع - الذى لم تكن لدى أئفه فكرة عنه - أثراً لن يمحي ، كان بمثابة « بذرة » الكراهية التى لا تخبو ، والتى راحت تذكو فى قلبى - منذ ذلك الحين - ضد المظالم التى كانت تحيق بالشعب التعس ، وضد الطغاة . كان هذا الرجل لا يجرؤ - برغم يسر حاله - على أن يأكل الخبز الذى كسبه بعرق جبينه ، ولم يكن يملك أن يتفادى خرابه إلا بأن يبدي نفس الشقاء الذى كان يسيطر على من حوله ! .. وغادرت داره وأنا موزع

(١) « جرذان القبو » لقب كان يطلق فى ذلك العهد على مندوبى الحكومة

الذين يتفقدون موارد المرء ويتقدرون ما ينبغي عليه أن يدفع من مكوس وخراج .

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى ٥١

بين السخط والتأثر ، أرثى لحظ تلك البلدان الجبيلة التى لم تسبغ الطبيعة هباتها عليها إلا لتجعلها فريسة لحصلى الضرائب المتوحشين !

هذه هى الذكرى الواضحة الوحيدة التى تبقّت لى من كل ما حدث خلال تلك الرحلة . ولست أذكر إلى جوارها سوى أننى حين اقتربت من (ليون) ، شعرت بميل إلى أن أطيل طريقي كى أسعى إلى مشاهدة ضفاف (اللينيون) ، فقد كان بين القصص التى قرأتها مع أبى ، قصة لم أنسها ، بل كثيرا ما عادت إلى ذاكرتى . . . تلك هى « استريه » (١) . . . فسألت عن الطريق إلى (فوريز) . وبينما كنت أتجاذب أطراف الحديث مع صاحبة أحد الفنادق ، علمت أن تلك المنطقة كانت ذات موارد طيبة للعمال ، وأن فيها كثيرا من المسابك ، وأن القوم يجيدون صناعة الحديد . فهذا هذا القول من جموح خيالي فى الحال : إذ أدركت أن من غير الملائم أن أسعى للبحث عن أمثال « ديانا » و « سيلفاندر » (٢) بين قوم من الحدادين ! . . ولا بد أن المرأة الطيبة - التى شجعتنى على هذا النحو - خلّفتنى صانع اقنال مرتزق !

ولم يكن ذهابى إلى (ليون) دون ما غرض على الإطلاق ، فما أن وصلت إليها حتى سعيت إلى جهة (شاسوت) لزيارة الأنسة « دى شاتيليه » ، صديقة مدام « دى فاران » التى

(١) قصة من غرام الرعاية للروائى « أونوريه دورفيه » (١٦٢٥-١٥٦٨) .

(٢) عاشقان من الآلهة يردد لكرهما فى قصة « استريه » .

كانت قد أعطتني رسالة لها عندما ذهبت مع السيد « لوميتير » . . ومن ثم فقد كان ثمة تعارف بيننا . وأنبأتني الأنسة « دى شاتيليه » بأن صديقتها « مدام دى فاران » كانت قد مرت — فعلا — بليون ، ولكنها تجهل ما إذا كانت قد واصلت رحلتها حتى (بيمونت) . . بل أنها عند رحيلها لم تكن مستقرة الرأي على ما إذا كانت ستعرج على (سافوا) أم لا . . وأضافت الأنسة أنها على استعداد لأن تكتب في طلب الأنباء ، إذا شئت ، وأن خير ما ينبغي أن أفعله هو أن أنتظر في (ليون) . وتقبلت الاقتراح ، ولكنى لم أجرؤ على أن أقول للأنسة دى شاتيليه إننى كنت ملهوماً على الجواب المرتقب ، وإن كيسى الصغير الناضب لم يكن يتيح لى الانتظار طويلاً ! ولم يكن ما صدنى عن المصارحة أنها أسأت استقبالى ، فهى — على النقيض — قد أبدت لى كثيراً من المجاملات ، وعاملتنى فى مساواة جردتنى من الجراة على أن أخفى عنها حالى ، وأن أهبط من مكانة الزميل المقبول ، إلى مكانة المستجدى التعس !

ومع أننى ألزم تسلسل الحوادث التى أوردتها فى هذا الكتاب ، فانتهى أعود بالذاكرة إلى رحلة أخرى إلى (ليون) قمت بها فى عین تلك الفترة ، وإن لم يكن بوسعى أن أحدد زمانها بالضبط ، وقد وجدت نفسى خلالها فى ضائقة شديدة . وثمة حادث صغير — من العسير أن أرويه — لا يتيح لى قط أن أنساها : فقد كنت ذات مساء أجلس فى (بيلكور) ، بعد عشاء جد خفيف ، أفكر فى وسيلة أنتزع بها نفسى من ضيقى ، وإذا برجل له مظهر أولئك المشغولين بالحرير، الذين يدعون فى (ليون) باسم « القماشين » .

ووجه إلى الخطاب ، فرددت عليه . ولم نكد نسترسل في الحديث نحو ربع ساعة ، حتى عرض على — بنفس الهدوء الذى كان يلزمه ، وبدون أى تغير في لهجته — أن نلهمو معا في الريف . وانتظرت أن يبين نوع اللهو ، ولكنه شرع — دون أن ينبس بكلمة أخرى — يصور لى مثلا لهذا اللهو (١) . وكنا متلاصقين تقريبا ، ولم تشدد ظلمة الليل بعد بدرجة تحول دون رؤية العمل الذى تهيأ له . ولم يكن له مطمع في شخصى ، فما من شيء نم — على الأقل — عن هذا القصد ، كما أن المكان لم يكن ملائما لذلك . . فهو لم يكن يينفى — كما قال لى — سوى أن يلهو ، واللهو انا الآخر ، كل منا على حدة . وقد بدا له هذا أمرا بسيطا ، حتى أنه لم يخطر بباله اننى قد لا أنظر إلى الأمر نظرتة ! . . ولقد جزعت لهذه القحة ، حتى اننى نهضت مسرعا — دون أن ارد عليه — وهريت بأقصى ما اسعفتنى ساقاى ، وأنا اتوهم أن ذلك الشقى كان في أثرى ! وكنت من الاضطراب بحيث اننى بدلا من أن أقصد إلى مأوى عن طريق (سان دومينيك) ، انطلقت أمدو بجوار أرضفة الميناء ، فلم أقف حتى كنت قد عبرت الجسر الخشبي ، وأنا أرتجف وكأننى عائد لتوى بعد ارتكاب جريمة ! . . ولقد كنت فريسة لتلك الرذيلة من قبل ، ولكن هذا الحادث أبرأنى منها زمنا طويلا !

وقد صادفت — في أثناء الرحلة الثانية — مغامرة من نفس النوع تقريبا ، ولكنها عرضتني لخطر عظيم . وإليك قصتها :

(١) يبدو أن هذه الرذيلة هي الاستبناء ، أو (العادة السرية) .

كنت قد أحسست بأن مواردى أوشكت أن تنضب ، فأخذت
اقتصد فى انفاق المبلغ الضئيل المتبقى ، بحيث أصبحت لا أتناول
وجباتى فى فندق إلا لما . . ثم لم أعد أتناول منها شيئاً هناك
على الإطلاق ، إذ كان بوسعى أن أحظى فى الحانة ، لقاء خمسة
أو ستة « سو » ، بشبع يفوق ما كنت أحظى به فى الفندق لقاء
ستة وعشرين ! . . وإذ لم أعد أتناول طعامى فى الفندق ، لم
أدر كيف كان لى أن أظل أبيت هناك ، إذ أتنى خجلت من أن
أشغل حجرة دون أن أتيح لصاحب الفندق مجالاً كافياً للربح .
وكان الفصل بديع الجو ، لكن الحر اشتد فى إحدى الأمسيات ،
فقررت أن أقضى الليل فى الميدان العام . وما أن استلقيت على
مقعد عريض هناك ، حتى مر راهب ، فرأى نائماً على هذا
النحو ، وإذ ذاك اقترب فسألنى عما إذا لم يكن لى مأوى .
وأفضيت إليه بحالى ، فبدأ عليه التأثر ، وجلس إلى جوارى ،
وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث . وكان حديثه مناسباً ، إذ
كان كل ما قاله يوحى إلى بخير فكرة عن الناس . ولما رآنى
أنست إليه ، قال لى إنه لم يكن يملك مسكناً فخماً واسعاً ، بل
كان مسكنه يتألف من حجرة واحدة ، ولكنه ما كان — يقينا —
ليدعى أنام فى الميدان العام . ولما كان الوقت متأخراً ، ولا سبيل
إلى البحث عن مأوى لى ، فقد عرض على نصف سريريه فى تلك
الليلة . وقبلت العرض ، وقد خالجنى الأمل فى أن أكون قد
عثرت على صديق قد يستطيع أن يكون ذا نفع لى . وذهبنا إلى
مسكنه ، فأشعل ضوءاً تراعت حجرتة لى على هديه مناسبة ،
برغم صغرها . وأخذ مضيفى يكرمنى فى أدب جم ، ثم أخرج من

وعاء زجاجى بعض الكريز الذى كان منقوعا فى النبيذ . . فاكل كل منا اثنتين ، ثم اوفينا إلى السرير .

وكانت لهذا الرجل نفس ميول صاحبي اليهودى الذى كان فى دار الضيافة بالدير^(١) ، ولكنه لم ييدها بمثل وحشية ذاك ، إما لأنه أدرك أن بوسعى أن أصل بصوتى إلى الاسماع ، فخشى أن يضطررنى إلى الدفاع عن نفسى . . وإما لأنه كان فى الواقع ضعيف التثبث من خططه ، فلم يجرؤ على أن يقترح بصراحة تحقيقها ، وإنما حاول استثارة انفعالاتى دون أن يستثير شكوكى ! ولما كنت قد تعلمت من التجربة الأولى ، فأننى أدركت سراحا مقصده ، فارتجفت . . ولم أكن أعرف فى أى منزل ولا بين أى يدين كنت ، فخشيت أن أدمع حياتى ثمنا لأية ضجة أحدثها ! . . فتظاهرت بتجاهل ما كان يبغيه منى ، ولكنى أبديت استياء شديدا من ملاطفاته ، وإذ عقدت العزم على ألا أتقبل أى تماد منه ، فقد تصرفت بحيث اضطررته إلى أن يكبح نفسه . ثم تحدثت إليه بكل ما أوتيت من لطف وحزم . . وبدون إيداء أى ارتياب فى شيء ، اعتذرت له بتجربتى السابقة عن القلق الذى أبديته نحوه ، ورحت أبالغ فى رواية تلك التجربة بعبارات مفعمة بالاستبشاع والاشمئزاز ، بحيث أثرت اشمئزاه — على ما أعتقد — ومن ثم عدل عن غايته القذرة تماما . . فقضينا ما تبقى من الليل فى هدوء . بل أنه ذكر لى كثيرا من الأمور الطيبة الرقيقة ، فما كان — بالتأكيد — خلوا من الميزات ، برغم أنه كان وفدا كبيرا !

(١) زودت وائعة اليهودى بصفحة ١١٠ من الجزء الاول .

وفى الصباح، لم يشأ السيد الراهب أن يبدو مستاء، فتحدث عن تناول الافطار ، وسأل إحدى ابنتى صاحبة الدار — وكانت جميلة — أن تحضر لنا فطورا ، فقالت له أن لا وقت لديها لذلك . ووجه الرجاء إلى أختها ، فلم تتفضل عليه برد ! ... وظللنا ننتظر ، ولا أثر لفطور ! .. وأخيرا انتقلنا إلى حجرة الانستين ، فإذا بهما تستقبلان الراهب بنذر ضئيل من التلطف . ولم يكن لى أن أطمع فى استقبال أفضل : فإن كبرى الفتاتين داست — وهى تستدير — طرف قدمى بكعب حذاءها المديب . وكانت فى قدمى بثرة (كاللوى) شديدة الالام — اضطررتنى من قبل إلى أن أقطع طرف حذاءى — أما الفتاة الأخرى فقد جذبت من خلفى فجأة مقعدا كنت أهم بالجلوس عليه .. بينما كانت أهمها تلقى من النافذة بعض الماء الذى أغرق وجهى ! .. وعلاوة على ذلك كن، أينما جلست ، يقصيننى للبحث شئ ما ! .. أبدا لم ألق فى حياتى مثل هذه « الحفاوة » ! .. وكنت أرى فى نظراتهما المهينة الساخرة سخطا مكتوما ، كنت من القباء بحيث لم أفقهه . وفى ذهولى ودهشتى ، أوشكت أن أخال أن الشيطان قد استولى عليهن جميعا ، فبدأت أشعر بجزع شديد . وفى تلك الاثناء ، أدرك الراهب — الذى كان يتظاهر بأنه لم يكن يرى أو يسمع — أن لا أمل فى فطور ، فقرر مبارحة الدار .. وأسرعت خلفه وأنا مغتبط بالافلات من الشيطانات الثلاث !

وفى اثناء سيرنا ، عرض على أن نذهب فننظر فى مقهى . وعلى الرغم من أننى كنت شديد الجوع ، إلا اننى لم أقبل هذه الدعوة التى لم يصر عليها بعد ذلك ، ومن ثم افترقنا بعد أن

اجتزنا ثلاثة شوارع أو أربعة . أما أنا فقد كنت مبتجها إذ غاب عنى منظر كل ما كان يمت إلى تلك الدار اللعينة . . وأما هو فكان مرتاحا — فيما أعتقد — إذ ابتعد بى عنها حتى لا يسئل على أن أعرفها . . وإذ لم تكن قد عرضت لى من قبل أمثال هاتين المغامرتين ، سواء فى باريس أو سواها ، فانهما لم تخلفا فى نفسى أثرا طيبا عن أهل (ليون) ، بل ظلت دائما أعتبر هذه المدينة مثالا للمدينة الأوربية التى يسودها افطع فساد !



ولا تساعد الظروف التى انحدرت إليها فى تلك المدينة ، على الاحتفاظ عنها بذكريات طيبة . ولو كنت قد خلقت على غرار سواى : لو أوتيت مثلا موهبة الاقتراض ، أو أن أكون مدينا لفندقى ، لسهل على أن أنتزع نفسى من الحرج ، ولكن مقدرتى على هذا الأمر كانت تعادل نفورى منه . ولكى تتصوروا إلى أى مدى بلغ عجزى ونفورى ، يكفى أن تعرفوا أننى بعد أن قضيت حياتى كلها — تقريبا — فى الفاقة ، وكنت أوشتك فى كثير من الأحيان على ألا أجد القوت ، لم أتلق يوما من دائن مطالبة بنقود إلا أجبته فى اللحظة عينها . وما عرفت الطريق إلى القروض قط ، بل كنت دائما أؤثر العناء على الدينون المالية !

ولقد كان من العذاب حقا أن أهبط إلى درك قضاء الليل فى الشارع ، الأمر الذى حدث لى مرارا فى (ليون) ، فلقد آثرت أن استغل الدراهم القليلة التى بقيت لى فى دفع ثمن خبزى ، بدلا من دفع أجر مأوى . . فقد كان خطر النوم فى العراء أقل من خطر الموت جوعا ! . . والعجيب فى الأمر أننى لم أكن — فى

٥٨ اعترافات جان چال روسو - الجزء الثاني

تلك الظروف القاسية — قلقا ولا حزينا ! لم يكن لدى أدنى قلق بصدد المستقبل ، بل رحت أنتظر — مطمئنا — البرد الذي كان لا بد أن تلتقاه الأنسة « دى شاتيليه » . . وكنت أنام فى العراء ، مستلقيا على الأرض ، أو على مقعد عريض ، مستغرقا فى النعاس وكأني فى سرير من الورود! . . وأذكر — بوجه خاص — أنني أنفقت ليلة ممتعة خارج المدينة ، على أرض طريق ممتدة إلى جانب نهر (الرون) أو (الساؤن) — فليست أذكر أى النهرين كان ! — وكانت تحف بالجانب الآخر للطريق حدائق أقيمت على ارتفاع فوق مستوى الأرض . وكان الحرقائظا فى نهار ذلك اليوم ، ولكن الليل كان بديعا ، وقد روى الندى الأعشاب الظامئة . . ولم تكن ثمة ريح ، إذ كانت الليلة ساكنة ، والنسيم رقيقا ، خلوا من الرطوبة . . وقد خلفت الشمس وراءها — بعد الغروب — أبخرة حمراء فى السماء ، أحال انعكاسها الماء إلى لون الورد! . . وكانت أشجار الحدائق العالية عامرة بالبلابل التى راحت تتجاوب بالشدو . وأخذت أتمشى فى نشوة ، مسلما حواسى ومؤادى لهذه المتعة الضافية ، فلم تداخلنى سوى حسرة — تمثلت فى زفرة — لأننى كنت مضطرا إلى استمراء هذه المتعة وحدى . . وواصلت السير إلى ساعة متأخرة من الليل ، وأنا مستغرق فى تأملاتى الناعمة ، دون أن أفطن إلى أن التعب قد أدركنى . . ولكنى انتهيت إلى ذلك أخيرا ، فالتقيت بنفسى — فى اغتباط — على قاعدة « كوة » أو باب زائف نحت فى جدار سياج الحدائق ، وقد تعانقت الأفنان مؤلفة شبه « سقف » فوق سريرى . . كما جثم بلبل فوق رأسى مباشرة ، وراح يغرد لى . . حتى نمت .

وكان نعاسى لطيفا ، كما كان استيقاظى الطف . . غقد كان الصباح رائعا ، ووقعت عيناى - حين فتحتها - على الماء والخضرة ، وريف بديع ! . . ونهضت من مرقدى ، فتمطيت ، وإذ شعرت بالجوع انطلقت طروبا صوب المدينة ، وقد عقدت العزم على أن أنفق على فطورى القطعتين الفضيقتين اللتين بقيتا من نقودى ! . . وكم كنت مبتهجا ، حتى أننى أخذت اردد إحدى أغانى « باتيستان » التى كنت أحفظها عن ظهر قلب ، وكان عنوانها : « حمام ثوميرى » . . ألا فلتبارك السماء « باتيستان » الطيب وأغنيته ، فقد أتاحا لى فطورا أفضل مما كنت أنتوى ، وغداء أكثر امتاعا - وهما وجبتان لم تكونا فى الحساب قط ! - فبينما كنت سائرا أغنى - على خير حال - سمعت شخصا خلفى ، فالتفت ، وإذا بأحد « الأنطونيين » (١) يتبعنى ، وقد لاح أنه كان ينصت إلى غنائى فى طرب ، وبادانى بالحديث ، فحيانى ، وسألنى عما إذا كنت على المام بالموسيقى ، فأجبت : « بعض الشيء » ، بلهجة توحى إليه بأننى كنت أعرف الكثير . . وتابع سؤالى ، فرويت له شطرا من قصة حياتى ، وإذا ذاك سألنى عما إذا لم يكن قد سبق لى أن نسخت « نوات » موسيقية ، فقلت له : « كثيرا » - وكان هذا صدقا ، إذ كان معظم ما تعلمته من الموسيقى عن طريق النسخ - فقال : « حسنا ! تعال معى ، ففى وسعى أن أشغلك بضعة أيام ، لن

(١) « الأنطونيون » أتباع مذهب علمانى فى الرهبنة . وكانوا يفخرون

بأنهم حملة « صليب مالطة » ، وهو وسام منحوا اياه قديما حين أبدوا بسالة

فى العرب .

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثانى

٦٠

يعوزك خلالها شيء .. على شريطة ألا تغادر الحجرة قط !
 .. ووافقت عن طيب خاطر ، فتبعته !

وكان هذا الانطواني يدعى السيد «روليشون» ، وكان يحب الموسيقى ويحذقها ويغنى فى الحفلات الصغيرة التى كان يقيمها مع أصدقائه . ولم يكن فى هذا سوى كل ما هو برئ وشريف ، ولكن هوايته كانت تنحدر — كما اتضح لى — إلى تهوس كان مضطرا إلى التستر عليه بعض الشيء ! .. وقادنى إلى حجرة صغيرة نزلت بها ، فوجدت فيها كثيرا من القطع الموسيقية التى نقلها هو ، كما أعطانى سواها لكى أنقلها ، وكانت من بينها الأغنية التى كنت أرددها ، والتى كان مزمعا أن يغنيها بعد أيام .. وقضيت ثلاثة أيام أو أربعة وأنا عاكف على النسخ طيلة الوقت ، باستثناء وقت الطعام — فما كنت فى أى يوم من أيام حياتى أكثر شهية ولا أفضل غذاء مما كنت خلال تلك الأيام ! — وكان الرجل يحمل الطعام إلى بنفسه من المطبخ ، ولا بد أن طعام القوم كان طيبا شهيا ، إذا صح أن ما كان يقدم لى كان من طعامهم العادى ! .. ولقد كنت طيلة عمرى لا أجيد فى الأكل متعة ، وجدير بى أن أعترف كذلك بأن هذه الوجبات جاءت فى الوقت المناسب تماما ، إذ أننى كنت جافا كالخشب . ورحت أعمل بنفس الإقبال الذى كنت أكل به ، وهو إقبال لم يكن بالقليل ! .. على أننى ، فى الواقع ، لم أكن دقيقا فى عملى بقدر ما كنت سريعا . وقد حدث بعد ذلك ببضعة أيام أن قابلنى السيد روليشون فى الطريق ، فأنبأنى بأن منسوخاتى جعلت

العزف الموسيقى مستحيلا ، لأنها وجدت مليئة بالشطط والتكرار والتحريف . ومن الواجب أن أعترف بأننى اخترت المهنة الوحيدة التى كنت أقل الناس استعدادا لها ، لا لأن علامتى الموسيقية لم تكن جميلة أو لأننى لم أكن دقيقا فى النقل . وإنما لأن الملل من عمل جد طويل ، كان يشئت بالى إلى درجة أننى كنت أقضى فى المحو وقتا أطول مما كنت أقضى فى الكتابة ، وإلى درجة أن منسوخاتى لم تكن صالحة للتنفيذ — بالعزف — ما لم أبدأ عناية فائقة بمراجعتها . . وهكذا أسأت انجاز عملى ، فى الوقت الذى كنت أسعى فيه لادائه على خير وجه . . وبدلا من أن أسرع ، إذا بى أتخط ! على أن هذا لم يمنع السيد روليشون من أن يحسن معاملتى إلى النهاية ، ومن أن يمنحنى كذلك — عند انصرافى — دينارا لم أكن استحققه البتة ، وإن كان قد أنقذنى من ضائقتى . . وإن هى إلا أيام قلائل ، حتى تلقيت نبأ من « ماما » — التى كانت فى (شامبيرى) — مصحوبا بنقود ، كى ألحق بها ، الأمر الذى أسرعت إلى تحقيقه مسرورا . ومنذ ذلك الحين حتى اليوم ، كثيرا ما أوشكت مواردى المالية على النفاد ، ولكنها لم تذهب فى نضوبها قط إلى الدرجة التى اضطررت معها إلى الصوم . وإبنى لأذكر تلك الفترة من حياتى بقلب شديد الشعور بالعناية الإلهية ، فلقد كانت تلك آخر مرة فى حياتى اشعر فيها بالتعاسة والجوع !

ولقد مكثت فى (ليون) سبعة أيام أو ثمانية ، فى انتظار بعض مهام كانت « ماما » قد عهدت بها إلى الآنسة « دى شاتيليه »

وفي اثناء هذه الفترة كنت أكثر مثابرة على زيارة الأنسة من
 ذى قبل ، فرحت أنعم بالحديث إليها عن صديقتها ، ولم اعد
 مثقل البال إلا بتلك الأفكار القاسية التي كانت نعاودنى عن
 مركزى ، وإلا بمحاولة إخفاء هذا المركز . ولم تكن الأنسة
 « دى شاتيليه » بالشابة ، ولا بالجميلة ، ولكنها لم تكن تفقر
 إلى الملاحظة ، وكانت رقيقة الأعطاف ، ودودة ، كما كان نكاؤها
 يضىء بهاء على هذا الود . ولقد أوتيت ذلك الشغف بالتأمل
 الخلقى الذى يقود إلى دراسة الشخصيات ، وإليها ادين بأول
 حافظ أصلى دفعنى إلى هذا الاتجاه . وكانت مشغوفة بقصص
 « ليساج » ، لا سيما قصة « جيل بلا » التي حدثتني عنها
 وأعارتنيها ، فقرأتها في استمتاع ، ولكنى لم أكن قد نضجت
 بعد بحيث أفقه هذا النوع من القراءة ، إذ كنت أنشد القصص
 الحافلة بالأحاسيس الرفيعة . وهكذا قضيت وقتى إلى جوار
 مدفأة الأنسة « دى شاتيليه » في استمتاع وانتفاع ، ومن
 المحقق أن الأحاديث الطريفة ذات الطابع الفكرى — التي تصدر
 عن امرأة موهوبة — أصلح لتكوين الشاب من كل ما فى الكتب
 من فلسفة متحذقة ! .. ولقد تعرفت — بين المقيمين فى
 (شاسوت) وأصدقائهم — إلى فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها،
 تدعى الأنسة « سير » ، لم أبد لها إذ ذاك اهتماما عظيما، ولكنى
 شغفت بها حبا بعد ذلك بثمانى أو تسع سنوات .. وكنت على
 حق فى تدلهى بها ، فقد كانت فتاة ساحرة (١) .

(١) سيرد ذكرها فى القسم الخاص بسنة ١٧٤١ من الكراسى السابعة .

وفى غمرة انشغالى بتوقع رؤية « ماما » الطيبة — عما قريب — أهملت أوهاى قليلا ، إذ عوضتنى الهناء الحقيقية التى كانت فى انتظارى ، من السعى وراء الخيالات . . فإنى لم أعثر على « ماما » مرة أخرى فحسب ، وإنما وجدت فى قربها ، ويوساطتها ، ظرفا مواتيا ، إذ أشارت فى رسالتها إلى أنها عثرت لى على عمل كانت تأمل أن يروق لى ، كما أنه لم يكن ليقتصنى عنها . ولقد ارهقت حدسى فى التكهّن بنوع ذلك العمل ، بيد أنه كان لابد للمرء من أن يصبح نبيا حتى يصيب الحدس . . . وكان لدى من المال ما يكفى لأن أقوم برحلة مريحة . وقد رغبت الآنسة « دى شاتيليه » فى أن استأجر جوادا ، ولكنى لم أكن أملك أن أوافقها ، وكنت على حق . ولولا ذلك لفقدت متعة آخر رحلة على الأقدام فى حياتى — فلست أستطيع أن أصف النزهات التى كثيرا ما كنت أقوم بها فى الضواحي المجاورة أثناء إقامتى فى (موتير) ، بأنها رحلات على الأقدام !

ومن الأمور العجيبة ان خيالى لا يطلق قط راضيا إلا عندما تكون حالى غير مرضية ، كما أنه — من ناحية أخرى — يغدو أقل ما يكون ابتساما عندما يبتسم كل ما حولى . . . فإن راسى النكد لا يستطيع أن يتكيف مع الأشياء ، فهو لا يقنع بتجويل الأمور ، وإنما يصبو إلى الخلق والابتداع . . كما أن الأشياء الحقيقية لا تبدو له إلا كما هى فى الواقع ، فهو إنما يجيد تنميق الأشياء الخيالية فحسب . وعلى هذا القياس ، لابد لى من أن أكون فى الشتاء ، إذا شئت أن أصور الربيع ! وإذا رغبت فى

وصف جمال مناظر الطبيعة ، وجب أن أكون داخل الجدران . . ولقد قلت مرة إنه لو كان قد قدر لى يوما أن التى فى غياهب (الباستيل) ، لكنت قد رسمت أبداع صورة للحرية !

وعندما بارحت (ليون) ، لم أكن أرى أمامى سوى مستقبل باسم . . ولقد كنت سعيدا ، وكان لى الحق فى ذلك ، بعد أن حرمت هذه السعادة وأنا أغادر باريس . . ومع ذلك فإنى لم أنعم خلال هذه الرحلة بتلك الخواطر البهيجة التى كانت ترافقنى فى الرحلة الأخرى . كان قلبى جذلا ، ولكن هذا كان غاية ما فى الأمر . ورحت أقترب فى اشتياق نحو تلك الصديقة الرائعة التى كنت أسعى لرؤيتها من جديد ، وأتذوق مقدما حلاوة العيش بالقرب منها ، ولكن فى غير نشوة سكرى ، إذ كنت دوما أتوقع ذلك ، فكأنما لم يكن فيما أنا مقبل عليه شيء جديد . . . ولقد خامرنى القلق بصدد ما كنت مقدما على عمله ، وكأنها كان فى ذلك ما يدعو إلى الإشفاق . . وكانت أفكارى ساكنة وادعة ، وليست « سماوية » ، تسلب الروح والعقل . وكانت الأشياء المادية تجتذب نظرى ، فكنت أولى مناظر الطبيعة اهتمامى . . كنت ألاحظ الأشجار والدور والجداول ، وأحدث نفسى عند ملتقيات الطرق ، فقد كنت فى خوف من أن أضل ، ولكنى لم أضل على الإطلاق . . وبإيجاز : لم أعد أحلق بين السحب ، وإنما كنت دائما حيث كنت . . فلم أبعد قط عن الواقع !

وأنا فى الحديث عن رحلاتى ، تماما كما أنا فى أدائها ، لا أتعجل بلوغ غايتى . . وهكذا كان قلبى يخفق طربا وأنا أقترب من « ماما » العزيزة ، ولكنى لم أغذ السير إليها ، فإنى أحب السير

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى ٦٥

كما يروق لى ، ولا اتوقف إلا حين يطولى . . فحياة التجوال هى القى ثلاثمنى ، والسفر على الأقدام ، فى وقت بديع ، وفى بلد جميل ، دون ما تعجل ، ونحو غاية مرغوبة ، هو أكثر اساليب العيش طرا ملاعة لذوقى ! وفيما عدا ذلك ، فإن ما أعنيه « بالبلد الجميل » أصبح معروفا : فما من بلاد مبسطة الأديم بدت لعينى جميلة ، مهما يكن جمالها . . بل لابد لى من سيول ، وصخور ، وأشجار صنوبر ، وغابات سوداء ، وجبال ، وطرق منحدره أتسلقها أو أهبطها ، ومهاوى من حولى تثير رعبى ! ولقد أتاحت لى هذه المتعة ، واستمراتها فى أروع سحرها ، وأنا أقرب من (شامبرى) . . فغير بعيد من جبل شديد الانحدار — يسمى (با دى لاشيل) — كان ثمة نهر يجرى تحت طريق واسعة منحوتة فى الصخر ، عند البقعة المسماة (شايبى) . وكان نهرا قصيرا ، يندفع جامحا عبر مهاوى سحيقة بدا أنه حفرها خلال آلاف السنين . . وكان ثمة سياج على حافة الطريق لتفادى النكبات ، مما مكنتى من أن أطل على الأعماق ، وأن أحظى بالدوار وفق هواى ! . . ذلك لأن من الأمور الطريفة فى مزاجى أننى أميل إلى الأماكن السحيقة الانخفاض ، التى يدور لها رأسى ، وأننى أحب هذا الدوار كثيرا ما دمت مطمئنا إلى سلامتى . . ومن ثم انحنيت فى اطمئنان فوق السياج ، ومددت أنفى فى الفضاء ، وظللت هكذا ساعات طويلة ، تأمل — بين وقت وآخر — الزبد والماء الأزرق الذى كنت

اعترافات جان چاك دوسو - الجزء الثانى

٦٦

اسمع هديره وسط صراخ الغربان وصيحات الطيور الجارحة التى كانت تحلق من صخرة إلى صخرة ، ومن دغل إلى دغل ، على بعد مائة مترسخ تحتى . . وفى البقاع التى كانت الأرض تنبسط عندها فى انحدار شديد ، حيث لم تكن الأشجار من الكثافة بحيث تحول دون مروق الحمى ، رحت اجمع اكبر ما استطعت حملة من الأحجار ، ووضعتها على السياج ، ثم أخذت أطوح بها واحدة بعد أخرى ، مستعذبا رؤيتها وهى تمرق ، ثم ترتطم فتنتشم إلى ألف قطعة ، قبل أن تبلغ قاع الهاوية !

وإذ ازددت قربا من (شابيرى) ، رايت منظرا مشابها ، ولكنه من نوع مخالف : كانت الطريق تمتد عند أقدام صخرة كانت أبدع مسقط مائى شهادته فى حياتى . وكان الجبل منحدرًا إلى درجة تجعل الماء يندفع فى الفضاء ، ثم يهبط بعيدا فى قوس كبير ، بحيث يستطيع المرء أن يمر بين الماء والصخرة دون أن يبتل أحيانا ! ولكن كان من السهل أن يخدع الإنسان إذا لم يكن حذرا فى حسابه . ذلك لأن الماء — عند انحداره من هذا الارتفاع الشاهق — ينشق ويسقط فى رشاش . . فإذا ما اقترب المرء من هذه السحابة من الرذاذ ، اخضل بالماء فى لحظة ، دون أن يفطن — فى بادئ الأمر — إلى أنه قد ابتل !



ووصلت أخيراً .. ورأيته من جديد ! .. ولم تكن وحيدة ، فقد كان المدير العام للتعليم لديها فى اللحظة التى دخلت فيها عليها . وبدون أن أتكلم ، تناولت يدي وقدمتني إليه بذلك اللطف الذى كان يفتح لها كل القلوب : « ها هو يا سيدى هذا الشاب المسكين ، فتكرم برعايته طالما استحق الرعاية ، ولن أشعر بعد ذلك بقلق من أجله ، بقية حياته ! » .. ثم وجهت إلى الخطاب قائلة : « انك الآن يا بنى فى خدمة الملك .. أشكر السيد المدير ، إذ هيا لك أسباب العيش ! » .. وفتحت عيني الواسعتين دون أن أقول شيئاً ، ودون أن أدري فيم ينبغى أن أفكر ، إذ أن طموحى المطرّد النمو أدار رأسي ، فتصورت نفسي للتو مديراً صغيراً ! .. ومن المؤكد أن حظى لم يرق إلى التآلق الذى أوحى به إلى خيالى هذه البداية ، بيد أنه كان يكفئنى إذ ذاك أن أعيش فحسب ، وقد كان ما دبر لى أكثر مما رجوت .. وهاكم جليلة الأمر :

خطر للملك « فيكتور اماديه » — على ضوء الحروب السابقة ، وحالة الميراث الذى آل إليه عن آبائه — أن هذا الميراث لن يلبث أن يفلت منه يوماً ، ومن ثم فقد سعى إلى استنزاف موارده . ولما كان قد قرر — قبل ذلك بسنوات قلائل — أن يخضع الأشراف لضريبة العشور ، فإنه أمر بإجراء تقدير عام لجميع الأراضى ، لتعيين مساحتها وقيمتها ، لبتعننى بعد ذلك مرض الضريبة العقارية ، وإعادة تنسيقها بمزيد من المساواة .

وكان هذا العمل قد بدأ فى عهد الأب، واستؤنف فى عهد الابن . .
 واستخدم لهذه المهمة مائتان أو ثلاثمائة شخص ممن يقولون
 مسح الأرض — وكانوا يدعون مهندسين — ومن الكتاب الذين
 أطلق عليهم لقب السكرتيرين . وقد حصلت لى « ماها » على
 منصب بين هؤلاء الآخرين . ومع أن المنصب لم يكن عظيم
 المورد ، إلا أنه كان بدر ما يكفى للعيش عن سعة فى تلك المنطقة .
 وكان السيئ فى الأمر أن هذا النعيين كان مؤقتا ، ولكنه جعلنى
 فى وضع يمكننى من البحث عن منصب أفضل وارتقاب الحصول
 عليه . وكان من بصيرة « ماها » أن تعهدت الظفر لى برعاية
 خاصة من المدير ، حتى أتمكن من الانتقال إلى منصب أرسخ
 مكانة ، إذا ما حانت نهاية عملى فى المنصب الأول .

ودخلت الخدمة عقب وصولى بأيام قلائل . ولم يكن فى
 هذا العمل شيء من العناء ، فسرعان ما خبرته . وهكذا قدر لى
 للمرة الأولى — بعد أربع أو خمس سنوات قضيتها فى التجوال،
 والطيش ، والعذاب ، منذ بارحت (جنيف) — أن أبدا فى كسب
 عيشى بعمل مشرف !

ولقد تبدو هذه التفاصيل المسهبة عن باكورة صباى ،
 امورا صبيانية . . ولكنى غير مستاء لذلك ، فعلى الرغم من
 أننى ولدت رجلا — لاعتبارات معينة — إلا أننى ظللت طفلا
 لمد طويل ، ولا أزال كذلك لاعتبارات كثيرة أخرى . . وأنا لم

اعد بان اقدم للرأى العام شخصية عظيمة ، وإنما وعدت بان اصف تلك الشخصية التى اوتيتها . ولابد — لكى تعرفونى فى كبرى — من أن تلموا الماما كافيا بصباى ، ذلك لان الأشياء المادية — بوجه عام — اقل انطبعا فى نفسى من ذكرياتها ، كما أن جميع افكارى تتخذ شكل صور خيالية . . فى حين أن الأحداث الاولى التى طبعت نفسها على صفحة ذهنى ظلت باقية ، ولم تملك الأحداث التى انطبعت بعدها سوى أن تندمج فيها ، بدلا من أن تطفى عليها ! . . وهناك مجموعة متعاقبة من العواطف والآراء التى تطفى على كل ما يأتى بعدها من عواطف وافكار ، ولابد من التعرف على الاولى لكى يتسنى الحكم على الأخيرة . وقد اعتدت — فى جميع الأحوال — أن أعنى بالأسباب الاولى ، حتى يكون ترابط النتائج وتسلسلها محسوسا . . وإنى لأرجو أن أستطيع — إلى حد ما — أن أعرض نفسى شفافة امام عينى القارئ ، ومن أجل هذا اسعى إلى أن اطلعه عليها تحت جميع الأضواء ، وإن اعرضها من جميع النواحي ، وأن استيقن من أنه لن تغيب عن ملاحظته اية حركة من حركاتها ، حتى يكون قادرا فى النهاية على أن يحكم بنفسه على المبادئ التى انتهجتها .

وإذا كنت القى على نفسى مسئولية النتيجة ، واقول للقارئ : « هذه هى شخصيتى » ، فقد يخيّل إليه أننى إذا لم أكن اخدعه هو ، فإننى — على الأقل — أخدع نفسى . اما عندما اكتمى بتفصيل كل ما جرى لى ، وكل ما فعلت ، وكل ما خطر

ببالى ، وكل ما خالجنى من مشاعر ، فإننى لا استطيع ان اغرر به — بمحض رغبتى على الأقل — بل إننى لو اردت لما وجدت الامر سهلا . . ومن ثم فإننى اترك له عبء تجميع هذه العناصر ، وتقرير نوع المخلوق الذى تؤلفه ، إذ يجب ان تكون النتيجة من صنعه هو ، حتى إذا أخطأ بعد ذلك ، كان الخطأ كله من ذنبه . على أنه لا يكفى — من أجل هذه الغاية — أن نكون قصصى صادقة ، وإنما يجب كذلك أن تكون دقيقة . وليس لى أن أحكم على أهمية الوقائع ، وإنما يقتضىنى الواجب أن أرويها جميعا ، ثم أترك له مهمة فرزها . وهذا ما حرصت عليه — حتى الآن — بكل ما أوتيت من شجاعة ، ولن أحميد عنه فيها لى . غير أن ذكريات أوسط العمر ، تكون دائما أقل تألقا من ذكريات باكورة الصبا . ولقد بدأت بأن اقتبست عن هذه أفضل قسط استطعت اقتباسه . فإذا واتتنى الذكريات الأخرى بنفس الوضوح ، فإن القراء الذين ملوا الأولى ، ربما ازدادوا مللا . أما أنا — بالذات — فلن أكون مستاء من عملى ، وليس لى ما أخشاه فى هذا المشروع سوى أمر واحد : وليس هذا الأمر هو الاسراف فى القول ، أو سرد الأكاذيب ، وإنما هو ألا أقول كل شيء ، أو أن أخفى الحقائق .

الكراسة الخامسة

(من سنة ١٧٣٢ إلى ١٧٣٦)

كان ذلك فى سنة ١٧٣٢ — على ما يبدو لى — إذ وصلت إلى (شامبيرى) ، كما ذكرت ، وبدأت عملى فى مسح الأرض ، فى خدمة الملك . وكنت قد تجاوزت عامى العشرين ، ودنوت من الحادى والعشرين . وكنت — من الناحية العقلية — وفى التكوين بالنسبة لسنى ، ولكن المقدره على الحكم على الأمور لم تكن متوفرة لى ، بل كنت فى ميسس الحاجة إلى الأيدى التى وقعت بينها ، لاتعلم كيف أتصرف . ذلك لأن سنوات التجارب القليلة لم تقو على أن تبرئنى تمامًا من خيالاتى الشاعرية . وعلى الرغم من كل البأساء التى عانيت بها ، فإننى لم أعرف عن الدنيا والناس إلا القليل ، وكأنى لم أدفع ثمن المعرفة !

واقمت فى دارى ، أعنى فى دار « ماما » ، ولكنى لم أسترده قط الغرفة التى كانت لى فى (أنيسى) ، فلم تعد ثمة حديقة ، ولا جدول ، ولا مناظر . . بل كان البيت الذى شغلته معها كئيها ، وكانت غرفتى أكثر غرف البيت ظلمة وكآبة : جدار بدلا من مناظر الطبيعة ، وحارة مسدودة بدلا من الشارع ، وقليل من الهواء ، ونزر من ضوء النهار ، ومساحة ضئيلة ، وصراصير ، وفئران ، وأخشاب بالية تكسو الأرض . . كل هذه ما كانت لتجعل من الغرفة سكنا بهيجا ، ولكنى كنت فى دارها — دار « ماما » — وبالقرب منها ! . . ولما كنت بلا انقطاع فى مكتبى أو فى غرفتها ، فأتى لم أنتبه كثيرا إلى بشاعة غرفتى ،

إذ لم يكن لدى وقت للتفكير فيها . ولسوف يبدو عجيبا أن تقيم «ماما» فى (شامبرى) خصيصا لتسكن هذه الدار الوضيعة، ولكنها كانت حيلة ماهرة من جانبها ، ينبغى ألا أغفل ذكرها : فلقد واجهت فكرة الرحيل إلى (تورين) وهى كارهة ، إذ كانت تشعر — بعد الثورات التى كانت حديثة العهد ، وبعد القلاقل التى كانت لا تزال تلم بالبلاط — أن الوقت لم يكن ملائما لوجودها هناك . فى حين أن شئونها كانت تتطلب ظهورها ، إذ كانت تخشى أن تغدو منسية أو ضحية للوشايات ، سيما وأنها كانت تعلم أن الكونت « دى سان لوران » — المدير العام للمالية — لم يكن يميل إليها . وكانت له فى (شامبرى) دار عتيقة ، رديئة البنيان، وفى موقع بلغ من سوءه أنها كانت تظل خاوية باستمرار، فاستأجرتها « ماما » واستقرت فيها ! . . وكان هذا التصرف أكثر توفيقا من الرحيل إلى (تورين) ، فلم يقطع معاشها قط ، بل أصبح الكونت « دى سان لوران » — منذ ذلك الحين — من أصدقائها !

وألقيت إدارة بيتها تقرب مما كانت عليه من قبل ، كما ظل وصيفها الوفى « كلود آنيه » معها دائما . . وهو — كما أظننى فكرت — فلاح من (موترو) ، اعتاد فى طفولته أن يجمع الأعشاب فى منطقة (جورا) لصناعة الشاى السويسرى ، فالحقته «ماما» بخدمتها من أجل عقاقيرها ، إذ وجدت من الأصوب والأوفر أن يكون خادمها خبيرا بالأعشاب! . . وكان مشغوفًا كل الشغف بدراسة النباتات ، فحببت هذا الميل إلى درجة أن أصبح الرجل خبيرا نباتيا بحق ، ولولا أنه مات فى شبابه ، لكان من المحتمل

أن يذيع اسمه فى هذا العلم ، بقدر ما يستحق أن يخلد اسمه بين الشرفاء الأمناء . ولما كان جادا ، بل ووقورا ، كما أننى كنت أصغره ، فإنه غدا منى بمثابة المربى، مما عصمنى من كثير من الحماقات ، إذ كان ذا أثر على نفسى ، فلم أكن أجسر على أن أنسى نفسى فى حضرته ! وكان له عين الاثر على نفس سيدته ، التى عرفت حسن إدراكه ، واستقامته ، وولاء الذى لا يتزعزع نحوها ، فجازته خير الجزاء . . ولقد كان « كلود آنيه » — بلا مرأى — رجلا نادرا ، بل أنه الوحيد الذى رأيته من نوعه على الإطلاق ! كان متثدا ، متزنا ، مفكرا ، حكيما فى تصرفاته ، هادئا فى طباعه، موجزا مفيدا فى أقواله . وكان فى عواطفه عنف لم يكن يدعه يظهر البتة . . عنف كان ينهش أحشاءه ، ولكنه لم يدفعه أبدا إلى أن يرتكب فى حياته سوى حماقة واحدة، ولكنها كانت رهيبة . . تلك هى أنه سم نفسه ! . . وقد وقع هذا الحادث المحزن عقب وصولى بقليل ، وكان خليقا بأن يطلعنى على مدى المودة الوثيقة التى كانت بين هذا الفتى وسيدته ، إذ أننى ما كنت لأحدسها إطلاقا لو لم تنبئنى بها هى بنفسها ! . . وبقينا أنه إذا كان الولاء ، والتحمس ، والوفاء ، جديرة جزاء من نوع تلك المودة ، فقد كان « آنيه » أهلا لذلك، والذى يثبت أنه كان خليقا به ، أنه لم يسئ استغلال ثقة سيدته أبدا ! . . وكان نادرا ما يتشادان ، ودائما تنتهى مشاداتهما على خير . على أنه قدر لإحداها أن تنتهى بسوء ، فلقد قالت السيدة لآنيه — فى غضبها — كلمة مثيرة لم يقو على احتمالها ، وفى تأثره وأساه ، وقعت يده على زجاجة بها خلاصة دهن

الأميون ، فتجرع محتوياتها ، ثم استلقى فى هدوء ، مطمئنا إلى أنه لن يستيقظ قط ! .. ولحسن الحظ أن مدام دى غاران راحت تجوس خلال دارها — وهى قلقة ، منفعلة — فعثرت على الزجاجاة فارغة ، وحدثت الباقى ، فأسرعت لنجدته ، وهى تطلق صرخات اجتذبتنى إليها .. فاعترفت لى بكل شئ، وناشدتنى المعونة ، ونجحنا بعد كثير من العناء فى حمله على تقيؤ الأميون . وإذ شهدت هذا المنظر ، عجبت لفبائى إذ لم يساورنى قط أتفه ريب فى الصلات التى انبأتنى هى بها ! .. بيد أن « كلود آنيه » كان من التكم بحيث أن من يفوقونى فى جلاء البصرة كانوا خليقين بأن يغفروا بمظهره ! وكان الصلح بينهما بعد ذلك من نوع جعلنى أتأثر — أنا نفسى — أشد التأثير . ومنذ ذلك الحين أضفت إلى التقدير احتراما نحوه ، وأصبحت تلميذا له ، إلى حد ما .. الأمر الذى لم أجد فيه عيبا !



على أننى لم أنج من الألم ، إذ أدركت أن ثمة من استطاع أن يعيش مع « ماما » فى مودة تفوق مودتى كثيرا . بل إننى ما فكرت يوما فى أن أشتهى لنفسى مثل هذه المكائنة ، غير أنه كان من الشاق على نفسى أن أراها تمتلئ بشخص آخر ! .. وكان هذا أمرا طبيعيا ، ومع ذلك فإننى بدلا من أن أشعر بنفور من ذاك الذى سلبنى إياها ، وجدت أن وفائى للسيدة قد امتد — فى الواقع — إليه هو الآخر ! فقد كنت راغبسا — قبل كل شئ — فى سعادتها ، وما دام هو ضروريا لهذه السعادة ، فقد ارتضيت أن يكون هو الآخر سعيدا . أما هو ، فإنه « غاص »

تماما فى وجهات نظر مولاته ، واستشعر صداقة صادقة نحو الصديق الذى اصطفته . وبدون أن يفرض على السلطة التى كان مركزه يخوله إياها ، فإنه مارس - بطريقة طبيعية - تلك السلطة التى كان ذكاؤه الفائق يتيحها له على ذكائى ، بحيث لم أجرؤ البتة على عمل ما قد يبدو استهجانا له ، كما أنه لم يكن يستهجن سوى ما هو سيئ . وهكذا عشنا فى وحدة أسعدتنا جميعا ، ولم يكن ليقوى على تقويضها سوى الموت ! . . ومن أدلة روعة شخصية تلك الميزة الحبيبة ، أن كل الذبن أحبوا كانوا يتحابون فيما بينهم . . فكانت الغيرة ، بل والتنافس ، يخضعان للشعور المسيطر الذى كانت توحى به السيدة ، وهكذا لم أر قط واحدا ممن كانوا يحيطون بها يضرر شرا لآخر ! . . فليكن أولئك الذين يقرأون كتابى لحظة عن مطالعتهم ، عند هذا المديح ، فإذا وجدوا - وهم يتأملونه - امرأة أخرى يستطيعون أن يقولوا عنها الشيء ذاته ، فليعلقوا بها ليضمنوا الطمأنينة فى حياتهم . . ولو كانت - فيما عدا ذلك - آخر الغاويات !

وهنا تبدأ - منذ وصولى إلى شامبيرى ، حتى رحيلى إلى باريس فى سنة ١٧٤١ - فترة مداها ثمانى أو تسع سنوات ، سأروى خلالها من الحوادث التى تستحق الرواية عددا قليلا ، لأن حياتى كانت جد بسيطة وبهيجة . وكانت رتابتها هذه هى عين ما كانت تهمس إليه حاجتى لكى استكمل تكوين شخصيتى ، التى حالت القلاقل المستمرة دون استقرارها . وفى هذه الفترة الغالية ، تهاسكت تربيتى - المتنوعة ، غير

المتابعة — فجعلت منى الشخص الذى لم أكف بعد ذلك عن أن أكونه فى غمار العواصف التى كانت تتربص بى . ولقد كان هذا التطور غير محسوس ، كما كان بطيئاً مصحوباً ببضعة أحداث جديرة بالذكر . . بل جديرة بالمراعاة والتنمية !

ففى بداية الأمر ، لم أشغل بشيء سوى عملى ، إذ أن قيود المكتب لم تكن تدعنى أفكر فى شيء آخر . وكان الوقت القليل الذى أتحرق فيه ، ينفضى إلى جوار «ماما» الطيبة . ولما لم تكن لدى فسحة للقراءة ، فإن شغفى بالاطلاع لم يعد يملكنى . حتى إذا أصبحت واجباتى نوعاً من العادة المتواترة ، قل انشغال بالى بها ، فعاودنى التملل والقلق ، وأصبحت القراءة ضرورة — من جديد — وكأنها كان هذا الميل يحتدم كلما عز ارضاءه ، فكان خليقاً بأن يغدو ولعاً جنونياً — كما حدث عندما كنت فى كتف معلمى (١) — لو لم تتدخل بعض نوازع أخرى فتحول اهتمامى عنه .

ومع أن عمليانا لم تكن تتطلب تعمقاً فى الحساب ، إلا أنها كانت تحتاج إلى قدر منه كان كافياً لأن يزعجنى فى بعض الأحيان . ولكى أتغلب على هذه العقبة . ابتعت بعض كتب فى علم الحساب ، واستوعبتها جيداً ، إذ كنت أستذكرها وحدى . وقد تبينت أن الحساب التطبيقى أوسع نطاقاً مما يتصور المرء ، إذا ما كانت الدقة منشودة . فثمة عمليات بالغة الطول ، كنت أرى المهندسين يخطئون أحياناً فى سياقها . بيد أن التفكير المقترن بالمران يتيح سوانح جليبة ، فلا يلبث المرء أن يهتدى

(١) يقصد الحمار الذى قضى فترة عنده يتعلم حرفة النقش على المعادن.

إلى أساليب مقتضبة يثير ابتكارها اعتداده بنفسه ، كما أن دقتها ترضى العقل ، وتضفى سحرا على عمل لا ينطوى على حمد ولا عرفان . ولقد تعمقت في هذا الباب تعمقا موفقا إلى درجة أن أية معضلة قابلة لأن تحل بالأرقام وحدها لم تكن تعينني ! .. حتى أنني الآن ، وقد أخذ كل ما عرفته ينحى من ذاكرتى يوما بعد يوم ، أجد أن هذه المعرفة التى اكتسبتها لا تزال باقية — إلى حد ما — بعد انصرافى عنها ثلاثين عاما ! .. ولقد حدث منذ أيام ، وفى خلال رحلة قمت بها إلى (دافنبورت) ، أن عاونت أبناء مضيئى فى درس الحساب ، فكان سرورى يفوق التصور ، إذ حللت — دون ما خطأ — مسألة من أشد المسائل تعقدا . وكان يخيل إلى وأنا أسجل الأرقام أننى فى (شامبرى) من جديد ، وفى أيام شبابه الهائنة . فلقـد ارتدت إلى تلك الأيام ، على بعد الشقة بينى وبينها !

كذلك ولد تلوين خرائط مهندسينا الميل إلى الرسم فى نفسى ، فابتعت بعض الألوان ، وشرعت أرسم الزهور والمناظر الطبيعية . ومما يرئى له أننى اكتشفت أنى لم أوت سوى موهبة طفيفة فى هذا الفن الذى كنت أميل إليه بكل جوارحى ! .. وكنت خليقا بأن أقضى — بين أقلامى وفرشى — أشهراً بأكملها ، دون أن أبرح دارى . وإذ أصبحت هذه الهواية تستأثر باهتمامى إلى درجة كبيرة ، فقد روى انتزاعى من سيطرتها . وهكذا الحال دائما بالنسبة لكل الميول التى أشرع فى الانصراف إليها بكل نفسى ، إذ أنها تتضاعف وتستحيل إلى شغف ، فسرعان ما لا أعود أرى فى الدنيا سوى المتعة التى استشعرها

فى مزاولتها . ولم تبرئنى السن من هذا العيب ، بل إنه لم يتضاءل مع مرور السنين ، حتى أننى لأرانى - وأنا أكتب هذا الآن - كمخرف كهل يهيم بدراسة أخرى لا نفع من ورائها ، ولا يفقه فيها شيئا ! .. دراسة يضطر أولئك الذين كرسوا لها حياتهم إيان شبابهم ، إلى التخلّى عنها فى مثل السن التى أريد أن أشرع فى ممارستها فيها(١) !



ولقد كانت هذه الهواية خليقة بأن تبدو أمرا طبيعيا فى ذلك الوقت(٢) ، إذ كانت الفرصة سانحة، وكان ثمة ما يغرينى بانتهازها . فلن الرضى الذى كنت أشهده فى عيني « آنيه » وهو يعود إلى الدار محملا بالنباتات الجديدة ، جعلنى - مرتين أو ثلاثا - على وشك أن أنصرف إلى جمع الأعشاب معه . وأكاد أوقن بأن هذه الهواية كانت قهينة بأن تستولى على ، لو أننى خرجت معه مرة ، ولعلنى كنت قد أصبحت اليوم خبيرا كبيرا بالنباتات ! .. فلست أعرف فى الدنيا دراسة أكثر ملاءمة لميولى الطبيعية من دراسة النبات ، وما الحياة التى أعيشها فى الريف منذ عشر سنوات سوى دراسة مستمرة للأعشاب ، دون ما هدف - فى الواقع - ودون ما تقدم .. على أننى لم أكن فى ذلك العهد على بيئة بشيء عن علم النبات،

(١) شغف « روسو » - وهو يكتب هذه الكراسة من اعترافاته بـ بفلحة

البتّانيين .

(٢) يقصد الفترة التى عاش خلالها فى « شابيرى » مع مدام دي فاران.



فان الرضى الذى كنت أشهده فى عينى «آنية»
وهو يعود الى الدار محملا بالنباتات الجديدة ، جملنى - مرتين
ثلاثا - على وشك أن أنصرف الى جمع الأعشاب معه .

فشعرت بنوع من الازدراء - بل ومن النفور - لهذه الدراسة، ولم أر فيها سوى ما يراه كل الجهلة من أنها حرفة المهتم بصناعة العقاقير - فإن « ماما » ، التى كانت تحبها ، لم تكن تفيد منها إلا فى هذه الصناعة ، ولم تكن تبحث إلا عن النباتات العادية ، لتستغلها فى عقاقيرها - وهكذا كان علم النبات والكيمياء والتشريح تختلط فى ذهنى تحت اسم الطب ، ولم تكن تصلح إلا لامدادى بفكاهات ساخرة طيلة يومى، ولتجلب على الصناعات بين وقت وآخر !

وإلى جانب ذلك ، أخذ ميل آخر مختلف عن هذا - بل على النقيض منه إلى حد كبير - ينمو فى نفسى باطراد، وسرعان ما ابتلع كل ما عداه : وأعنى بذلك الموسيقى . ولا بد أننى خلقت لهذا الفن بالتأكيد ، فقد بدأت أحبه منذ باكورة طفولتى ، وهو الوحيد الذى ظللت أحبه باستمرار فى جميع الأوقات . والعجيب فى الأمر أن الفن الذى خلقت من أجله ، قد كبذنى تعلمه - برغم ذلك - عناء كبيراً ، وكان تقدمى فيه من البطء بحيث أننى لم أحرز قط على الغناء باعتداد ، بعد كل التدريب الذى مارسته فى حياتى ! .. أما الذى حبب إلى هذه الدراسة - فى ذلك الحين بوجه خاص - فهو أننى كنت أستطيع أن أواصلها مع « ماما » . فمع أن أذواقنا فى النواحي الأخرى كانت جد مختلفة ، إلا أن الموسيقى كانت - بالنسبة لنا - رباطاً يجمع بيننا ، فكنت أحب دائماً أن أفيد منه . وما كانت « ماما » لتأبى ذلك . بل إننى كنت إذ ذاك أكاد أعادلها تقدماً فى هذا الفن ، فكان فى وسعنا بعد محاولتين أو ثلاث أن نحل

رموز أى لحن . وكنت أحيانا إذا ما رأيته مستغرقة أمام
موقد ، أقول لها : « ماما ، هاك لحنا ساحرا لاثنين ، يبدو لى
أنه خليق بأن يجعل رائحة عقاقيرك تنم عن احتراقها » ! ..
فكانت تقول لى : « آه ! .. قسما لأجعلنك تأكلها إذا أنت
شغلتنى عنها حتى تحترق ! » .. وبينما يدور الجدل ، كنت
أجرها إلى معزفها ، فننسى أنفسنا ، حتى تحترق خلاصة
الابسن (١) بالعرعر ، فتلطخ « ماما » بها وجهى ..
وكم كان كل ذلك عذبا !

ومن هذا ترون أننى وإن كنت لم أوت من الفراغ إلا وقتا
قصيرا ، فقد كان لدى كثير من الأمور التى أنفق فيها هذا
الوقت . على أنه كان ثمة — إلى جانب ذلك — ملهاة خليقة
بأن تعادل وحدها كل الملهاه الأخرى ! وإليك قصتها : كنا
نقيم فى شسبه سجن معتم خائق ، حتى أننا كنا بحاجة إلى
الخروج أحيانا لننشد الهواء فى الريف . وأغرى آتیه « ماما »
بأن تستأجر بستانا فى الضواحي لتربية النباتات . وكان يلحق
بهذا البستان بيت ريفى صغير بديع ، مجهز بأثاث متواضع ،
واقیم فيه سرير . وكثيرا ما كنا نتناول عشاءنا هناك ، كما
كنت أنام فيه أحيانا .. ولقد أولعت — دون أن أفطن — بهذا
« المعزل » الصغير ، فحملت إليه قليلا من الكتب وعددا من
المطبوعات ، وقضيت شطرا من وقتى فى تزيينه ، وفى إعداد
مفاجأة مستحبة لما إذا ما خرجت للنزهة فى ذلك المكان .

(١) الابسن عمار مخدز ، « والعرعر » نبات

وكنيت ابتعد عنها أحيانا ، لكى أشغل بها بالى ، ولكى أفكر فيها بمزيد من الابتهاج . وكانت هذه نزوة أخرى لا يسعنى أن أبررها أو أشرحها ، ولكنى أعترف بها ، لأنها كانت حقيقة . وإنى لأذكر أن مدام دى « لوكسمبورج » حدثتني مازحة - ذات مرة - عن رجل اعتاد أن يفارق عشيقته لكى يكتب إليها رسائل ! .. وقد قلت لها إنه كان من المحتمل أن أكون ذلك الرجل - وكان خليقا بى أن أضيف أنني كنت أتصرف أحيانا مثله ! - على أنني لم أكن أشعر قط ، وأنا مع « ماما » بضرورة الابتعاد عنها كى أزداد حبا لها ، لأننى كنت إذا ما خلوت إليها أشعر بطمأنينة كاملة ، كما لو كنت وحيدا ! .. وهى حال لم أستشعرها البتة فى حضور أى امرئ آخر - رجلا كان أو امرأة - مهما يكن تعلقى به ! .. ولكنها كثيرا ما كانت تحاط بقوم لم أكن أنسجم معهم إطلاقا ، فكان يتأبني شعور من الضيق والملل ، يدفعنى إلى ملاذى ذاك (١) ، حيث كان بوسعى أن أهنأ بها كما كنت ابتغيها ، دون أن أخشى أن يتعقبني الزائرون الثقلاء !

وعلى هذه الحال - التى كان وقتى فيها موزعا بين العمل واللهو والتعلم - نعمت بحياة مفعمة بأعذب دعة ! على أن أوربا لم تكن فى مثل طمأنينتى ، إذ كانت فرنسا والإمبراطور قد أعلنوا الحرب لتوهما ، وساهم ملك (سردينيا) فى النزاع ، فأخذ الجيش الفرنسى يتقدم عبر (بيمونت) ليفزو أراشى

(١) يتصد البيت الرينى الملحق بالبلستان .

ميلان . ومرت فرقة منه خلال (شامبيرى) ، كان بين كتائبها كتيبة (شامبانى) ، التى كان قائدها الدوق دى « لاثرموى » . وقد قدمت إليه ، فكان مسرّفاً فى وعوده — وإنى لموثن من أنه لم يتذكرنى البتة بعد ذلك ! — وكان بستاننا الصغير يقوم فى أقصى طرف الضاحية التى دخلها الجند ، ومن ثم فقد كان بوسعى أن أنعم تهماً بمتعة مشاهدتهم وهم يهرون ، وكنت من التحمس لنجاح هذه الحرب ، كما لو كانت لى مصالح عظيمة مهددة بها ! . . ولم يكن قد جال بخاطرى حتى ذلك الحين أن أفكر فى المسائل العامة ، فبدأت أقرأ الصحف للمرة الأولى ، ولكن . . فى تحيز لفرنسا^(١) كان يجعل قلبى يخفق طرباً كلما أحرزت أقل نجاح ، بينما كانت اخفقاتها تحزننى وكأنها قد ألمت بى أنا ! . . ولو أن هذه الحماقة كانت عابرة ، لما وجدتتها جديرة بأن أتحدث عنها ، ولكنها تغلفلت فى فؤادى دون ما سبب كاف ، حتى أننى حين قمت — فى باريس — بدور عدو الطفافة المعتز بدعوته ، شعرت ، رغماً عن نفسى ، بميل خفى إلى هذه الأمة التى وجدتتها راسفة فى الذلة ، وإلى الحكومة التى كنت أظهار بالانقصة عليها . والطريف فى الأمر أننى ، لأجلى من شعور يناقض مبادئى ، لم أجس على أن أفصح به لآى امرئ ، ورحمت أسخر من الفرنسيين فى هزائمهم ، بينما كان قلبى يدمى من أجلهم ، أكثر مما كانت تدمى قلوبهم هم ! ومن المؤكد أننى الرجل الوحيد الذى يعيش بين قوم

(١) لم يكن روسو يعتبر فرنسا وطنه ، فقد كان من رعايا (جنيف)

احسنوا معاملته وهام بحبهم ، ولكنه مع ذلك يظهر نحوهم ، وهو بينهم ، روح الازدراء ! وهذا الميل من ناحيتى مجرد من الهوى ، وهو من القوة ، والبقاء ، والمناعة بحيث اننى لم أستطع ان أبرئ نفسى من هذا الضعف ، حتى بعد رحيلى عن فرنسا ، عقب العاصفة التى تبارت حكومتها وحكامها وكتائبها فى إثارتها ضدى ، ومذ أصبح العرف المألوف هو إغراقى بما لا يستحق من سبب ! . . نعم ، إننى أحبهم برغم نفسى ، وبرغم سوء معاملتهم إياى !

ولقد سعت طويلا إلى تبين سبب هذا التحيز ، فعجزت عن العثور عليه ، اللهم إلا فى عين المناسبة التى أوجدهت : فإن الليل المطرد إلى الأدب أولانى شغفا بالكتب الفرنسية ومؤلفيها وبلاد هؤلاء المؤلفين . وفى الوقت الذى مر فيه الجيش الفرنسى بشابيرى ، كنت أقرأ كتاب « برانتوم » المسمى « القيادة العظام » ، فكان رأسى مليئا بأمثال كليسون ، وبيار ، ولوتريك ، وكولينى ، ومونورنسى ، وتريموى ، وكنت أحب ذرياتهم بوصفهم ورثة فضائلهم وبسالتهم . ورحت أخال أننى ألح فى كل كتيبة مرت تلك العصابات السوداء الشهيرة ، التى أحرزت تلك البطولات ، من قبل ، فى (بيمونت) . وموجز القول أننى ربطت ما كنت أراه ، بالأفكار التى كنت اقتبسها عن الكتب . وراحت مطالعائى الدائبة — وكانت لا تزال مقصورة على مؤلفات الأدباء الفرنسيين — تغذى حبى لبلادهم ، ثم حولت هذا الحب فى النهاية إلى شغف أعمى لم يقو شئ على التغلب عليه ! ولقد سنحت لى — فيها بعد — الفرصة كي

الاحظ فى سياق رحلاتى أن هذا الأثر لم يكن قاصرا على الذات، وإنما كان يتعدانى — بدرجة متفاوتة — إلى أفراد من جميع البلدان ، وهم ذلك القسم من الأمة الذى يحب القراءة ويقبل على الأدب ، فكان هذا الشغف يرجع على النفور العام الذى توحى به عجرة أخلاق الفرنسيين ! .. والملاحظ فى هذا الصدد أن قصص أدبائهم أكثر استيلاء من رجالهم على قلوب النساء فى جميع البلدان .. كما أن تحفهم التمثيلية تجذب الشباب إلى مسارحهم ، فإن شهرة مسارح باريس تجذب إليها زرافات من الأجانب ، الذين يعودون إلى أوطانهم وهم من أشد المعجبين المتحمسين لها ! .. وبالاختصار أقول إن الذوق الرائع الذى يبين فى أدب الفرنسيين ، يسبى عقول كل أولئك الذين أوتوا أى قدر من العقل . ولقد رأيت خلال تلك الحرب — التى انتهت أسوأ نهاية بالنسبة لهم. — أن مؤلفيهم وفلاسفتهم قد صانوا شرف اسم فرنسا الذى لطفه محاربوها!

وقد كنت إذ ذاك فرنسيا متحمسا ، نهما إلى الأنباء ، فكنت اذهب مع حشد متسقطى الأخبار إلى ساحة السوق ، لنتنظر البريد . وكنت — فى غباء يفوق غباء الحمار فى الأسطورة — أشغل نفسى كثيرا بمحاولة معرفة أى سيد سيكون لى شرف حمل سرجه وركابه ، فلقد قيل فى تلك الأثناء إننا سننتزع فرنسا ، وأن (سافوا) ستبادل بأراضى (ميلان) . على أنه من الواجب الاعتراف بأننى كنت على حق فى قلقى ، فلو أن هذه الحرب انقلبت فى غير صالح الحلفاء ، لتعرض معاش «ماما»

٨٦ اعترافات جان چاند روسو - الجزء الثانى
 لخطر كبير . غير أننى كنت مفعما بالثقة فى أصدقائى الطيبين (١)،
 ولم تخب هذه الثقة - فى هذه المرة - بفضل ملك سردينيا ،
 الذى لم أفكر فيه إذ ذاك !



وبينما كان الصراع دائرا فى إيطاليا ، كان الغناء دائرا فى
 فرنسا ! . فقد بدأت أوبرات « رامو » تحدث ضجة ، وترفع
 من شأن مؤلفاته الفظرية التى كان غموضها قد جعلها فى متناول
 نفر ضئيل من الناس . ولقد سمعت عفوا من مؤلفه « رسالة
 فى التوافق » ، فلم أرتح حتى حصلت على هذا الكتاب .
 وبمصادفة أخرى ، سقطت مريضسا . وكان مرضى نوعا من
 الالتباب ، الذى كان عنيفا وقصيرا ، ولكن نقاهتى كانت
 طويلة ، فلم يكن بوسعى الخروج لمدة شهر . وفى خلال هذه
 الفترة عكفت على « رسالة فى التوافق » التهمها ، ولكنها كانت
 طويلة ، محشوة بالإسهاب ، سيئة العرض إلى درجة أننى
 شعرت بأن لا بد لى من وقت طويل كى أدرسها واستوعبها .
 وأرجأت جهودى ، ورحت أجلو عيني بالموسيقى . ولم تفارق
 ذهنى أغانى « بيرنيه » ، التى رحت أتدرب عليها . (فقد
 حفظت منها عن ظهر قلب أربعاً أو خمساً ، منها تلك التى كانت
 تدعى « آلهة الحب النائمة » ، التى لم أسمعها ثانية منذ
 ذلك الحين ، والتى لا أزال أحفظها كلها تقريبا . وكذلك « الحب
 الذى لدغته نحلة » ، وهى أغنية جد بدیعة من تأليف « كليرامبو »
 حنخلتها فى عين ذلك الوقت تقريبا) .

(١) يقصد الفونشيين .

واستكمالا لشغفى ، وصل من (فال داوست) عازف ارغن شاب يدعى الأب « باليه » ، كان موسيقيا مجيدا ، ورجلا طيبا ، وعازفا يجيد مصاحبة من يغنى . وتعرفت إليه ، فأصبحنا لا نفترق . وكان قد تتلمذ على راهب إيطالى بارع فى العزف على الأرغن ، فحدثنى عن مبادئه فى الموسيقى ، وقارنتها ببيادىء « رامو » — الذى كنت أعجب به — وملأت رأسى بالعزف الذى يصاحب الغناء ، ويتناسق الأنغام وتوافقها . وكان لا بد من أن أشحذ حساسية أذننى لكل هذا ، فاقترحت على « ماما » إقامة حفلة موسيقية فى كل شهر ، فوافقت . وإذا بى أستغرق فى تلك الحفلات ، فلم أعد أشغل بشىء آخر ليلا أو نهارا . . والواقع اننى شغلت شطرا كبيرا من وقتى فى تنظيم الموسيقى ، والحفلات الموسيقية ، والأدوات ، وتقسيم الأدوار ، وما إلى ذلك ! . . وكانت « ماما » تغنى ، كما ان الأب كاتون — الذى سبق أن تحدثت عنه ، والذى سأحدث عنه مرة أخرى — كان يغنى هو الآخر . وكان أستاذ للرقص يدعى « روش » يعزف مع ابنه على « الكمان » ، والسيد « كانافا » — وهو موسيقى بيهمونتى كان موظفا فى المساحة ، وقد تزوج بعد ذلك واستقر فى باريس — يعزف على الكمان الكبير ، بينما كان الأب « باليه » يصاحبهم على « البيانو » ، كما كان لى شرف قيادة الموسيقى ، دون أن أنسى العصا . وفى وسع المرء أن يتصور مدى جمال كل ذلك ! . . ولئن لم تكن هذه الحفلات كذلك التى كانت تقام لدى السيد دى « تريوران » ، إلا أنها كانت تقرب منها !

واثارت الحفلات الموسيقية الصغيرة التى أخذت تقيها مدام دى فاران - وهى حديثة عهد بالإيمان ، وكانت تعيش على بر الملك ، كما كان يقال - تنهر عصبة الاتقياء ، ولكنها كانت ملهامة مستحبة لكثير من الشرفاء . ولكن هل يستطيع أحد أن يحدس: من الذى كنت أضعه على رأس تلك المفاسبات ؟ .. كان راهبا ، ولكنه راهب موهوب ، بل ومحبوب ، أثرت بلاياه ، فيما بعد ، على نفسى تأثيرا قويا ، ولا تزال ذكراه - التى ارتبطت بذكرى أجمل أيامى - عزيزة لدى . ذلك هو الأب كاتون - أحد الرهبان الجبليين (١) - الذى عمل بالاشتراك مع الكونت « دورتان » على مصادرة موسيقى « الهيريرة » المسكنة فى (ليون) ، ولم يكن هذا أبدع ما فى حياته . فقد تخرج فى « السوربون » ، وعاش ردها طويلا فى أرقى الأوساط الباريسية ، وكان ذا حظوة خاصة لدى الماركيز « دانترمون » ، الذى كان سفيرا لسردينيا فى ذلك العهد . وكان حسن البنیان ، ممتلئ الجسم ، بارز العينين ، ذا شعر أسود كان يتجعد بطبيعته على جبينه ، وذا أخلاق نبيلة وصريحة ومتواضعة ، فى آن واحد ! .. كان مظهره بسيطا وبديعا ، دون ما شئ من التناق أو السلاطة التى عرفت من الرهبان ، ودون ذلك الصلف المألوف لدى نجوم المجتمع ، وإن كان واحدا منهم .. لم يكن يبدى سوى اعتداد الرجل الشريف ، الذى يحترم نفسه - دون أن يخجل من لباسه - ويشعر دائما بأنه فى الوسط

(١) سبق أن شرحنا مذهب الرهبان الجبليين فى الجزء الاول ، ونضيف

أنهم من « الفرنسيسكان » .

المحترم إنها يكون فى مكانه الطبيعى . ومع أنه لم يكن جد متملم بالدرجة التى تتفق مع « الدكتوراه » التى كان يحملها . إلا أنه كان كامل العدة والاستعداد لأن يكون من رجال المجتمع . . ولم يكن يتلطف على أن يعرض معرفته ، وإنما كان يستغل فى الفرص المناسبة ، حتى لقد كان يظن أنه أوتى من المعرفة أكثر مما كان يمتلك ! . . ولما كان قد عاش طويلا فى المجتمع الرسمى؛ فإنه كان يولى المؤلفات المستحبة من الاهتمام أكثر مما كان يولى العلم الجاف . وكان حاضر البديهة ، يقرض الشعر ، ويجيد الكلام ، ويحظى الغناء ، وقد وهب صوتا جميلا . كما كان يعزف على الأرغن و « البيانو » . وكان هذا أكثر مما يكفى لأن يجعله منشودا ومرفويا — وهكذا كان بالفعل ! — بيد أن ذلك كله لم يحمله على أن يهمل واجبات منصبه إلا بقدر تافه ، فلم يلبث أن اختير — برغم غيرة مزاحميه — نائبا لرئيس طائفته فى إقليمه . وبمعنى آخر ، كان من أرفع أفراد الطائفة شئنا !

ولقد تعرف الأب « كاتون » إلى « ماما » لدى المريكز « دانترمون » . وكان قد سمع عن حفلاتنا الموسيقية فى أحاديث القوم ، فأعرب عن رغبة فى المساهمة فيها . وقد فعل ، فأكسبها بهجة ! وسرعان ما توثق ودنا بفضل ميلنا المشترك للموسيقى ، إذ كان هذا الميل — لدى كل منا — ولعا متأججا ، وكان كل ما بيننا من فارق هو أنه كان موسيقيا موهوبا حقا ، فى حين أننى لم أكن سوى متطفل على الفن ! وكنا نذهب فنعزف فى غرفته ، مع « كاناما » والأب « باليه » ، كما كنا نعزف على أرغنه أحيانا فى أيام الأعياد . وكثيرا ما كنا نتناول

غذاعنا على مائدته الصغيرة ، فقد كان — وهذا أبضا من دواعى العجب بالنسبة لراهب — كريما ، مفداقا ، ذواقة للأطعمة فى غير نهم . وكان ، فى أيام حفلاتنا ، يتناول عشاءه فى دار «ماما» ، فكانت تلك المأدب كثيرة المرح والسرور ، يقال فيها كل ما يخطر بالبال ، وتلقى فيها الأغاني الفئائية .. بينما أسترسل أنا على سجيتى ، فأغدق الملح والطرائف . وكان الأب « كاتون » يبدو لطيفا ، و « ماما » تستأثر بالاعجاب ، بينما يفتدو الأب باليه هدفا للضحك ، بصوته الذى يشبه خوار الثور ! .. أيتها اللحظات العذبة الحافلة بعبث الشباب ، لكم طال بك البعاد !

وبما أننى لن أعود إلى الكلام عن هذا الأب كاتون المسكين ، فإنى أوجز هنا قصته المحزنة فى كلمتين : فإن الرهبان الآخرين ، الذين كانوا يغارون منه — أو بالأحرى يحقدون عليه — إذ رأوا فيه كفاءة وخصالا حميدة ، ليس فيها من فساد الرهبان شيئا ، أوسعوه كراهية لأنه لم يكن بنبيضا مثلهم ! .. فاجتمع رؤساؤهم عليه ، وأوغروا ضده الرهبان الذين كانوا يحسدونه على مركزه ، والذين لم يكونوا يجروؤن من قبل على التطلع إليه ، ومناواته .. فرمى بألف إهانة ، وأقصى عن منصبه ، وانتزعت منه حجرته التى كان قد أثثها بأناقة وبساطة معا ، وجلسوه حيث لا أدرى .. وأخيرا ، أغرقه أولئك التعساء بوسمات لم تقو نفسه الشريفة الأبية — بحق — على احتمالها . وبعد أن كان بهجة أنظره المجالس ، مات أسى على فراش حقير (برش) ، فى ركن ما من « زفرانة » أو « حجب » ، مأسوفا عليه

ومبكيا من جميع الأشراف الذين عرفوه ، والذين لم يجدوا فيه
أى عيب ، سوى أنه كان راهبا !



وفى سياق هذه المعيشة ، لم البث أن غدوت — بعد أهد
وجيز ، غارقا فى الموسيقى . وألفيتنى بعيدا عن التفكير فى أى
شئ آخر ، ولم أعد أذهب إلى مكتبى إلا غصبا ، فقد أصبح
الارهاق والجهد الدائب يسببان لى عناء لا يطاق . . وانتهيت
أخيرا إلى الرغبة فى ترك منصبى ، لأكرس نفسى بأكملها
للموسيقى ! وفى وسع المرء أن يتصور أن هذه الحماسة لم تتأبل
بغير معارضة ، فإن ترك منصب شريف ، ودخل ثابت ، للجرى
وراء تلاميذ غير مضمونين (١) ، كان نهجا خلوا من الحكمة، بحيث
لم يكن يرضى « ماما » . . بل إننا إذا افترضنا أن توفبقى المقبل
بلغ ما كنت أتصوره من ضخامة ، فإن ذلك كان يحد من طموحي
ويحصره فى نطاق متواضع ، إذ يهبط بى طوال العمر إلى مركز
الموسيقى (الموسيقىار) ! . . وأخذت تلك المرأة التى لم تكن
ترسم سوى أبداع الخطط ، والتى لم تعد تحكم على قط وفقا
لرأى السيد « دوبون » ، أخذت ترمقنى فى ألم وأنا أشغل جديا
بموهبة كانت تراها غير مريحة ، وكثيرا ما كانت تردد لى ذلك
المثل الربيفى الذى قل ما يصدق فى باريس : « ان الذى يتقن
الغناء ويحذق الرقص ، يتخذ لنفسه مهنة قل أن ترفع من
قدره » ! . . على أنها — من ناحية أخرى — كانت ترانى منساقا

(١) كان يعتزم أن يتكسب عيشه من تدريس الموسيقى .

ليل لا يقاوم ، فإن ولعى بالموسيقى غدا جنونا ، ومن ثم فقد حق لها أن تخشى أن يتأثر عملى من جراء انشغالى ، فيؤدى إلى أن أحرم من منصبى ، وهو أمر كان من الخير أن أقدم عليه بنفسى (٢) . . ومرة أخرى ، بينت لها أن هذا المنصب لم يكن مقدرا له أن يدوم طويلا ، وأنه لابد لى من مهنة اكتسب منها عيشى ، وان السعى إلى أن اكتسب بالمران حقا للفن الذى كان ميلى يدفعنى إليه — والذى اختارته لى هى — اضمن من أن أضع نفسى تحت رحمة من يولوننى حماهم ، أو أن احاول عملا جديدا قد يجانبى فيه التوفيق ، وقد يدعى — فى النهاية — بلا موارد لكسب عيشى ، بعد أن اكون قد تجاوزت سن التعليم ! . . وانتزعت أخيرا موافقتها ، بالغضب واللجاجة والملاينة ، أكثر منى بالحجج المقنعة ! . . فهرعت لفورى مقدما استقالتي إلى السيد كوتشيللى — المدير العام للمساحة — فى زهو وخيلاء ، وكاننى أقدمت على أكثر الأعمال بطولة . . وهكذا تركت منصبى طواعية ، دون ما داع ، ولا عذر ، ولا مبرر . . بل فى اغتباط يفوق اغتباطى يوم ظفرت به قبل عامين !

هذه الخطوة — برغم أنها كانت حماقة مطلقة — اكسبتنى فى البلاد نوعا من الاعتبار الذى أفسدنى . وطن البعض أننى استند إلى موارد لم أكن أمتلكها ، فى حين أن غيرهم قدروا موهبتى على ضوء تضحيتى — وهم يروننى أنصرف بكل نفسى إلى الموسيقى — واعتقدوا ، إزاء كل هذا الولع بالفن ، أننى

(٢) أى أنه كان من الخير أن يستعيل بدلا من أن يتال !

ولابد على معرفة فائقة به !.. ولما كان الأعور ملكا فى مملكة العميان ، فقد أخذنى القوم على أننى أستاذ بارع ، لأنه لم يكن ثمة من المعلمين سوى الرديئين ! .. وإلى جانب ذلك ، غابتنى لم يكن يعوزنى حذق الغناء — إلى درجة لا بأس بها — كما كنت مفضلا بسبب سنى وشكلى ، فسرعان ما أصبح لى من التلميذات أكثر مما كان يلزمنى لتعويض مرتبى كموظف كتابى !

ومن المؤكد أنه لم يكن بوسع امرئ أن ينتقل — فى سبيل الاستمتاع بالحياة — من أمر إلى نقيضه ، بأسرع مما انتقلت أنا ! .. ففى المساحة كنت أمارس — ثمانى ساعات فى اليوم — أشد الأعمال كآبة ، مع أناس كانوا هم الآخرون أشد الناس كآبة ، حببسا فى مكتب مسمم بأنفاس وعرق كل هؤلاء الأجلاف الذين كان معظمهم بالغى القذارة ، مشعثين — حتى أننى كنت أشعر بدوار وغثيان لفرط الانتباه والرائحة والجهد والضيق أحيانا ! فإذا بى الآن ، بدلا من ذلك ، أجندنى أغوص فجأة فى المجتمع الراقى ، وأصبح مرغوبا ومنشودا فى خير البيوت ، أحظى بالحفاوة والملاطفة والإكرام فى كل مكان ، حيث ترتقب وصولى آنسات لطيفات أنيقات ، ليستقبلننى فى تلهف ! .. لا أدرى سوى الأشياء الفاتنة ، ولا أشم سوى الورد وزهر البرتقال ، ولا أحاط إلا بالغناء والكلام والضحك واللهو .. ولا أغادر بيتا إلا لأجد كل هذا فى بيت آخر ! .. ولسوف يقرنى القارئ على أنه — وقد تساوت الميزات — لم يكن ثمة مجال للتردد فى الاختيار . والحق اننى رضيت عن اختيارى إلى درجة أننى لم استشعر الندم قط .. حتى فى هذه اللحظة ،

وأنا أزن أعمال حياتى بميزان العقل ، بعد أن تحررت من البواعث النزقة التى كانت تحدونى إذ ذاك !

ولقد كانت هذه هى المرة الوحيدة - تقريبا - التى لم أطع فيها سوى ميولى ، فلم يخب رجائى ! ولقد أدت الحفاوة السلسة ، والروح اللطيفة ، والطباع السهلة التى أوتيتها أهل تلك البلاد ، إلى جعل اتصالى بالدنيا أمرا مستحبا ، وقد كان الميل الذى تملكنى إذ ذاك نحو هذا كله ، دليلا أثبت لى بجلاء أنه إذا كان قد قدر لى ألا أحب العيش وسط الناس ، فقد كان هذا ذنبهم أكثر مما هو ذنبى !

ومما يؤسف له أن أهل (سافوا) ليسوا أغنياء - أو لعله كان أمرا أجدر بالأسف أن يكونوا أغنياء ! - ذلك أنهم ، على ما هم عليه ، خير من عرفت من الناس ، وأحسنهم معاشرة . وإذا كانت فى الدنيا مدينة صغيرة تتسنى فيها عذوبة الحياة ، فى وسط ملائم ومأمون ، فهذه المدينة هى (شامبيرى) .. فإن الأسرات العريقة فى الإقليم ، التى تتجمع فى هذه المدينة ، لم تؤت إلا ما يكفيها للعيش ، دون ما زيادة .. وهم بحكم الضرورة - نظرا لعجزهم عن الإغراق فى طموحهم - يتبعون نصيحة « سينياس » (١) ، فيكرسون شبابهم للخدمة العسكرية ، ثم يعودون ليقضوا شيخوختهم فى وطنهم بسلام . وبذلك يتقاسم

(١) كان « سينياس » وزير « بروس » ملك (ايبيروس) - إحدى جزر اليونان - وابن « أخيل » الذى قضى على طروادة ووضع خانمة للحرب الطروادية

الشرف والحكمة حياتهم . أما نساؤهم فجميلات ، وجميلات بحق ، إذ انهن يملكن جميعا ما يجعل للجمال قيمة ، بل وما يغنى عنه . ومن العجيب أننى — وقد قدر لى بحكم مهنتى أن أرى كثيرا من الشابات — لا أذكر أننى رأيت واحدة فى (شامبيرى) لم تكن فاتنة ! . . قد يقال إننى كنت ميالا لأن أراهن فائزات ، وربما كان فى هذا بعض الحق ، ولكنى لم أكن بحاجة إلى أن أضيف إليهن سحرا من خيالى . والحقيقة أننى لا أملك أن أفكر فى تلميذاتى الشابات دون أن أطرب . . وكيف أذكر هنا أبدعهن حسنا ، دون أن أتمثلن معى فى تلك الأيام الهائلة التى نعمنا بها ! . . تلك اللحظات البزينة العذبة التى تمضيها معا ؟! . . كانت أولاهن الآنسة «دى ميلاريد» ، جارتى واخت تلميذ السيد جايم . وكانت سمراء طروب ، مليئة بنشاط ورشاقة ناعمين ، ومجردة من كل نزق . وكانت — كمعظم لداتها — تميل إلى النحافة ، ولكن عينيها اللامعتين ، وقوامها الأهيف ، وخلقها الجذاب ، لم تكن فى حاجة إلى زينة كي تروق للأبصار . ولقد اعتدت أن أذهب إليها فى الصباح ، فأجدها عادة فى ثياب البيت ، لا يزين رأسها سوى شعرها الذى رفعته فى إهمال ، وقد ازدان ببضع زهرات كانت توضع عند وصولى ، ثم ترفع عقب انصرافى ليتسنى تنسيق الشعر ! . . ولست أخشى فى الدنيا أكثر من شابة فى ثياب البيت ! — وتقل خشيتى هذه مرة إذا كانت الفتاة فى كامل ثيابها ! — أما الآنسة «مانتون» ، التى كنت أذهب إليها بعد الظهيرة ، فكانت دائما فى كامل ثيابها ، وكانت هى الأخرى تحدث فى نفسى أثرا بالغ الرقة ، ولكنه من نوع مختلف . كان شعرها أشقر مغبر

اللون ، وكانت بالغة الظرف ، وبالغة الخجل ، ناصعة البياض ، ذات صوت صاف ، واضح ، موسيقى الرنين ، ولكنها لم تكن تجسر على رفعه . وكانت ثمة ندبة على صدرها خلفها حرق نشأ عن ماء مغلى . ولم يكن الوشاح الحريري الأزرق ليستر هذه الندبة تماما ، فكانت تجتذب انتباهى ، الذى لم يعد — بعد زمن قصير — ينحصر فى الندبة وحدها !

وهناك الأنسة دى « شال » ، التى كانت هى الأخرى من جارأتى . وكانت فتاة ناضجة ، واهية العود ، عريضة المنكبين ، تميل للبدانة . وكانت طيبة جدا . ومع انها لم تكن جميلة ، إلا انها جديرة بالذكرى لكرم خلقها ، واعتدال طباعها ، وطيبة سجيته . أما أختها السيدة « دى شارلى » — أجمل امرأة فى شامبرى — فكانت قد تجاوزت سن تعلم الموسيقى ، ولكنها أتاحت التعلم لابنتها التى كانت لا تزال صغيرة ، والتى كان جمالها الناشئ يوحى بأنه سيفضارع جمال أمها ، لولا أنها — لسوء الحظ — كانت ذات شعر ضارب إلى الحمرة . وكانت لى فى « دير الزيارة » آنسة فرنسية صغيرة (غاب عنى اسمها ولكنها جديرة بأن تحمل مكانا بين الأثيرات لدى) . وكانت قد اكتسبت ما للراهبات من لهجة مثثة ، متراخية .. وبهذه اللهجة المتراخية كانت تلقى ملحا طريفة ، لا تبدو ملائمة لوقارها ! وغيا عدا ذلك ، كانت كسولا ، لا تحب أن تتجشم عناء إظهار ذكائها — إذ كان ذلك صنيعا لا تبيحه لكل امرئ! — ولم يخطر لها أن تولينى هذا الصنيع إلا بعد شهر أو اثنين من التدريس ، فقد شأنت أن تجعلنى أكثر مواظبة على وافتهاتى ،

إذ أننى ما استطعت قط أن أحمل نفسى على الدقة فى المواعيد! كنت أحب دروسى أثناء قيامى بإلقائها ، ولكنى لم أكن أحب أن أقسر على حضورها ، ولا أن أكون مقيدا بموعد . . فقد كان التقيد والانصياع أمرين لا أطيقهما ، بحيث كانا يحملانى على أن أكره السرور ذاته ! . . ويقال إن فى تركيا ، لدى «المحمديين» ، ينطلق فى الطرقات عندما يشرف النهار على الطلوع ، رجل يدعو الأزواج إلى أن يؤدوا واجباتهم نحو زوجاتهم . وإنى لخليق بأن أكون تركيا غير صالح فى هذا الموعد(١) .

كذلك كانت لى تلميذات من الطبقة الوسطى ، ومنهن واحدة كانت سببا غير مباشر فى تحول فى علاقاتى ، أرى أن اتحدث عنه ، ما دمت ملزما بأن أروى كل شيء . كانت ابنة بادل (يقال) ، تدعى الأنسة « لار » . وكانت نموذجا كاملا لتمثال إغريقى ، حتى إننى كنت خليقا بأن أصفها بأنها أجمل فتاة رأيتها فى حياتى ، لو قدر للجمال الصادق أن يوجد بلا روح ولا حياة ! . . كان فتورها وبرودها وتجردها من الشعور ، تبلغ فيها درجة لا يصدقها العقل . وكان من المستحيل إرضائها ، كما كان من المستحيل إغضبائها ، على السواء . وإتى لمقتنع بأنه لو قدر لأمرىء أن يحاول العبث بها ، لتركته يفعل ، لا عن ميل ، وإنما عن بلاهة ! . . وهكذا كانت أمها — التى لم تشأ لها أن تتعرض للخطر — لا تفارقها لحظة . ولقد حاولت بغاية جهدها أن توقظ

(١) من المفهوم أن هذه نمرة من الفريات التى شاعت فى أوروبا فى فترة

الحروب الصليبية . وقد كان كل مسلم يسمى تركيا .

مشاعرها ، إذ أتاحت لها دراسة الغناء ، وجاءت لها بمدرس شاب كى يعلمها .. ولكن دون جدوى .. وبينما كان المدرس يسعى لفتنة الابنة ، كانت الأم تسعى لفتنة المدرس ، ولكن أحدهما لم يكن أكثر توفيقا من الآخر ! .. كانت السيدة « لار » تجمع إلى نصيبتها الطبيعى من الحيوية ، ما كان ينبغى لابنتها أن تحرزه ! كانت امرأة ذات وجه صغير ، يقظ ، عابس ، تناثرت فيه آثار الجدرى . وكانت لها عينان صغيرتان ، شديدا التالق ، يشوبهما شيء من الاحمرار — لأنها كانت منحرفة الصحة باستمرار — وكنت أجد عند وصولى ، فى كل صباح ، قهوتي المزوجة بالقشدة . ولم يفت الأم قط أن تستقبلنى بقبلة تجيد طبعها على الفم ، فكنت — بدافع من الفضول — أتمنى لو أردتها إلى الابنة ، لأتبين كيف تتلقاها ! .. على أن كل هذا كان يتم على صورة من البساطة وعدم التكلف ، بحيث كانت المغازلات والقبلات تأخذ مجراها كالمعتاد ، إذا ما كان السيد « لار » موجودا ! .. وكان رب الأسرة رجلا طيبا ، وأبا حقيقيا لابنته ، فما خدعته زوجته يوما ، لأنها لم تكن بحاجة إلى ذلك (١) !

وكنت ألتقى هذه المغازلات بغبائى المعهود، مفسرا إياها على أنها إشارات للود الصادق ! .. على أننى كنت اتضايق أحيانا ، لأن السيدة « لار » لم تكن تغفل أداءها قط ! .. وكنت

(١) يقصد أنها لم تكن بحاجة الى خداعه ، اما لأنها كانت تمارس التقبيل

إياه ، واما لأنها كانت تعجز من اجتذاب الرجال رغم مغازلاتها .

إذا مررت خلال النهار بالحانوت دون أن أعرج عليه ، يخلق ذلك ضجيجا . . فكنت أضطر حين أكون فى عجلة من أمرى إلى أن أدور متخذاً طريقاً أخرى ، لفرط يقينى بصعوبة خروجى من لدن السيدة كما دخلت !

وهكذا كانت السيدة «لار» شديدة الانشغال بى ، بالقياس إلى عدم اهتمامى بها . ولقد أثرت فى هذه الحفلات كثيرا . حتى أننى تحدثت عنها إلى « ماما » ، وكأنها أمر غير مستغرب . ولو كان فيها ما يستغرب لما كنت أقل حديثا عنها . فقد كان كتمان أى سر عن هذه السيدة أمرا غير ممكن . كان قلبى مفتوحا أمامها كما هو مفتوح أمام الله ! . . لكنها لم تتلق الأمر بمثل ما تلقته من بساطة ، فقد رأت أن ما كنت أعتبره « مودة » ، إنما كان فى حقيقته « مغاللات » ! . . وحدثت أن السيدة « لار » رأت من الكرامة ألا تدعنى غرا كبيرا كما وجدتني ، فسعت — بشتى الطرق — إلى أن تكشف لى غايتها ! . . وكان لدى « ماما » من البواعث اللائقة بها ، ما جعلها ترغب فى أن تعصمنى من الشرك التى كانت سنى وشكلى يعرضانى لها ، فضلا عن أنه لم يكن من الإنصاف أن تتولى امرأة أخرى تعليم تلميذها !

ثم نصب فى طريقى شرك أخطر من المعتاد ! . . وبرغم اننى استطعت أن أنجو منه ، فإن هذا الشرك نبه « ماما » إلى أن الأخطار التى كانت تهددنى دون انقطاع ، أصبحت تستوجب كل الاحتياطات التى رأت أن تتخذها ! . . ذلك أن السيدة كونته « مائتون » — أم إحدى تلميذاتى — كانت امرأة واسعة الذكاء،

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثاني

١٠٠

عرفت بأنها أوتيت من الخبث ما لا يقل عن ذكائها . وقد تسببت - كما كان يقال - في كثير من المنازعات، منها ما كان ذا عواقب مشؤومة على أسرة « دانترمون » . وكانت « ماما » على علاقة بها تكفى لأن تطلعها على أخلاقها ، فقد أولعت « ماما » - في براءة - بشخص كانت مدام دى « مانتون » قد بنت عليه آمالا ، فاتهمتها بالعدوان على إيثار كان موجهها إليها ، برغم أن « ماما » لم تفعل . . بل إنها لم تسع إلى هذا الإيثار ، ولم تتقبله ! . . ولكن منذ ذلك الحين عمدت مدام « مانتون » إلى تدبير عدة مكائد لغريمتها ، لم يقدر لآية مكيدة منها أن تنجح . وسأروى واحدة من أكثرها إثارة للضحك ، على سبيل المثال : فقد كانتا مرة في الريف مع عدد من السادة - من الجيران - بينهم الشخص المذكور ، الذى كانت مدام دى « مانتون » تعلق عليه آمالها . وفي أحد الأيام ، قالت هذه لأحد السادة إن مدام دى فاران لم تكن سوى امرأة متحذقة ، وأنها عديمة الذوق ، لا تحسن ارتداء ثيابها ، وتحرص على أن تغطى عنقها كنساء الطبقة الوسطى . فقال السيد ، الذى كان مولعا بالمزاح : « أما عن هذه النقطة الأخيرة ، فإن لديها عذرا ، إذ أننى أعرف أن لديها ندبة كبيرة على شكل الفأر البشع ، مطبوعة على صدرها ، وهى شديدة الشبه بالفأر ، حتى ليقال إنها تجرى ! » . . والحب - كالبغضاء - يوحى بالتصديق ، لذلك اعترمت مدام « دى مانتون » أن تستغل هذا الاكتشاف . وفي ذات يوم ، بينما كانت « ماما » تلعب الورق مع الشخص الذى جحد إيثار السيدة ، إذا بهذه الفرصة فتتسلل إلى ما وراء غريمتها ، ثم توشك أن تقلب مقعدها لتزيح وشاحها عن

(١) فيبوس : من أسماء أبوللون إله القنؤات والطب والنسر والموسيقى عند الرومان .. كما أنه كان إله النهار والشمس ، ومنها اشتق اسم « فيبوس » . وهو ابن الإله « جوبيتر » رب الأرباب وأبوهم لدى الرومان .

— أنا نفسى — أشعر بذلك ، واتحسر له ، وأغبط صديقى « فينتور » على مواهبه ، فى حين أننى كنت جديرا بأن أحمد غبائى إذ أنقذنى من المخاطر ! وهكذا ظلت — بالنسبة لـمـدام مانتون — المدرس الذى يلقن ابنتها الموسيقى ، لا أكثر . . ولكنى عشت فى أمان ، وظللت مرغوبا فى (شامبرى) . وهذا أفضل من أن أكون ذكيا — فى نظرها — وأفعوانا فى نظر بقية القوم !



وإذ كان الأمر على هذه الشاكلة ، فقد رأت « ماما » — لانتزاعى من مخاطر شبابى — أن الوقت قد حان كى تعاملنى كرجل ، وهذا ما فعلته . . ولكن ، بأغرب طريقة فذة خطرت لامرأة فى ظروف مشابهة : فقد وجدتني أكثر جدية فى مسلكها ، وأكثر أدبا فى قولها ، مما عهدتها . . واستبدلت — للفور — بالمرح المألوف الذى اعتادت أن تمزجه بتعاليمها ، لهجة متحفظة على الدوام ، لم تكن مألوفة ولا قاسية ، ولكنها كانت تشبه التمهيد لشرح ما ! . . وبعد أن بحثت عبثا ، فى أطواء نفسى ، عن سبب لهذا التحول ، سألتها . . وكان هذا ما تنتظره ، فإذا بها تقترح أن نخرج للنزهة فى البستان الصغير فى اليوم التالى ، فذهبنا إليه منذ الصباح . وكانت قد اتخذت من الإجراءات ما يكفل بقاءنا وحيدين طوال النهار الذى استغلته فى إعدادى للنعم التى شاعت أن تغدقها على . . لا بالمغازلات والإغواء — كما تفعل أية امرأة أخرى — وإنما بأحاديث مفعمة بالعاطفة والحكمة ، قصدت بها إلى تعليمي أكثر مما قصدت إلى اغوائى ،

وكانت تنفذ إلى قلبى أكثر مما تنفذ إلى حسى ! ومع ما كانت عليه هذه الأحاديث من بهاء ونفع ، وبالرغم من أنها لم تكن سوى أحاديث فائرة حزينه ، إلا أننى لم أولها كل ما كانت تستحق من انتباه ، ولا نقشتها على ذاكرتى كما فعلت فى كافة الأوقات الأخرى . . بل ان استهلالها - ذلك المسك التمهيدى - بلبل فكرى ، فجعلنى أحلم وأشرد - بالرغم منى - وهى تتكلم . . وغدوت أقل اهتماما بها كانت تقوله ، منى بالبحث عما كانت تبغى الوصول إليه ! . . وما ان فهمت - وهو ما لم يكن بالسهل على - طرافة الفكرة التى لم تجل أبدا بخاطرى ، طيلة الوقت الذى عشته معها ، حتى تملكتنى الفكرة تماما ، فلم أعد قادرا على التفكير فيما كانت تقوله لى «ماما» . . لم أعد أفكر إلا فيها هى وحدها ، دون أن أنصت إليها !

إن الرغبة فى حمل الشباب على الإصغاء لما يراى قوله لهم ، باطلاعهم مقدما على غاية جد مشوقة لهم ، أسلوب معكوس ، وإن كان جد مألوف لدى المعلمين ، حتى لقد عجزت - أنا نفسى - عن تحاشيه فى كتابى « اميل » . فإن الشاب إذ يؤخذ بالغاية التى يوعد بها ، يشغل بها وحدها ، ويتخطى فى تسرع أحاديثك التمهيدية ، ليصل مسرعا منذ البداية إلى الغاية التى تسعى به إليها فى ببطء بالغ - حسبما يرى هو - أما إذا أربد الاستحواذ على انتباهه ، فيجب الا يمكن من أن ينفذ إلى الغاية مقدما ، وهذا ما أساءت «ماما» تقديره . فبطريقة فذة تتمشى مع عقلها المنسق المنتظم ، عمدت إلى احتياط لا طائل منه قط ، إذ فرضت شروطا . ولكنى لم أكد أتبين جزاء هذه الشروط ،

حتى انصرفت عن سماعها ؛ وبادرت إلى الموافقة على كل شيء .. بل إننى لأشك في وجود رجل في الدنيا يقوى — مهما تكن امانته وجلده — على المساومة في مثل هذه الحال ؛ وفي وجود امرأة واحدة تقبل أن تغفر له ذلك إذا فعله ! .. وكنتيجة لطريقتها الفريدة ، وضعت «ماما» في هذا الاتفاق أشد قيود أدبية ، ومنحتنى ثمانية أيام أفكر خلالها .. وهى مهلة أكدت لها — كذبا وزورا — أننى لم أكن بحاجة إليها .. فالواقع أنه مما زاد من غرابة الموضوع ، وبلغ بها ذروتها ، أننى كنت جد مغتبط بتقبل هذا المشروع ، بقدر ما أذهلتنى طرافنه ، وبقدر ما شعرت بانقلاب في أفكارى ، كان يتطلب منى وقتا لتنظيمها !

ولقد يخال أن هذه الأيام الثمانية بدت لى كثمانية قرون ، ولكن الأمر كان على النقيض ، فلقد تمنيت لو أنها امتدت فعلا إلى هذا الأجل ! .. ولست أدري كيف أصف حالى ، فقد كانت لونا من الجزع الممتزج بنفاد الصبر ، إذ كنت خلالها جزعا مما كنت أتوق إليه ، إلى درجة أننى فكرت جسديا — في بعض الأوقات — في وسيلة مهذبة لتفادى الهناء الموعود ! .. وتصور طباعى المتهورة النزقة ، ودمى الخائر ، وقلبى المنتشى بالحب ، وصحتى الموفورة ، وسنى ! .. وتذكر أننى في هذه الحال ، وفي ظمئى إلى النساء ، لم أكن قد مسست بعد واحدة منهن ! .. ومن هنا غلب الخيال ، والحاجة ، والغرور ، والفضول ، تجمعت كلها لتذكى في نفسى رغبة نهمة متأججة في أن أكون رجلا ، وفي أن أثبت أننى رجل ! .. يضاف إلى ذلك — وهذا أمر يجب ألا يغفل — أن تعلقى الحنون ، المحتدم ، بماما ، كان

بعيدا عن التضاؤل ، بل إنه راح يزداد انتقادا يوما بعد يوم ، حتى لم اعد أهنأ إلا بقربها ، وحتى أننى لم أكن أغرقها إلا لأفكر فيها ، وحتى أن قلبى كان مترعا ، لا بطيبيتها ولطفها فحسب ، وإنما بجنسها ، وشكلها ، وشخصها . . وبإيجاز : بها ، بجميع الاعتبارات التى كانت تجعلها عزيزة على ! . . ولا يخطرن بالبال أنها كانت قد اكتهلت ، أو بدت لى مكتلة لأننى كنت أصفرها بعشر أو اثنتى عشرة سنة ، فالواقع أنها لم تتعرض إلا لتغيير بسيط ، بل أنها — فى نظرى — لم تتغير البتة خلال السنوات الخمس أو الست التى كنت أغيب فيها فى نوبات من النشوة ، من سحر النظرة الأولى ! . . كانت تبدو لى فاتنة دائما ، وكان كل امرئ يعتبرها كذلك ، فى تلك الآونة . . كل ما هنالك أن قوامها وحده ازداد بدانة ، بعض الشيء . وفيما عدا ذلك ، فإنها احتفظت بنفس العين ، ونفس البشرة ، ونفس الصدر ، ونفس الملامح ، ونفس الشعر الأشقر الجميل ، ونفس المرح . . وبكل شيء ، حتى صوتها ، ذلك الصوت الشاب ذى الجرس الفضى ، الذى كان له دائما تأثير كبير على نفسى ، حتى أننى لا أستطيع — إلى اليوم — أن أسمع رنين صوت عذب لفتاة شابة ، دون أن أتأثر به !

ومن الطبيعى أن الأمر الذى كان لى أن أخشاه خلال انتظار الظفر بامرأة حبيبة كهذه ، هو التعجل وعدم المقدرة على ضبط شهواتى بدرجة كافية ، فأصبح خيالى مسبطرا على . . ولسوف ترى أن مجرد التفكير فى بعض الأمصال الطفيفة التى كانت ترتقبنى بالقرب من الحبيبة — فى سن متقدمة — كانت

تلهب دمى إلى الدرجة التى يستحيل على عندها أن اجتاز دون عناء الفارق القصير الذى كان يفصل بينى وبينها . فكيف كان يتسنى لى - وأنا فى عنفوان الشباب - أن أشعر بشوق قليل إلى المتعة الأولى ؟ .. وكيف قدر لى أن أرقب ساعة القرب ، بآلم أكثر منى بابتهاج ؟ .. كيف حدث أننى شعرت بنفور وخوف تقريبا ، بدلا من أن أشعر بالمباهج التى كانت خليقة بأن تسكرنى ؟ لا شك فى أننى لو كنت قد استطعت الفرار من هنائى - بطريقة مهذبة - لفعلت بكل قلبى .. ولقد وعدت بأن أروى عجائب فى تاريخ تعلقى بها ، وهذه - بلا شك - عجيبة لم تكن متوقعة إطلاقا !

ولا شك أن القارئ يرى - فى استنكار - أنها وقد استسلمت لرجل غريب ، قد حطت من قدرها فى نظرى وهى تشركنى مع هذا الرجل ، وأن الشعور بعدم التقدير لها خليك بأن يكون قد هدأ من سورة تلك المشاعر التى ألهمتنيها .. ولكن القارئ يخطئ فى هذا الظن، فإن هذا الإثراك كان قاسى الإيلام لى حقا .. وكان هذا راجعا إلى رقة مشاعرى بطبيعتها، بقدر ما كان ناشئا عن أننى وجدت الأمر غير لائق بها ولا بى فى - الواقع . وبوسعى أن أقسم بأننى لم أكن مشغوبا بحبها يوما قدر ما شغفت عند ما كنت قليل الرغبة فى الظفر بها ، فلقد كنت أعرف عن قلبها الطاهر ، ومزاجها الجليدى ما يعصمنى من أن أظن لحظة أن للذة الحسية دخلا فى هذا الإقدام منها على أن تمنحنى نفسها ! .. وإنما كنت مقتنعا - تمام الاقتناع - وإن مجرد الاهتمام بتجنيبى مخاطر لم يكن من سبيل سوى

ولقد كانت الفتنة الوثيقة ، ومعاشرتنا البريئة ، أبعد من أن توهن مشاعري نحو « ماما » ، بل إنها عززتها ، ولكنها — في الوقت ذاته — اتجهت بها اتجاهها جديدا ، فجعلتها أكثر وجدا ، وربما أكثر هياما ، ولكنها كذلك أقل شهوة . ويحكم مناداتى إياها بـ « ماما » ، ويحكم معاملتها بالغة الابن ، اعتدت أن اعتبر نفسي بمثابة ابنها ! وأعتقد أن هذا كان السبب الحقيقي في قلة تعاطي للظلم بها ، برغم أنها كانت جد حبيبة لدى . وإني لأذكر بجلاء أن أحاسيسي الأولى كانت أكثر شهوانية ، دون أن تكون نشيطة متحفزة . فكنت في (أنيس) نشوانا ، ولكني لم أعد كذلك في شامبيري . ومع أنني ظلت أحبها دائما بكل وجد ممكن ، إلا أنني ازددت حبا لها لذاتها ، كما غدوت أقل حبا لها



وبحكم مناداتي أياها بماما ، وبحكم معاملتها باللفة الابن ، اعتدت أن
أعتبر نفسي بمثابة ابنها !

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثانى ١٠٩

من أجل نفسى ، أو انفى لم أعد - على الأقل - أسعى إلى هنائى بقدر ما كنت أسعى إلى استمتاعى بقربها . كانت - بالنسبة لى - أكثر من أخت ، وأكثر من أم ، وأكثر من صديقة ، بل وأكثر من عشيقة ، ولهذا السبب بالذات ، لم تكن عشيقة ! .. وبإيجاز : كنت أحبها إلى درجة تجعلنى لا أشتهيها .. وهذا أوضح ما فى آرائى وأفكارى !

وحآن أخيراً اليوم الذى كان مرهوباً ، أكثر منه مرغوباً ! .. ووعدت بكل شيء ، فلم أنكث بوعودى . ولقد عزز قلبى عهودى دون أن يطمع فى جزاء . ومع ذلك فإينى ظفرت بالحزاء . ورايتنى للمرة الأولى فى أحضان امرأة ، وامرأة كنت أعبدها .. أفكنت سعيداً ؟ .. لا ! .. لقد تذوقت اللذة ، ولكن شعوراً بأسى طاغ سم سحرها ، فكنت وكأنى ارتكبت جريمة الزنا مع إحدى المحرمات .. ولقد بللت صدرها بدموعى مرتين أو ثلاثاً ، وأنا أضمرها بين ذراعى فى وجد .. أما هى ، فلم تكن حزينة ولا مرحة ، وإنما كانت حنوناً وساكنة . ولما كانت على قدر ضئيل من الحس الشهوانى ، ولم تكن تنشد اللذة الحسية قط ، فإنها لم تشعر بالمتعة ، ولا عانت الندم إطلاقاً !

وإنى لأكرر أن كل زلاتها تربت على أخطائها ، وليس عن شهواتها قط .. كانت طيبة المنبت ، وكان قلبها طاهراً ، وكانت تحب الأمور الشريفة ، كما كانت كل ميولها مستقيمة صالحة ، وذوقها رقيقاً .. ولقد نشأت على لطف الشمائل ، وهو ما كانت تحبه دائماً ، وإن لم تتبعه قط ، لأنها بدلا من أن تنصت إلى قلبها - الذى كان يرشدها إلى الصواب - كانت تصفى إلى

عقلها الذى كان يخطئ فى إرشادها ! .. وعندما كانت المبادئ الزائفة تضللها ، كانت المشاعر الصادقة تكذب هذه المبادئ دائما . ولكن ماها كانت — لسوء الحظ — تخدع نفسها بالفلسفة ، وقد أدت المبادئ الخلقية التى استمدتها منها ، إلى إفساد المبادئ التى كان قلبها يميلها عليها !

وكان السيد «دى تافيل» — عشيقها الأول — هو استاذها فى الفلسفة ، وكانت المبادئ التى لقنها إياها هى تلك التى وجدها ضرورية لاغوائها! فلقد وجدها وفية لزوجها ولواجباتها، فائرة دائما ، مفكرة ، منيعة على الأحاسيس الشهوانية ، فعمد إلى مهاجمتها بالسفسطة والمغالطات . وانتهى إلى إقناعها بأن واجباتها — التى كانت متشعبة بها — لغو من تعاليم الدين التى وضعت خصيصا لتسلية الأطفال ، وأن الاتصال الجنىسى — فى حد ذاته — هو أقل التصرفات أهمية ، وأن الوفاء الزوجى محض التزام ظاهرى ، كل قيمته الخلقية مجرد رأى ! .. وأن راحة الأزواج هى الأصل الوحيد لواجبات النساء، ومن ثم فإن الخيانات المجهولة — التى لا يكون لها أثر لذى من ترتكب ضدهم، لأنهم لا يدرون بها — لا أثر لها على الضمير كذلك ! .. ومجمل القول أنه أقنعها بأن الأمر لا قيمة له فى حد ذاته ، وأنه لا يكون ذا شأن إلا إذا افتضح ، وأن كل امرأة تبدو فاضلة إنما تدين بمظهرها الفاضل لهذا السبب وحده . وهكذا وصل الوغد إلى غايته ، فأفسد عقل طفلة ، ولكنه لم يقو على إفساد قلبها ! .. ولقد عوقب على ذلك بأعنى ألوان الغيرة ، إذ اعتقد أنها كانت تعامله كما عليها أن تعامل زوجها ! ولست أدري ما إذا كان

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثانى ١١١.

على خطأ فى ذلك ، فإن الراهب « بيرييه » خلفه فى علاقته بها .
إنها الذى أدريه ، هو أن الطبع البارد الذى أوتيت. هذه المرأة ،
والذى كان خليقا بأن يعصمها من هذا المسلك ، كان هو عين
ما منعها — بعد ذلك — من أن تنبذه ! .. فما قدر لها أن تدرك
أن الناس تخلع أهمية على الشيء الذى لا قيمة له لديها ،
وما وجدت قط — باسم الفضيلة — زهدا لا يكبدها سوى جهد
بسيط !

على أنها لم تسيء قط استغلال هذه المبادئ الزائفة من
أجل نفسها ، وإنما استغلتها من أجل الغير ، وكان ذلك من جراء
نظرية تعادل تلك المبادئ زيفا ، وأن تمشت مع ما فطر عليه
قلب السيدة من طيبة . فلقد كانت تعتقد دائما أن لا شيء
يربط أى رجل بامرأة سوى ظفره بآربه منها . ومع أنها لم تكن
تحب أصدقاءها إلا بدافع من المودة ، فإن مودتها كانت من
اللطف والرقه بحيث أنها كانت تستخدم كل وسيلة ممكنة
لتوثق ارتباط هؤلاء الأصدقاء بها .. والغريب فى الأمر أنها
كانت توفق فى بلوغ غايتها باستمرار تقريبا . فقد كانت حبيبة
حقا ، حتى أن المرء كلما عظمت الألفة التى يعيش عليها معها ،
ازداد اكتشافا لأسباب جديدة تدفعه إلى حبها . وهناك أمر
آخر جدير بالملاحظة ، هو أنها بعد ضعفها الأول ، لم تكن تخلع
أفضالها الناعمة قط إلا على البائسين . وكان اللامعون يفقدون
— سدى — العناية الذى يتكبدونه للوصول إليها ، ولكن .. إذا
ما بدأت تشعر بالإسفاق يوما على رجل ، فلا بد من أن يكون
هذا الرجل قليل الجدارة بالحب ، إذا هى لم تنته إلى أن

تحبه ! .. وكانت إذا أقدمت على اختيار أشخاص يليقون بها ، لا تصدر في اختيارها عن الميل الخسيسة التي لم تكن قط تقارب غواها النبيل ، بل إنها لم تكن تصدر إلا عن خلقها المفرط الكرم ، المفرط الرحمة ، المفرط الحسان ، المفرط الحساسية .. هذا الخلق الذي لم تكن تحكمه دائما بحكمة وبصيرة كافيتين !

وإذا كانت بعض المبادئ الزائفة قد غررت بها ، فكم من مبادئ رائعة اعتنقتها ، فلم تتخل عنها قط ! .. وبكم من الفضائل كثرت عن نواحي ضعفها ، إذا جاز للمرء أن يطلق هذا الاسم على أخطاء لم يكن للإدراك فيها نصيب يذكر ! .. بل إن هذا الرجل الذي غشها في ناحية ، أحسن تعليمها في ألف ناحية أخرى . ثم إن عواطفها — التي لم تكن متأججة مندفعة — كانت تتيج لها أن تتبع دائما أضواء العقل ، فكانت تسلك جادة الصواب عندما لا تضللها السفسطة .. كانت دوافعها حميدة ، حتى في أغلاطها ، وكانت آراؤها الزائفة كفيلة بأن تدفعها إلى الزلل ، ولكنها لم تكن تتوى على الزلل عن رغبة وطواعية .. كانت تكره الرياء والكذب ، وكانت منصفة ، عادلة ، شفوقة ، منكرة لذاتها ، ونية لوعدها ولاصدقائها ولواجباتها — التي كانت تعترف بأنها واجبات — عاجزة عن الانتقام والبغضاء ، دون أن تكون لديها أقل فكرة عن أن في الصفح أية ميزة أو فضيلة ! .. وأخيرا ، لو أننا عدنا إلى تلك الخصال التي لم يكن لها فيها عذر يذكر ، نجد أنها لم تكن تدرك كيف تقدر قيمة الأفضال الناعمة التي كانت تخلعها على من يقع عليه اختيارها ،

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثانى

١٩٤

هذا الاتحاد عذبا . ولقد كانت على حق إذ داخلها الأمل في أن يكون صانعها ذا نفع لى ، فمقد أدت منه في تعلمى فوائد كثيرة : فلقد كانت « ماها » — حتى ذلك الوقت — تتحدث إلى كما أن كنت طفلا ، ولكنها بدأت تعاملنى كرجل ، فحدثتنى عن نفسها . وكان كل ما قالت لى مشوقا ومثيرا لاهتمامى ، فتأثرت به إلى درجة أننى كنت — إذا ما استعدت لى نفسى — أخرج من اعترافاتها بفوائد تفوق كل ما خرجت به من دروسها . ونحن عندما نشعر أن محدثنا إنما يتحدث من مؤاده ، تفتتح قلوبنا لتلقى اعترافاته . . ولن يقدر لكل ما لدى أى مدرس من علم ، أن يصل إلى مرتبة الثروة العاطفية الناعمة التى تفيض من امرأة ذكية ظفرت بولاء المرء وتعلقه !

ولقد هيات لها ظروف الألفة الوثيقة التى عشت فيها معها، فرصة تكوين رأى عنى ينطوى على مزيد من التقدير عن ذى قبل . . كانت ترى أننى — على الرغم من خجلى وتعاسى — أهل لأن أدرب على الحياة ، وأننى لو ظهرت يوما فى مستوى معين ، لتسنى أن أصبح فى مركز يمكننى من أن أشق طريقى . وبهذه الفكرة ، كرست نفسها لا لتشكيل وعى فحسب، وإنما لصوغ مظهرى ومسلكى كذلك ، حتى تجعلنى جديرا بالحب وبالتقدير معا . وإذا صح أن النجاح فى الدنيا يقترن بالفضيلة — وهو ما لا أؤمن به من ناحيتى — فإننى مقتنع ، على الأقل ، بأنه لم تكن ثمة وسيلة تؤدي إلى مثل هذه الغاية سوى تلك التى اتخذتها « ماها » ورغبت فى أن تلقننى إياها ! . . فلقد كانت مدام دى فاران تفهم الجنس البشرى ، وتفهم — إلى درجة

عالية — فن التعامل مع الناس دون خداع أو تهور ، ودون غش أو إساءة ، ولكنها كانت تلقن هذا الفن بشخصيتها أكثر منها بدروسها ، وكانت أكثر معرفة بممارسته منها بشرحه ، وكنت أنا — دون رجال العالم طرا — أقلهم قابلية لأن أتعلمه ! . ومن ثم فقد كانت محاولاتها — فى هذا الاتجاه — جهودا مضیعة ، وكذلك كان حال كل ما تجشمته لتزودنى بأساتذة للمبارزة والرقص . ومع أننى كنت لدن العود ، حسن القوام ، إلا أننى لم أتعلم قط كيف أرقص ، ولو لدقيقة واحدة ، فلقد اعتدت — بفضل البثور (الكالو) — أن أسير على كعبى قدمى ، وهى عادة لم يستطع «روش» أن يشفىنى منها . وبالرغم من خفة مظهرى ، فإننى لم أكن قادرا يوما على أن أقفز عبر حفرة عادية . وكانت حالى أنكى فى مدرسة المبارزة . فقد ظلت — بعد ثلاثة أشهر من الدراسة — مضطرا إلى أن اقتصر على الصد والمراوغة ، بعيدا عن أن أقوى على الهجوم . . كما أننى لم أوت قط رسفا لينة أو ذراعا ثابتة ، بحيث تحتفظ بالشيش كلما حلا للأستاذ أن يطوح بها . أضف إلى ذلك أننى أوتيت نفورا قاتلا من هذه الرياضة ، ومن المدرس الذى كان يحاول أن يعلمنيها . فما آمنت قط بأن من المستساغ الفخر بفن قتل أى إنسان ! . ولكى يدخل المدرس علمه الواسع فى ذهنى ، اعتاد ألا يشرحه إلا بمقارنات مقتبسة عن الموسيقى ، التى لم يكن يلم بشئ منها ، فوجد أوجها لتشابهه عجيب بين أبعاد الثلث والربع (١) ، وبين

(١) من مصطلحات أبعاد الخطوات فى المبارزة .

المسافات الموسيقية التى تحمل الاسم ذاته . وكان إذا أراد ان يقوم بحركة خادعة ، دعانى إلى أن انقبه إلى DIESE (١) ، لأن النفحات الحادة كانت تسمى قديما FIENTES (٢) . . وإذا أراد أن يطوح بشيئى من يدى ، قال ضاحكا إن هذه « وقفة » . . وقصارى القول ، اننى لم أر فى حياتى متعالما (٣) لا يطاق ، أكثر من هذا المسكين ، بريشته وصدارته الجلدية . .

ومن ثم فإن تقدمى فى تدريباتى كان بسيطا ، حتى اننى لم ألبث أن هجرتها لمجرد كراهيتى لها ، ولكنى أحرزت تفوقا فى فن أكثر نفعا ، هو : القناعة بحظى ، وعدم الطمع فى نصيب أشد بريقا ، كنت قد بدأت أشعر اننى لم أخلق له ! . . وإذا كنت منصرفا بكل نفسى إلى الرغبة فى إتاحة حياة سعيدة لهما ، فإتنى كنت أحس دائما بيزيد من الغبطة فى قربها . . ولما كانت دروسى الموسيقية كثيرا ما تضطرنى إلى البعد عنها لأهرع إلى المدينة ، فإتنى بدأت — برغم شغفى بالموسيقى — أشعر بضيق من هذه الدروس !

ولست أدري ما إذا كان « كلود آنيه » قد لاحظ توثق علاقتنا ، وعندى ما يحملنى على الاعتقاد بأن هذا لم يخف عليه ، لقد كان فتى شديد الذكاء ، ولكنه كان شديد التكم ، لا يتحدث

(١) علامة من علامات الموسيقى توضع العلاقة التى تليها بنفس مقام .

(٢) المعنى اللغوى يخدع أو يغرر . . وفى الموسيقى نغم حاد . .

(٣) المتعالم هو الذى يدمى العلم

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى . ١١٧

قطبها يناقض تفكيره ، بيد أنه لم يكن يبوح بهذا التفكير دائما . ومع أنه لم يبد أتفه بادرة عن علمه بالأمر ، إلا أنه أظهر هذا العلم ، بمسلكه . . وما كان هذا المسلك صادرا عن خسة نفس ، وإنما عن اعتناق لمبادئ سيده ، مما لم يكن يملك معه أن يستهجن تصرفها وفقا لهذه المبادئ . ومع أنه كان أصغر منها سنا ، إلا أنه كان من النضوج والوقار ، بحيث أنه نظر إلينا كما لو كنا طفلين جديرين بالإشفاق والتسامح ، بينما رحنا ننظر إليه كرجل محترم ، نكن له تقديرا ومراعاة . . وما أدركت مدى العلاقة التى كانت بينه وبينه ، إلا بعد أن خانتبه . ولما كانت تعلم أننى لم أكن أفكر إلا بفكرها ، ولا أشعر إلا بشعورها ، ولا أتنفس إلا عن طريقها ، فقد أطلعتنى على مدى حبها له ، حتى أكن له نفس المحبة ، وكانت أقل إسهابا فى بيان ودها ، منها فى بيان تقديرها له ، فقد كان هذا هو الشعور الذى أستطيع إن أشاركها إياه كل المشاركة . وكمن مرة هفت بقلبيبا — أنا وهو — وجعلتنا نعانق باكيين ، إذ راحت تقول لنا إننا لازمان معا لإسعاد حياتها ! . . ألا ليت اللاتى يقرآن هذا لا يبتسمن فى خبث ! . . فإن طباع السيدة كانت تجعل هذه الضرورة أمرا لا مرية فيه . . كانت ضرورة نابعة عن فؤادها محسب !

وهكذا قامت بين « ثلاثتنا » زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض ! . . كانت جميع أمانينا ، وميولنا ، وقلوبنا مشتركة ، وما كان أى منها يتجاوز نطاق هذه الحلقة الصغيرة . . وأصبح اعتياد العيش معا ، والحياة فى معزل عن الدنيا ، من القوة

بحيث أن كل شيء كان ينقلب فى أنظارنا إذا غاب واحد من ثلاثتنا عن المائدة ، أو شاركنا الوجبات رابع ! .. وبالرغم من الروابط الخاصة التى كانت بيننا ، فإن الخلوات بين أى اثنين منا لم تكن فى حلاوة اجتماع ثلاثتنا .. وكان الذى حال دون أى توتر بيننا هو الثقة البالغة المتبادلة ، والذى عصمنا من الملل هو أننا كنا جد مشغولين ، إذ كانت « ماما » لا تنفك بتبكر المشروعات ولا تكف عن العمل ، ولا تسمح لأى منا بأن يركن إلى الخمول .. كما كان لدى كل منا من العمل الخاص ما يكفى للملء أوقاننا . وفى رأى أن البطالة ليست أقل من الوحدة إفسادا للجماعة ! .. وليس أدعى لتضييق الأفق ، ولا أكثر مدعاة للتفاهة ، واللغو ، والأحقاد ، والمنغصات ، والأكاذيب ، من أن تمكث جماعة — إلى الأبد — بين جدران غرفة واحدة، متقابلين، وليس لديهم من عمل سوى الثثرة باستمرار ! .. فإنه إذا كان لدى كل امرئ ما يشغله ، فهو لن يتكلم إلا إذا كان لديه شيء يقال . أما إذا لم يكن لديه عمل ، فإنه لا يجد أمامه سوى الكلام بلا انقطاع ، وهذا أدعى الأمور للضجر وأخطرها ! .. بل إنى لأجرؤ على أن أذهب إلى أبعد من هذا ، فأقول إنه لابد — لجعل أية صحبة ملائمة حقا — من أن يقوم كل امرئ لا بعمل أى كان، فحسب ، وإنما بعمل يتطلب قدرا من الاهتمام . فالحياكة مثلا ليست عملا ، ومن ثم فإن مهمة تسليية امرأة تقوم بالحياكة، تتطلب عناء يعادل ما تتطلبه تسليية امرأة تجلس مكتوفة اليدين . أما حين تطرز ، فإن الأمر يختلف ، إذ أن التطريز يشغلها بدرجة تكفى للملء فترات الصمت . والمزيج ، المضحك ، هو أن ترى فى

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى ١١٩

مكان ما مثلا اثنى عشر أخرج ثقيل الدم ، يقومون ، ويجلسون . ويغدون ، ويروحون ، ويدورون على أعقابهم ، ويحركون التحف — التى على رف المدفأة — مائتى مرة ، ويعتصرون أمخاخهم ليقفوا على تيار الكلمات دافقا لا ينضب .. ما ابدعها من مهمة ! .. مثل هؤلاء — أيا كانوا — يصبح بعضهم عبثا على بعض ، وعلى أنفسهم ! ولقد اعتدت — حين كنت فى (موتير) — أن اذهب لصنع الاشرطة المجدولة فى دور الجيران .. ولو أننى عدت إلى ذلك المجتمع ، لحملت فى جيبى دائما «البيلوكة» (١)، وللعبت بها طوال النهار ، لأشغل بها عن الكلام عندما لا يكون لدى ما يقال . ولو أن كل امرئ فعل ذلك ، لأصبح الناس أقبل شرا ، ولأصبحت مجتمعاتهم أسلم ، وأحب ، على ما اعتقد! وقصارى القول ، أن دع الماجنين يضحكون ، ولكنى أرى أن المذهب الخلقى الوحيد الذى فى متناول القرن الحاضر ، هو مذهب « البيلوكيه » !

والى جانب هذا ، لم يكن لدينا وقت كاف للتحوط ضد السأم عندما نكون معا ، فإن الزائرين المزعجين كانوا يسببون لنا من السأم ما يجعلنا لا نشعر بشيء منه إذا ما خلا بعضنا إلى بعض ! .. ولم يكن الضيق — الذى اعتادوا أن يوحوا إلى

(١) البيلوكة : لعبة تتألف من كرة مثقوبة ، تتمثل بخيط دقيق بعضا .

صغيرة مدببة فى أحد طرفيها ، ومجوفة فى الآخر .. ويمسك المرء بالطرف المدبب ، ويطوح الكرة فى الهواء محاولا ادخالها فى الطرف المجوف . وتعد شاع أخيرا نوع منها يتألف من كرة وكوب صغيرة من البلاستيك .

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثاني

١٢٠

به من قبل — قد تضاعف . وكل ما كان هنالك من اختلاف ، هو أنني لم أعد أجد وقتا كافيا لأن أسلم نفسي إليه ! .. ولم تكن « ماما » المسكينة قد فقدت شيئا من شغفها القديم بالمشروعات والخطط ، بل إن الأمر كان على النقيض ، فبازدياد إلحاح حاجاتها المعيشية ، أخذت تزداد إغراقا في المشروعات لسد هذه الحاجات .. وبقدر ما قلت مواردها الراهنة ، ازدادت تدبرا لها في أوامها بشأن المستقبل . ولم يزد مرور السنين إلا إغراقا في هذا التهور ، وبقدر ما كانت تفقد من ميل إلى ملاذ الدنيا والشباب ، أخذت تعوضه بميل إلى الأسرار والخطط . فلم يكن البيت ليخلو قط من المشعوذين ، والصناع ، والكيميائيين ، والمغامرين على اختلاف أنواعهم ، الذين كانوا يبعثرون الثروات بالملايين ، وينتهون إلى أن يصبحوا بحاجة إلى دينار ! .. ولم يكن أى واحد منهم ليخرج من لدنها صفر اليدين ، وقد كان من بواعث ذهولى أنها كانت قادرة — لوقت طويل — على مثل هذا الإسراف دون أن ترهق مواردها ، أو تستنفد صبر دائئها !

كان المشروع الذى شغلها أكثر من أى شئ آخر ، فى الوقت الذى أحدث منه ، والذى لم يكن أبعد المشروعات التى صاغتها عن المعقول ، هو إنشاء حديقة ملكية للنباتات فى (شامبيرى) ، يعين لها مدير ! وفى وسع المرء أن يفهم مقدما من الذى كان موعودا بهذا المنصب . فإن موقع هذه المدينة وسط جبال (الألب) كان جد مناسب للتجارب النباتية ، ولما كانت « ماما » تحاول دائما أن تساعد كل مشروع بآخر ، فإنها قرنت

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثانى ١٢١

هذا المشروع بمشروع كلية للصيدلة ، الأمر الذى بدأ جد مفيد — حقا — لمنطقة فقيرة فى هذا الباب إلى درجة أن الصيادلة كانوا الأطباء الوحيديين فيها تقريبا ! . . وكانت إقامة الطبيب الأول «جروسى» فى (شامبيرى) ، بعد موت الملك فيكتور ، تبدو لها ملائمة جدا للفكرة ، أو لعلها هى التى أوحى بها . ومهما يكن الأمر ، فأنها أقبلت على تملق «جروسى» المذكور ، الذى لم يكن بالشخص السهل المراس ، بل كان أكثر من عرفت فى حياتى سخرية وقسوة ، وسيحكم القارئ على ذلك من حادثين أو ثلاثة أذكرها كنماذج !

فلقد كان «جروسى» يتشاور يوما مع أطباء آخرين ، استدعى أحدهم من (أنيسى) ليعالج مريضا . وجرؤ هذا الأخير — الذى لم يكن قد استكمل لباقتة كطبيب — على أن يعارض رأى السيد « الطبيب الأول ، جروسى » ، فكان رد هذا الأخير عليه ، أن سألته عن موعد عودته من حيث أتى ، وعن الطريق التى اعتزم أن يسلكها ، والمركبة التى سوف يستقلها ! وإذا أجاب الآخر عن كل هذه الأسئلة ، سأل « مستجوبه » بدوره عما إذا كان يستطيع أن يؤدى له أية خدمة ، فقال جروسى : « لا ، لا خدمة هناك . . وإنما أريد أن أقف فى نافذة على طريقك ، لاستمتع برؤية حمار يركب جوادا » !

وكان «جروسى» بخيلا بقدر ما كان غنيا وصعب المراس . ولقد أراده أحد أصدقائه يوما على أن يقرضه نقودا ، بضمانات طبية ، فقال له وهو يمسك بذراعه ، وقد كثر عن

أنياه : « يا صديقى .. إذا هبط القديس بطرس من السماء ليقترض منى عشر « بيستولات » (١) ، وقدم لى المهد المقدس ضمنا ، لما أقرضته ! .. وفى ذات يوم ، دعى للغداء لدى السيد الكونت بىكون ، حاكم (سافوا) - الذى كان شديدا التدين - فوصل قبل الموعد ، وكان صاحب السعادة منصرفا إلى تسبيحاته ، فعرض عليه أن يتسلى بالتسبيح . وإذا لم يدر الطبيب بماذا يجيب ، ابتسم ابتسامة رهيبة ، وركع ، ولكنه لم يكذب يطلو اثنتين من التسبيحات الملائكية ، حتى عجز عن الاحتمال ، فنهض على حين غرة ، وتناول عصاه ، وانصرف بدون أن ينبس ببنت شفة ! فهرع الكونت بىكون خلفه ، وهو يصيح به : « يا سيد جروسى ! يا سيد جروسى ! امكث ، فإن على السفود حجلا بديعا » (٢) . فالتفت إليه الآخر مجيبا : « يا سيدى الكونت ، لو أنك وهبتنى ملاكا مشويا لما بقيت ! » .. هذا هو السيد الطبيب الأول جروسى ، الذى تولته « ماما » وانتهت إلى ترويضه . ومع أنه كان جم المشاغل إلى اقصى حد ، فقد اعتاد أن يتردد كثيرا جدا على دارها ، وقد اصطفى « آنيه » فأثره بوده ، مبديا تقديره لعلمه ، متحدثا عنه باحترام . والأمر الذى ما كان ليتوقعه أحد من دب شرس كهذا ، إنه راح يعامل الوصيف باعتبار كبير ، ليمحو آثار الماضي !

(١) عملة ذهبية قديمة ، كانت تيمدها تتغير بتغير العصر والسد الذى

يصكها .

(٢) السفود : المشواة . والحجل : نوع من الطيور .

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثانى ١٢٣.

ذلك لأنه وإن كان « آتية » لم يعد فى مرتبة الخدم ، إلا أنه كان من المعروف أنه كان من قبل خادما ، ولم يكن يعوزة شيء قدر مسلك الطبيب الأول ، واحترامه ، كيما يعامله الناس بأسلوب ما كانوا ليأخذوه قط عن شخص آخر سوى جروسى ! . . وكان « كلود آتية » بيزته السوداء ، وشعره المستعار الجيد التنسيق ، ومظهره الجاد الوقور ، ومسلكه الرصين الحذر ، والملمه الواسع بعلم النبات والطب ، وتأييد رئيس الكلية له ، خليقا بأن يجعله يأمل — بحق — فى أن يشغل منصب مدير حديقة النباتات الملكية ، لو قدر للمشروع أن يتحقق ! والواقع أن جروسى حبذ المشروع ، واحتضنه ، ولم يعد ينتظر لعرضه على البلاط الملكى ، سوى اللحظة التى يسبح فيها استقرار السلم بالتفكير فى الأشياء المفيدة ، وتوفير بعض المال من أجلها .

ولكن هذا المشروع — الذى كان من المحتمل أن يصرفنى تحقيقه إلى التفرغ لعلم النبات ، إذ كان يخيل إلى اننى خلقت له — أخفق بسبب حادث من هذه الحوادث التى تقلب خير الخطط المتناسقة . وكان مقدرا على أن أصبح تدريجا مثالا للإنسان البائس . ومن الممكن القول إن العناية الالهية — التى كانت تبطلينى بتلك الاختبارات الضخمة — كانت تزيج بيدها كل ما كان يمنعنى من خوض تلك المحن . ففى إحدى الجولات التى كان « آتية » يقوم بها إلى أعالي الجبال للبحث عن « الجنبية » — وهى نبات نادر لم يكن ينمو إلا على جبال الالب ، وكان السيد جروسى بحاجة إليه — تعرض الفتى المسكين لحرارة

١٢٤. اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى

ادت إلى إصابته بنوبة من داء الجنب (التهاب غشاء «البلورا») ، لم تقو « الجنبة » على إنقاذه منها ، برغم ما كان يقال من أنها علاج لهذا الداء بالذات . وبالرغم من كل مهارة جروسى ، الذى كان نطاسيا حاذقا حقا ، وبالرغم من العناية التى لا حد لها والتى بذلناها - سيدته الطيبة وأنا - له ، فإنه مات بين أيدينا ، فى اليوم الخامس ، بعد أن عانى آلاما مظيعة فى النزع الأخير ، لم يجد خلالها سلوى سوى دعواتى التى رحت أبذلها فى أسى وحماس بالغين ، والتى كانت خليفة بأن تسرى عنه لو أنه فهمها ! .. وهكذا فقدت أوفى صديق حظيت به فى حياتى .. رجلا جديرا بالتقدير ، نادرا ، تولت الطبيعة تربيته وتعليمه ، وكان - وهو فى منصبه كخادم - يغذى قلبه بكل فضائل العظماء ، ولعله لم يكن بحاجة - لكى يظهر الدنيا بأسرها على أنه من هؤلاء - إلا لعمر أطول ، ومركز أفضل !

وفى اليوم التالى ، كنت اتحدث عنه إلى « ماما » بأشد وأصدق الأسى ، عندما خطرت لى فجأة - وسط الكلام - أدنا وأخبت فكرة : تلك هى أننى خليق بأن أرث ثيابه ، ولا سيما بزة سوداء أنيقة كانت تستهوينى ! .. فكرت فى هذا ، فإذا بى أقصح عنه ، إذ أن التفكير والقول كانا مترادفين عندى حين أكون بالقرب من « ماما » . ولم يجعلها شىء أكثر شعورا بالخسارة التى منيت بها ، قدر هذه الكلمة المتهورة البغيضة ، فقد كان إنكار الذات وقيل النفس خصلتين امتاز بهما الراحل . وأشاحت عنى المرأة المسكينة - دون أن تجيب بكلمة - وانخرطت فى البكاء .. وما كان أعز دموعها وأغلاها ! لقد



واشاحت عنى المرأة المسكينة - دون أن تجيب بكلمة - وانخرطت فى البكاء

افصححت هذه الدموع عن معانيها ، وانسابت إلى فؤادي ، فغسلت عنه آخر آثار الأحاسيس الخسيسة ، غير الكريمة .. فلم تدخله هذه الأحاسيس بعد ذلك !

ولقد أضرت هذه الخسارة بهما ، بقدر ما أحزنتها ، فلم تكف شئونها عن الانتهاء منذ تلك اللحظة ، إذ كان « آنيه » فتى دقيقا ، منظما ، عنى بتنظيم دار سيدته . وكانت يقظته مهابة من الخدم ، فإذا الإسراف يتضااعل .. حتى « ماما » نفسها كانت تخشى لومه ، وتحد من نفقاتها . ولم تكن تكتفى بحبه ، بل كانت ترغب في الاحتفاظ بتقديره ، وكانت تخشى اللوم العادل الذي كان يجرؤ أحيانا على إيدائه ، إذ كانت تسخو بمال غيرها لا بمالها فحسب ! .. ولقد كنت أرى رأيه في هذا ، بل وأعربت عنه فعلا ، ولكنى لم أوت ما كان له من نفوذ عليها ، فلم يكن لأقوالى ما كان لأقواله من تأثير لديها . ولما لم يعد له وجود ، اضطرت إلى أن أتخذ مكانه ، وهو ما كنت قليل المقدرة عليه والميل إليه ، فلم احسن ملء المركز ، إذ أننى كنت قليل العناية ، شديد الخجل ، فتركت كل شيء يسير على هواه ، وأنا أنحو على نفسى باللائمة ، وبجانب هذا ، فإننى لم أحظ بسلطانه ، وإن حظيت بنفس الثقة التى كان ينعم بها . وكنت أرى الفوضى فأتحسر عليها ، وأشكو منها ، ولكن أحدا لم يكن يصغى إلى . فقد كنت أصغر سنا وأكثر مرحا من أن أبدو عاقلا حكيما . وعندما كنت أسعى للتدخل والرقابة ، كانت « ماما » تقابلنى بصفحات بسيطة مدللة ، وتدعونى برشدها الصغير ، وتضطررنى إلى أن أعود للدور الذى كان يلائمنى !

وكان الاقتناع العميق بالضائقة التى كان إسرائها المطلق
 كفيلا بأن يغرقها فيها — ان عاجلا أو آجلا — قد ترك أثرا فى
 نفسى .. وقد اشتد هذا الأثر كثيرا حين أصبحت — كمشرف
 على شئون الدار — قادرا على أن أتبين بنفسى الفارق بين
 دخلها ونفقاتها ، فقد كانت كفة الأخيرة أرجح ! — وإلى هذه
 الفترة أرجع تاريخ الميل الذى استشعرته منذ ذلك الحين إلى
 التقدير — وأنا لم أكن قط مسرفا فى نزع ، إلا فى نوبات عابرة ،
 ولكنى حتى ذلك الحين لم أكن قد حملت هم ما إذا كانت ثمة
 نقود كثيرة أو قليلة .. فبدأت أهتم بهذا ، وأعنى بكيس
 نقودى .. وهكذا تحولت إلى البخل ، نتيجة باعث رائع جدا ،
 ذلك ان همى الأوحى انحصر — فى الحقيقة — فى : كيف اقتصد
 لما شينا يقيها محنة الانهيار الذى كنت أراه مقبلا ! ؟ وكنت
 أخشى أن يحجز دائنوها على معاشها ، أو أن ينقطع هذا
 المعاش نهائيا ، فخيل إلى — لضيق عقلى — أن مدخراتى
 الضئيلة ستكون ، إذ ذاك ، عظيمة النفع لها ! على أنه لادخار
 شيء ما ، ولحفظه — قبل كل شيء — كان لا بد من مكان لاختفائه
 فيه عنها ، إذ لم يكن من المجدى لهذه الخطة أن تعرف « ماما »
 شيئا عن وجود مدخراتى القليلة ، عندما تكون فى أشد الحاجة
 إلى المال ! .. ومن ثم رحلت أبحث عن عدة مخابىء أودعتها
 بضع قطع من فئة « اللوى » ، معترضا أن أضاعف الرصيد بين
 وقت وآخر ، إلى أن تحين اللحظة التى كنت اعتزم أن أطرحه
 فيها عند قدميها ! ولكنى كنت من الارتباك فى اختيار مخابئى
 بحيث أن « ماما » كانت دائما تعثر عليها ، وإذ ذاك ، كانت

تشعرنى بذلك ، بأن تأخذ النقود التى أودعتها ، وتضع بدلا منها مبلغا اكبر ، من عملات أخرى مخالفة ! . . وكنت أشعر من ذلك بخجل بالغ ، فأضع كنزى الصغير فى صندوق النفقات العامة ، (فإنها لم تكن تغفل قط عن أن تنفقه على ثياب أو أشياء أخرى لى ، كسيف ذى مقبض فضى ، أو ساعة ، أو أى شىء من هذا القبيل) !

وإذ إيقنت من أننى لن أفلح فى الادخار ، وأن ما أدخره لن يكون - بعد ذلك - ذا نفع يذكر لها ، شعرت أخيرا بأنه لم يعد ثمة ما يعمل إزاء النكبة التى كنت أخشاها ، اللهم إلا أن أحصل على منصب يمكننى من أن أعولها بنفسى ، بمجرد أن تكف عن إهدادى بالمال ، وبمجرد أن تجد نفسها فى فاقة ! . . ووضعت خططى على أساس ميولى الخاصة - لسوء الحظ - فأصررت فى غباء على أن أنشد نجاحا فى الموسيقى ، إذ أحسست بأنغام والحن تتصاعد فى رأسى ، فظننت أننى مستطيع - بمجرد أن أصبح فى مركز يمكننى من استغلالها - أن أغدو شهيرا ، وأن أصبح « أورفيه » (١)؛ حديثا ، لا تخفق أنغامه فى اجتذاب

(١) « أورفيه » هو « أورفيوس » ، الشمامسة والموسيقى الإغريقى الذى ورد ذكره فى الأساطير على أنه ابن « أبوللو » ، ويعزى إليه أنه أيقظ الربة « هاديس » من الموت بموسيقاه العذبة وأغانيه الساحرة . وقد استجابت له الآلهة على شريطة أن يسير أياهم « هاديس » دون أن يلفت خلفه لينظر إليها ، ولكنه لم يستطع أن يحافظ على وعده ، فعادت إلى موتها . وقد نسبت إليه عقيدة دينية تصوفية ، من أهم معالمها الإيمان بحياة جديدة بعد الموت .

١٢٩ اعترافات جان چانه روسو - الجزء الثانى

فضة (بىرو) (١) بأسرها ! .. ولما كنت قد بدأت إذ ذاك اقرا « النوتة » باتقان كبير فإن المسألة أصبحت ممثلة فى : كيف أستطيع أن أتعلم التلحين ؟ .. وكانت الصعوبة هى أن اعثر على من يعلمنى ، لأننى لم أكن آمل أن أتمكن من أن أعلم نفسى بمساعدة كتاب « رامو » - الذى كنت اعز به - فحسب .. ولم يكن فى (سافوا) - منذ رحيل لوميتز - امرؤ على دراية بأى شىء عن تناسق النغم !

وهنا يترأى مظهر آخر من مظاهر التناقض التى تحفل بها حياتى ، والتى كثيرا ما انفضت بى إلى أن أحييد عن غايتى ، حتى وأنا اظن اننى أسير إليها صادقا : فإن « فينتور » كان قد تحدث إلى كثيرا عن الراهب « بلانشار » ، أستاذه فى التلحين .. وكان رجلا قديرا ، عظيم الموهبة ، كان إذ ذاك أستاذا للموسيقى فى كاتدرائية (بيزانسون) ، وهو يشغل اليوم عين المنصب فى كنيسة (فرساي) . وقلت لنفسى إننى خلى بالذهاب إلى (بيزانسون) لأتلقى دراسة على الأب بلانشار ، وقد بدت لى هذه الفكرة معقولة ، حتى اننى سعيت إلى أن أحمل « ماما » على أن تراها كذلك . فإذا بها تعمل على إعداد متاعى البسيط ، وقد فعلت ذلك بالإسراف الذى كانت تلجأ إليه فى كل شىء . وهكذا .. بينما كنت أهدف دائما إلى تنادى إفلاسها ، وإلى أن أصلح فى المستقبل نتائج إسرافها ،

(١) (بىرو) إحدى جمهوريات أمريكا الجنوبية ، وقد اشتهرت بأنها غنية

بمناجم الفضة وبعض المعادن الأخرى .

إذا بى أبداً — فى نفس اللحظة — بتكبيدها ثمانمائة فرنك . . .
فعلجت بخرابها لكى أهيبء نفسى لعلاج حالها ! ومهبها تكن
الحماقة التى انطوى عليها هذا التصرف ، فإن الوهم كان بأكمله
راجعا إلى ، وإليها هى الأخرى . فقد اقنع كل منا الآخر ،
فكنت من ناحيتى مقتنعا بأننى أقوم بعمل نافع من أجلها ،
وكانت هى مقتنعة بأننى أقوم بعمل نافع من أجل نفسى !

وكننت أعول على أننى ساجد فينتور باقيا في (أنيسى) ،
فأحصل منه على خطاب إلى الأب « بلانشار » . ولكنه لم يكن
هناك ، وكان على أن أقنع — من الدراسة كلها — بقداس من
أربعة أجزاء ، من تلحينه ، كان قد تركه لى . وبهذه الشفاعة
ذهبت إلى (بيزانسون) ، مارا بجنيف — حيث زرت أهلى —
وبـ (نيون) ، حيث زرت أبى الذى تلقانى كالمعتاد ، وتكفل بأن
يرسل فى أثرى حقيبتى ، لكنها لم تصل إلا بعدى ، لأننى كنت
مسافرا على جواد .. ووصلت إلى (بيزانسون) ، فأحسن
الأب بلانشار استقبالى ، ووعدنى بأن يزودنى بدروسه ، وقدم
إلى خدماته . وفيما نحن على أهبة البدء ، إذا بى أعلم من أبى
بأن حقيبتى قد ضببطت وصودرت فى (روس) ، وهى نقطة
للجهارك الفرنسية على الحدود السويسرية . وفى غمرة انزعاجى
لهذا النبأ ، انتفعت بالأصدقاء الذين اكتسبتهم فى (بيزانسون)
لمعرفة السبب الداعى لهذه المصادرة ، إذ لم أتصور أى مبرر
لها ، بحكم اطمئنانى إلى أننى لم أكن أمتلك شيئا من المهربات .
وأخرا عرفت السبب ، ولا بد لى من ذكره لأنه أمر عجيب !

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى ١٣١

ذلك أننى كنت قد التقيت فى (شامبير) بكهل من (ليون) ^٢ يدعى «ديفييه» ، كان قد عمل فى إدارة الجوازات ، فى عهد الوصاية ، وقد وفد ليعمل فى المساحة ، لحاجته إلى عمل . وكان قد عاش فى المجتمعات الراقية ، وأوتى مواهب وقدر من المعرفة ، واللف ، والادب ، كما كان ملها بالموسيقى . ولما كنت أعمل فى حجرة واحدة معه ، فإن كلا منا مال إلى إيثار الآخر ، وسط الدببة المسعورة التى كانت تحيط بنا . . وكان له مراسلون فى باريس ، يوافونه بتلك التفاهات الرخيصة ، وتلك المطبوعات اليومية التى تنتشر دون أن يدرك أحد كيف تنتشر ، وتموت دون أن يدرك أحد كيف تموت ، ثم لا يعود أحد إلى التفكير فيها بعد أن تغيب عن الذكر . ولما كنت اصطحبه معى أحيانا لتناول الغداء لدى ماما ، فإنه كان يعاملنى بقدر كبير من الاحترام . ولكى يجعل نفسه حلو المعشر ، كان يحاول أن يحملنى على أن أحب هذه الصحف البتافهة التى كنت أنفر منها دائما إلى درجة أننى لم أقرأ من تلقاء نفسى شيئا منها فى حياتى . ولسوء حظى أن إحدى هذه الوريقات اللعينة ، ظلت فى جيب صدر إحدى السترات الجديدة التى لم أكن قد ارتديتها سوى مرتين أو ثلاثا لكى لا يتعرض لها رجال الجمارك . وكانت تلك الوريقة تضم تحريفا « يانسينيا » ^(١) غثا لمشهد جميل

(١) اليانسينية مذهب دينى ابتدعه قس هولندى يدعى « كورنيليوس

يانسين » فى القرن السابع عشر ، ونادى فيه بأن تعاليم القديس أوغسطين بشأن الغفران وحرية الآادة والقدر تتعارض مع آراء رجال الدين المحدثين ،

لمسرحية راسين « ميثريدات » . . ولم أكن قد قرأت من هذا التحريف سوى عشرة أبيات شعرية ، ثم تركتها ، ونسيتها في جيبي . وكان هذا ما أدى إلى مصادرة أمتعتي ، فإن رجال الجمارك الذين أشرفوا على تفتيش حقيقتي بنوا على هذه الوريقة قضية كبيرة ، زاعمين أنها اجتلبت من جنيف لطبع وتوزع في فرنسا ، وشنوا حملة من الطعن والقذح المبنيين على التقوى ، ضد « أعداء الله والكنيسة » . ومن المدح والثناء على أولئك الذين استطاعوا بيقظتهم وتقواهم أن يحولوا دون تنفيذ هذا المشروع الجهنمي ! . . ولا بد أنهم وجدوا أن اقمصتي كانت هي الأخرى تنضح بالزندقة ، إذ أنهم — استنادا إلى هذه الوريقة الرهيبة — صادروا كل شيء ، فلم ألق أبدا أى نبا أو بيان عن حقيقتي البائسة ! ولقد طلب الموظفون الذين كتبت إليهم أوسطهم في الأمر ، معلومات وبيانات ، وشهادات ، ومذكرات ، بلغ من كثرتها أنني بعد أن تخطبت ألف مرة في هذا التيه ، اضطررت إلى التخلي عن كل شيء ! وإني لنادم حقا على عدم الاحتفاظ بالدموى التي وضعها موظفو (روسو) ، فقد كانت خليقة بأن تبرز وأن تكون موضع امتياز بين الوثائق التي ستصحب هذا المؤلف .

=

لأتميلا الجيزويت (اليسوعيين) . وقد اشتد الصراع بين أتباع « يانسين » والجزويت في فرنسا ، ومن هذا ندرك الأهمية التي أضفاها موظفو الجمارك على التصيدة التي وجدت لدى « روسو » .

وجعلتنى هذه الخسارة ابادر بالعودة إلى (شامبرى) دون أن أكون قد أبرمت شيئا مع الأب « بلانشار » . وبعد أن وزنت كل الأمور ، وتبينت أن النحس يلاحقنى فى كل مشروعاتى ، عقدت العزم على أن أنصرف بكل جوارحى إلى « ماما » وحدها ، وأن أشاركها حظها ، وألا أعود إلى الاهتمام غير المجدى بمستقبل لم أكن أملك إزاءه شيئا . وقد تلقتنى « ماما » وكأننى جلبت إليها كنوزا ، وزودت صوان ملابسى الصغير شيئا فشيئا ، وسرعان ما تنوسى تقريبا سوء طالعى ، الذى كان قادحا سواء لى أو لها !

ومع أن هذا النحس قد هدا من حدة مشروعاتى الموسيقية ، إلا أننى لم اتخل قط عن أن أدرس كتاب « رامو » باستمرار ، وانتهيت بفضل الجهد الشاق إلى أن أستوعبه ، وإلى أن أقوم ببضع محاولات صغيرة فى التلحين ، شعجنى نجاحها . وكان الكونت « دى بيلجارد » — ابن مركز دانتريون — قد عاد من (درسدن) بعد موت الملك « اوجيست » . وكان قد أقام ردحا طويلا فى باريس ، وأحب الموسيقى حبا جما ، وشغف بمؤلفات « رامو » بوجه خاص . وكان أخوه الكونت (دى نانجى) يعزف على الكمان ، والسيدة الكونتيسة ديلاتور — شقيقتها — تجيد الغناء بعض الشيء . فنادى كل هذا إلى أن أصبحت الموسيقى هى الهواية الشائعة فى (شامبرى) ، وأنشئ نوع من الفرق الموسيقية العامة . وقد أرادوا فى بادئ الأمر منحى إدارة هذه الفرقة ، ولكن سرعان ما تجلّى أنها فوق طاقتى ، فأتخذت تدبيرات أخرى . ولم اتخل عن تقديم بضع قطع صغيرة من تلحينى ، بينها أغنية أصابت رضاء كثيرا . ولم تكن

هذه الاغنية قطعة بديعة التلحين ، ولكنها كانت مليئة بالوان جديدة من الغناء ، وبمؤثرات ما كان أحد يرتقيها منى . ولم يستطع هؤلاء السادة أن يصدقوا أنني — وقد كنت أسىء قراءة المقطوعات الموسيقية — كنت فى وضع يمكننى من تأليف الحان مقبولة ، فلم يرتابوا قط فى أنني انتحلت لنفسى فخر عمل سوى ! .. ولكى يتحروا الأمر أقبل السيد دى نانجى ذات صباح ليبحث عنى ، ومعه إحدى أغاني « كليرامبو » ، وقد عدل فيها — كما قال لى — لكى ثلاثم صوته ، غير أنه كان من الضرورى وضع أنغام أخرى للترنيم الثانى ، إذ أن التعديل جعل من غير الممكن عزف الانغام التى وضعها كليرامبو على الكمان الكبيرة . وأجبته بأن هذا عمل ضخم ، لا يمكن أدائه فى التو ، فظن أنني أبحث عن مهرب ، وألح على فى أن أضع له — على الأقل — أنغام رنيم القائي ففعلت . وقد أسأت فى ذلك بلا شك ، لأنه لا بد لى ، لكى أجيد أداء أى أمر ، أن أكون على سجيى وحريتى .. بيد أنني وضعت ما طلب منى وفقتا للقواعد على الأقل ، ولما كان السيد حاضرا ، فإنه لم يستطع أن يرتاب فى أنني لم بأصول التلحين . ومن ثم فإننى لم أفقد تلايذى ، ولكننى ازدددت فتورا — بعض الشيء — نحو الموسيقى ، إذ رأيت القوم قد ألفوا فرقة موسيقية وأهملونى فى تأليفها !



وحوالى ذلك الوقت ، عقد الصلح وساد السلام ، وعبر الجيش الفرنسى الجبال عائدا إلى بلاده .. وجاء عدد من

الضباط لزيارة « ماما » ، كان بينهم السيد الكونت « لوتريك » — قائد كتيبة (أورليان) ، والمندوب المفوض فى جنيف بعد ذلك ، ثم مارشال فرنسا (٤) فى النهاية — فقدمتى « ماما » إليه ، وإذ سمعها تتحدث عنى ، أبدى اهتماما كبيرا بى ، ووعدنى بأمور كثيرة ، لم يتنكرها البتة إلا فى العام الأخير من حياته ، عندما لم أكن بحاجة إليه ! .. كما مر بشامبيري — فى الوقت ذاته — مركز دى سنيكير الشاب ، الذى كان أبوه إذ ذاك سفيرا لدى (تورين) ، فتناول الغداء فى دار السيدة « دى مانتون » ، وكنت أنا الآخر أتغدى هناك فى ذلك اليوم . وبعد الغداء أثار المركز ذكر الموسيقى ، وكان واسع الدراية بها . وكانت أوبرا « جيفته » JEPHTE حادثة العهد إذ ذاك ، فتكلم عنها ، وجيء إليه بها ، فإذا به يجعلنى أرتجف ، إذ اقترح أن نؤديها معا . . وما أن فتح الكتاب ، حتى وقع بصره على هذه المقطوعة الشهيرة ، التى يؤديها فريقان من المنشدين (الكورس) :

« إن الأرض ، والجحيم ، بل والسماء

ذاتها لترتجف جميعا أمام الرب »

وسألنى : « كم دورا تريد أن تؤدى ؟ » .. فأجبت : « سأأخذ لنفسى هذه الأدوار الستة » .. ولم أكن قد اعتدت بعد هذه النزوة الفرنسية ، وإذا كنت قد أدت الأدوار — مرتبكا فى بعض الأحيان — إلا اننى لم أدر إطلاقا كيف يملك رجل واحد أن يؤدى ستة أدوار — بل دورين — فى وقت واحد ! وما كبذنى شيء من المشقة ، فى ممارسة الموسيقى ، أكثر من القفز ببساطة

١٣٦ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى

من دور إلى آخر ، موجهاً عينى إلى فصل بأكمله فى آن واحد . ولا بد أن السيد دى سنيكتير انساق — من جراء الطريقة التى أدبت بها هذا المشروع — إلى الظن بأننى لم أكن على معرفة بالموسيقى . ولعله أراد أن يتحرى صحة ارتيابه ، فاقترح على أن أكتب «نوتة» أغنية كان يريد أن يقدمها إلى الأنسة « دى مانتون » ، فلم أملك أن أرفض . . وراح يترنم بالأغنية وأنا أكتب ، دون أن أسأله أن يكثر من التكرار . ثم قرأها بعد ذلك ، فوجدها — كما كانت حقيقة — صحيحة التسجيل . وكان قد لاحظ ارتباكى ، فطاب له أن يطنب فى امتداح توفيقى البسيط . والواقع أننى كنت على معرفة طيبة جداً بالموسيقى، ولم يكن ينقصنى سوى سرعة الاستيعاب ، من أول نظرة الفقيه، وهو الأمر الذى لم أملكه ، والذى لا سبيل إلى اكتسابه فى الموسيقى إلا بالمران الدائب . . ومهما يكن الأمر ، فإننى تقبلت العناية الأمانة التى بذلها ليحوى من أذهان الآخرين ، ومن ذهنى، الحياء الذى عانيت به . ولقد وجدتني منساقاً — عدة مرات بعد ذلك — إلى أن أذكره بهذه القصة ، عندما كنت التقى به فى عدة دور بباريس ، بعد اثنى عشر أو خمسة عشر عاماً ، لأريه أننى كنت احتفظ بالذكرى . ولكنه كان قد فقد بصره منذ ذلك الحين، فخشيت أن أجدد شجونه إذ أذكره بالنفع الذى كان يجنيه من هذا البصر فيها مضى ، وأمسكت لسانى ! .



وأصل الآن إلى اللحظة التى بدأت تربط وجودى الماضى بوجودى الراهن ، فإن بعض الصداقات التى امتدت منذ ذلك

الوقت حتى وقتنا الحاضر ، أصبحت جد غالية لى . وانها
لتحملنى كثيرا على أن اتحسر على ما كنت أسعد به من خمول
الذكر ، حين كان أولئك الذين يعلنون أنهم أصدقائى ، أصدقاء
بالفعل ، يحبوننى لذاتى ، بنية طيبة ، لا عن زهو بأن يكونوا
مرتبطين برجل نابه الذكر ، أو عن رغبة خفية فى أن يجدوا مزيدا
من الفرص للساة إليه ! .. وإلى هذه الفترة أرجع معرفتى
الأولى بصديقى القديم «جوفكور» الذى ظل دائما صديقا لى ،
برغم جهود الآخرين لإبعاده عنى .. ظل دائما ؟ .. لا ، مع
الأسف ! .. فلقد قدر لى أن أخسره . ولكنه لم يكف عن حبى
إلا حين كف من الحياة ، ولم تنته صداقتنا إلا بانتهاء عمره .
ولقد كان السيد « دى جوفكور » من أرق وأحب الرجال الذين
وجدوا على ظهر البسيطة ، وما كان من الممكن لأحد أن يراه دون
أن يحبه ، ولا أن يعيش معه بدون أن يتعلق به فى ولاء .. أبدا
لم أر فى حياتى ملامح أكثر صراحة أو رقة .. ولا وجهها أكثر
وقارا ، أو أكثر إظهارا للحس المرهف والذكاء ، أو أكثر إحياء
بالثقة ! .. ومهما يكن تحفظ المرء ، فقد كان من المستحيل عليه
أن يتمالك نفسه — منذ أول نظرة — من أن يصبح على ألفه معه،
وكانه عرفه منذ عشرين عاما ! .. حتى أنا — الذى كان يجد
مشقة فى أن يكون على سجيته مع الأغراب — اطمأنتت إليه منذ
اللحظة الأولى . كان سلوكه ، ولهجته ، وأقواله ، تتمشى
مجتمعة مع ملامحه . وكان رنين صوته جليا ، مليئا ، واضح
الجرس . كان صوتا عذبا ، جهوريا ، قويا رنانا ، يملأ الأذن
ويرن فى الفؤاد . وما كان فى الوسع أن يوجد مزح أكثر اعتدالا،

واكثر لطفا من مرجه . . ولا كياسة أصدق وأبسط من سذاجته ، ولا مواهب أكثر تأصلا ونموا وارهافا من مواهبه ! . . أضف إلى هذا قلبا ودودا ، مسرفا بعض الشيء فى حبه للناس جميعا ، وشخصية فعالة للخير دون ترو ! . . وكان ميالا لخدمة الأصدقاء فى حمية ، أو لعله كان يسعى لاكتساب صداقة أولئك الذين يستطيع أن يخدمهم ، وهو يدرك أنه إنما يغدو أحق أداء لشئونه النزيهة ، عندما يخدم بحرارة شئون الغير !

وكان «جوفكور» ابن ساعاتى بسيط، وكان - هو الآخر - ساعاتيا ، ولكن شكله وكفافته قاداه إلى جو آخر لم يتلصقا فى أن ينفذ إليه ، فقد تعرف إلى السيد ديلاكوسير - مندوب فرنسا المقيم فى جنيف - الذى أولاه وده ، فأحرز له صلات تعارف أخرى فى باريس ، أجدت عليه نفعا ، واستطاع بنفوذ أصحابها أن يظفر بحق امداد (فاليه) بالملح ، مما عاد عليه بدخل قدره عشرين ألف لييرة . وقد انتهت به ثروته - وهى جد كافية - إلى هذا الحد فى علاقته بالرجال . أما من ناحية النساء ، فقد كان يجد عناء . كان عليه أن يختار ، وأن يفعل ما يشاء . وكان من أندر وأشرف ما امتاز به أنه فى علاقاته بالأشخاص - من كافة الرتب والدرجات - كان محبوبا من الجميع ، مرجوا من الناس طرا ، دون أن يتعرض لحسد أو بغضاء أى شخص . وإبنى لأعتقد بأنه مات دون أن يرى فى حياته عدوا واحدا ! . . كم كان سعيدا ! . . وكان يذهب فى كل عام إلى حمامات (ايكس)، حيث يجتمع خيرة الناس من البلدان المجاورة . وإذا كان على ود مع عليّة القوم فى (سافوا) ، فقد جاء من (أبكس) إلى

(ثامبيرى) لزيارة الكونت « دى بيلجارد » وأبيه المركزى
 دانترمون . . وفى دارهما عرفته « ماما » وعرفتنى به . وقد
 تجددت هذه المعرفة — التى لم يبد إذ ذاك أن من المقدر لها أن
 تنتهى إلى شئ ، والتى انقطعت عدة سنوات ، بعد ذلك — فى
 مناسبة سأرويه ، وأصبحت ودا وثيقا صادقا . وهذا كاف
 لأن يبرر حديثى عن صديق كنت وثيق الارتباط به . وحتى إذا
 لم يكن ثمة مصلحة شخصية فى تذكره ، فإنه كان رجلا حبيبيا ،
 ولد سعيدا ، حتى أننى أعتقد دائما أن ذكره جديرة بأن تبقى،
 لتكون فخرا للجنس البشرى . ومن المحقق انه كانت لهذا
 الرجل الساحر أخطاؤه ، كغيره من البشر ، وكما سيتجلى فيها
 بعد . ولكن، لعله كان يغدو أقل استثنائا بالمحبة إذا لم تكن له
 أخطاء . فقد كان من الضرورى — لجعله جديرا بالاهتمام إلى
 أقصى ما كان ممكنا — أن يوجد فى مسلكه ما يستحق الصفح
 والغفران !

وهناك علاقة أخرى تمت إلى ذلك العهد ، ولم تفتر بعد ،
 بل إنها لا تزال توعز إلى بالأمل فى الهناء الدنيوى ، الذى يتعذر
 موته فى قلب الإنسان . فلقد شغف السيد « دى كونزييه »
 — وهو سيد من أبناء (سافو) ، كان إذ ذاك شابا لطيفا — بتعلم
 الموسيقى ، أو — بالأحرى — بالتعرف إلى ذلك الذى يتولى
 تدريسها . ولقد أوتى السيد « دى كونزييه » ذكاء وميلا إلى
 الصداقات الجميلة ، وكان يقرن هذا بلطف الخلق ، مما جعله
 لين الجانب إلى حد كبير ، مثلما كنت أنا الآخر — إلى حد كبير
 كذلك — بالنسبة لمن أجدهم على هذه الشاكلة . وسرعان

ما توثقت صلتنا (١) ، فإن بذور الأدب والفلسفة التي كانت قد بدأت تختمر في رأسي ، والتي لم تكن ترتقب سوى شيء من الرعاية والتشجيع لتترعرع لنورها وجدت هذه الرعاية والتشجيع لدى السيد « دى كونزييه » ، إذ كان على قدر من الميل إلى الموسيقى ، فكان في هذا خير كبير لى ، لأن ساعات الدرس راحت تنقضى في كافة الأشياء عدا التدريب على الألحان . وكنا نتناول الفطور معا ، ونتجاذب الحديث ، ونقرأ بعض المطبوعات الحديثة ، ولا نفوه بكلمة واحدة في الموسيقى . وكانت الرسائل المتبادلة بين « فولتر » وولى عهد بروسيا قد أحدثت ضجة في ذلك الحين ، فكنا كثيرا ما نتكلم عن هذين الرجلين الشهيرين ، اللذين ارتقى أحدهما العرش بعد ذلك بقليل ، في حين كان الآخر موضع تشهير – بقدر ما هو الآن موضع تهجيد – مما كان يجعلنا نرثى في إخلاص لسوء الطالع الذى بدا أنه كان يلاحقه ، والذي كثيرا ما يكون نصيب ذوى المواهب العظيمة . وكان الأمير البروسى قد حظى بقسط من السعادة في شبابه ، أما فولتر فكان يلوح وكأنه خلق لى لا يسعد البتة . وكان الاهتمام الذى تولانا نحو كل منهما قد امتد إلى كل ما كان يتعلق به ، فلم يكن

(١) قدم لي ان اراه بعد ذلك ، وان اجدته قد تغير تغيرا شاملا . فيا للسيد شوازيل من ساحر قدير ! .. فما قدر لاحد من معارفى القدامى ان ينجو من قدرته على التبديل !

هذه الاضافة وجدت في الاصول الاولى المكتوبة بخط روسو ، ولكن

• لا أثر لها في طبيعة (جنيف) .

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثانى ١٤١

يفوتنا شيء مما كتبه « فولتير » . وقد ألهمنى المتعة التى حظيت بها من هذه المطالعات ، بالرغبة فى أن أتعلم الكتابة البليغة ، وأن أحاول أن أقلد ما لهذا المؤلف من أسلوب بديع ، كنت مفتونا به . ولقد ظهر بعد ذلك بقليل كتابه « الرسائل الفلسفية » ، ومع أنه لم يكن أفضل مؤلفاته ، إلا أنه كان أعظم ما اجتذبنى إلى الدرس ، ومنذ ولد فى هذا الميل ، لم يقدر له أن يخبو أو يفتر!

على أن الوقت لم يكن قد حان بعد كى أتفرغ للأدب تفرغا تاما ، إذ كانت لا تزال لدى بقية من النزق ، والرغبة فى الغدو والرواح ، التى كانت قد هدأت وإن لم تكن قد خمدت ، والتى وجدت ما يغذيها فى سياق العيش فى بيت مدام دى غاران . . فقد كانت الحياة هناك أكثر صحبا من أن تلائم مزاجى الانعزالى، إذ أن سيل الأغراب الذين كانوا يتدفقون عليها من كافة الأرجاء، واقتناعى بأنهم لم يكونوا يسعون إلا إلى التفرير بها — كل بطريقته — جعلنا حياتى فى البيت عذابا منتظما ! . . فمئذ أن خلفت « كلود آتية » فى الظفر بثقة مولاته ، رحلت اتعقب عن كتب تطور شئوننا ، وأرى تدهورها الذى كان يزعجنى . ولقد أطلعته ، وتوسلت إليها ، وضغطت عليها، ورحلت أناشدها مائة مرة ، ولكن دون ما جدوى على الإطلاق ! . . لقد ارتيمت على قدميها ، وعرضت عليها — بأقوى ما وسعنى — النكبة التى كانت تتهددها ، ورحلت أنصحها فى الحاح بأن تحد من نفقاتها ، وأن تبدأ بتطبيق ذلك على أنا ، وأن تعانى قليلا من الحرمان وهى بعد لا تزال شابة ، بدلا من أن تضاعف ديونها ودائنيها باستمرار ، مما يعرضها لمضايقاتهم. وللأسفة أيام شيخوختها . .

ومس صدق تحمسي عواطفها ، فجارتنى في شعوري ، ووعدتني بأجل ما في الدنيا من وعود . ولكن كل شيء كان يغدو منسياً ، بمجرد أن يصل أحد الأماقين ! وبعد ألف دليل على عدم جدوى ارشاداتي ، ما الذي تراه قد بقي لي — كي أفعله — سوى أن أفض بصرى من الشر الذي لم أكن أملك دفعه ؟ . . لقد رحلت أناى عن البيت الذي عجزت عن حراسة بابه ، وأخذت أقوم برحلات قصيرة إلى (نيون) و (جنيف) و (ليون) ، شغلت بالى عن همى الكظيم ، بينما كانت — فى الوقت ذاته — تزيد من عبئه ، نظراً لنفقتائى ! . . وبوسعى أن أقسم بأننى كنت خليقاً بأن اتحمل باغتيال كل تضيق ، لو أن « ماما » كانت تنتفع حقاً من ذلك الاقتصاد . . ولكنى كنت موقناً من أن ما كنت أحرم نفسى منه ، كان ينتقل إلى الأماقين ، ومن ثم فإننى كنت أسوء استغلال سخائها لى أقاسمهم ما كانت تغدغه عليهم . . وكالكلب العائد من المذبح ، كنت استولى على قسمة من القطعة التى لم أستطع أن أنقذها من الكلاب الأخرى !

ولم تكن تعوزنى الحجج لتبرير كل هذه الرحلات ، وكانت « ماما » وحدها تغذبنى بهذه الحجج ، إذ كان لديها الكثير من الاتصالات ، والمباحثات ، والشئون ، والمهام التى تحتاج إلى شخص موثوق به . ولم يكن عليها سوى أن توفدنى ، كما أننى لم أكن أرجو سوى أن أذهب . . ولم تخفق هذه الحال فى تهيئة حياة مليئة بالترحال . ولقد هيات لى هذه الرحلات فرص عقد صلات تعارف طيبة ، كانت — فيما بعد — مستحبة ونافعة . ومن هذه الصلات التى عقدتها فى (ليون) معسرفتى

بالسيد « بريشون » — وهى المعرفة التى ألوم نفسى لأننى لم أعمل على تنميتها بدرجة كافية ، برغم ما كان السيد قد أبداه لى من طيبة وكرم — ثم تعرفى إلى « باريسو » الطبيب ، الذى سأحدث عنه فى حينه . . وفى (جرينوبل) تعرفت إلى السيدة « دى ديبيان » ، والسيدة حرم رئيس « الباردونانش » (١) ، وكانت امرأة جمة الفكاء ، على استعداد لأن تؤثرتى بודהا لو أننى أوتيت مزيدا من الفرص لزيارتها . . وفى (جنيف) تعرفت إلى السيد « ديلا كلوسير » — مندوب فرنسا المقيم — الذى حدثنى فى أحيان كثيرة عن أمى ، التى كانت ما تزال تحتل مكانة فى مؤاده ، برغم الموت والزمن . . كما تعرفت إلى السيدين « باريبو » ، وكان الأب منهما — وقد اعتاد أن ينادينى بابنه الأصغر — حلو المعشر ، ومن أجدر من عرفتهم بالاحترام . وقد قدر لهذين المواطنين أن ينحازا إلى فريقين متعارضين — أثناء اضطرابات الجمهورية — فكان الابن فى صفوف البورجوازيين « ، بينما كان الأب فى صفوف الطبقة الحاكمة . وعندما حمل كل من الفريقين السلاح ضد الآخر — فى سنة ١٧٣٧ — كنت فى (جنيف) ، فقدر لى أن أرى الأب والابن يخرجان مسلحين من بيت واحد ، أحدهما ليذهب إلى دار محافظة المدينة ، والآخر ليذهب إلى مركز قيادته ، وهما موقنان من أنهما لن يلبثا أن يجدا نفسيهما — بعد ساعتين — وجها لوجه ، معرضين لأن يقتل كل منهما الآخر ! . . ولقد ترك هذا المنظر الرهيب طابعا عميقا فى نفسى ، حتى أننى أقسمت ألا اشترك قط فى أية

١٤٤ اعترافات جان جاله روسو - الجزء الثانى

حرب أهلية ، والا أنود بالسلاح عن الحرية — فى داخل البلاد — سواء بنفسى أو بتحبيذى ، إذا ما قدر لى أن أمارس حقوقى كمواطن . وإنى لأشهد بأننى وفيت بهذا العهد فى مناسبة عسيرة ، ولسوف يتبين — أو هكذا أظن ، على الأقل — أن هذا الاعتدال كان ذا فوائد جمة .

على أنى لم أكن قد بلغت — بعد — هذا الفوران الاول للوطنية ، الذى أثارته جنيف — بتسلحها — فى مؤادى . وللمرء أن يحكم على مدى بعدى من ذلك على ضوء واقعة خطيرة أثرت على ، وقد نسيت أن أذكرها فى مكانها ، ويجب ألا أغفلها : ذلك أن خالى برنار كان قد انتقل منذ سنوات عديدة إلى (كارولينا) (١) لانشاء مدينة (تشارلستون) ، التى وضع تصميمها . وما لبث أن مات بعد ذلك بقليل . كذلك مات ابن خالى المسكين ، فى خدمة ملك بروسيا . وهكذا فقدت عمتى ابنها وزوجها فى آن واحد تقريبا ، فأدى هذان المصابان إلى اذكاء ودها لأقرب قريب بقى لها ، وهو أنا . . فكنت إذا ما ذهبت إلى (جنيف) أنزل لديها ، وكنت أتسلى بأن أنبش الكتب والأوراق التى تركها خالى ، وأقلب صفحاتها . وقد وجسدت كثيرا من الأشياء العجيبة ، من بينها أوراق ما كان أحد ليحدث وجودها يقينا . وكانت عمتى — التى لم تعلق أهمية تذكر على تلك

(١) الظاهر أن « روسو » يتصد (كارولينا الجنوبية) ، وهى إحدى ولايات أمريكا الشمالية القائمة على الساحل الجنوبى الاطلسى وتعتبر (تشارلستون) من أكبر مدنها .

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثاني ١٤٥

الأوراق — على استعداد لأن تدعنى أخذها جميعا ، لو أننى شئت ذلك . على أننى قنعت بكتابين أو ثلاثة ، تحمل تعليقات وشرحا بخط جدى برنار القس ، ومنها مؤلفات « روهو » اليتيمة (١) ، وقد طبعت فى مجلد من حجم « ربع القطع » (٢) ، وملئت هوامشها بملاحظات رائعة ، حببت إلى العلوم الرياضية . ولقد بقى هذا الكتاب بين كتب مدام دى غاران ، وإننى لأشعر بالحزن دائما لأننى لم احتفظ به . وقد أضفت إلى هذه الكتب خمسا أو سنا من المذكرات المخطوطة ، وواحدة مطبوعة هى المذكرة الشهيرة التى كتبها « ميشيل دوكريه » ، وكان رجلا عظيم العبقرية ، عالما متنورا ، ولكنه كثير الشطط فى آرائه ، فلقى معاملة سيئة من حكام (جنيف) . وقد مات مؤخرا فى قلعة (اربرج) ، حيث ظل سجيناً أعواما طويلة ، لأنه — على ما قيل — اشترك فى مؤامرة (بيرن) !

وكانت هذه المذكرة نقدا رصينا عادلا لتلك الخطة الكبيرة، والسخيفة ، التى وضعت للتحصينات ، والتى حقق جزء منها فى (جنيف) ، وقد كانت أضحوكة كبرى لدى الخبراء الذين لم يتركوا ما كان للمجلس (٣) من غاية سرية من وراء تنفيذ هذا المشروع الهائل . ولما كان السيد « ميشيل » قد اقصى عن

(١) أى التى لم تنشر الا بعد موت مؤلفها .

(٢) يكاد يعادل ضعف حجم « كتابى » و « مطبوعات كتابى » أو يزيد قليلا فى العرض .

(٣) المجلس الذى كان يضم عددا من الإستشاريين ، ويتولى حكم جنيف .
(٢٠٢ - اعترافات - ج ٢)

« هيئة التحسينات » لأنه عاب المشروع ، فقد اعتقد أن بوسمه كعضو من « المائتين » (١) . — وكهواطن كذلك — أن يعلن رأيه بهزید من الإسهاب ، وهذا ما فعله في مذكرته هذ ، التى أقدم — في غير حكمة — على طبعا ، ولكنه لم ينشرها ، لأنه لم يطبع منها سوى عدد محدود من النسخ ، أرسله إلى « المائتين » . . . ولكن هذه النسخ صودرت جميعا في البريد ، بأمر من المجلس الاستشارى الصغير (٢) . ولقد وجدت هذه المذكرة بين أوراق خالى ، مع الرد الذى عهد إليه بوضعه ، فأخذت كلا منهما . وكنت قد قمت بهذه الرحلة عقب انفصالى عن « المساحة » بقليل ، ولما أزل على بعض الارتباط بالمستشار « كوتشيللى » ، الذى كان رئيسا لها . وقد حدث — بعد وقت قصير — أن رجائى مدير الجمارك أن أقوم بدور الاثبيين لطفله . وكانت السيدة « دى كوتشيللى » هى الاثبينة ، فأدار هذا التكريم رأسى ، وحاولت — وأنا مزهو بأن أغدو في مكانة جد قريبة من مكانة السيد المستشار — أن أقوم بعمل ذى قيمة ، لأبدو جديرا بمثل هذا الشرف العظيم . . . وأنسياقا وراء هذه الفكرة ، لم أر أفضل من أن أطلعه على مذكرتى المطبوعة التى ألفها السيد « ميشيللى » ، والتى كانت — في الحقيقة — تحفة نادرة ، كى أبرهن له على أنني أنتمى إلى عليا القوم في (جنيف) ،

(١) مجلس المائتين . . يظهر انه كان مجلسا نيابيا يضم ذوى المواهب في

جنيف ، بمثابة مجلس للنواب .»

(٢) مجلس الشيوخ .»

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى ١٤٧

ممن كانوا يعرفون اسرار الدولة ! .. على اننى — بدافع من شيء من الحذر ، لم اكن ادرى ماتاه — لم اطلعه قط على رد خالى عن المذكرة ، ولعل ذلك كان راجعا إلى أن الرد كان بخط اليد ، وأنه لم يكن ليليق بمقام المستشار سوى كل مطبوع ! .. بيد أنه شعر بقيمة كبرى للوثيقة التى كنت من الغباء بحيث ائتمنته عليها ، فلم يقدر لى قط أن أسترجعها أو أن أراها ثانية .. حتى إذا أيقنت من عدم جدوى جهودى ، رأيت أن استغل الأمر ، وأن أحول السرقة إلى هدية ! .. ولست ارتاب إطلاقا فى أنه قد أحسن استغلال هذه التحفة فى بلاط (تورين) — فقد كانت طريفة أكثر مما كانت نافعة — وأنه عنى ، بطريقة أو بأخرى ، بالحصول على مبلغ كبير من المال كان من الطبيعى أن يزعم أنه أنفقه فى الحصول عليها ! .. ولما كان من أقل أحداث المستقبل احتمالا وإمكانا — لحسن الحظ — أن يقدم ملك سردينيا يوما على حصار (جنيف) ، وإن لم يكن هذا الأمر مستحيلا ، فقد ظلت دائما الوم غرورى الأحمق الذى جعلنى اكتشف مواطن الضعف فى استحکامات المدينة ، لآلد أعدائها !



وقضيت عامين أو ثلاثة على هذه الحال ، بين الموسيقى ، والحكام ، والمشروعات ، والرحلات .. أتنقل دائما من أمر إلى آخر ، وأنشد دائما الاستقرار دون أن ادرى فيم استقر ، ولكنى كنت أتجه تدريجيا إلى الدراسة ، والتقى برجال الأدب ، وأسمع الأحاديث الأدبية ، وأجرؤ — فى بعض الأحيان — على أن أخوضها أنا الآخر ، مقتبسا أساليب الكتب بدلا من أن

استوعب محتوياتها ! وكنت أقوم بين آن وآخر ، أثناء رحلاتى إلى (جنيف) ، بزيارات عابرة لصديقى القديم السيد سيمون ، الذى أذكى كثيرا تحمسى الوليد للأدب بتزويدي بأحدث الأنباء من « دولته » ، وهى أنباء كان يأخذها عن « باييه » أو عن « كولومبيه » . كذلك كثيرا ما كنت التقي فى (شامبيري) بواحد من (اليعاقبة) كان أستاذا لعلوم الطبيعة ، وراهبا صالحا . ولقد نسيت اسمه ، ولكنه كثيرا ما كان يقوم بتجارب صغيرة أثارت اهتمامى للغاية ، فوددت ان احذو حذوه فأصنع المداد العاطفى^(١) . وللوصول إلى هذه الغاية ، ملأت زجاجة إلى ما فوق منتصفها بالجير الحى ، وبمادة مركبة من الزرنيخ والكبريت والماء ، ثم أحكمت سدادها . وبدأ التفاعل فى الحال — تقريبا — وبغنى شديد ، فأسرعت إلى الزجاجة لأزيل سدadtها ، ولكنى لم أصل فى الوقت المناسب ، فإذا بها تقفز فى وجهى وكأنها قنبلة . . وابتلعت الزرنيخ والحديد والجير ، فكدت أموت ! وقد مكثت أكثر من ستة أسابيع وأنا أعمى ، وأدركت من ذلك أننى يجب ألا أقحم نفسى فى تجارب العلوم الطبيعية ، دون إلمام بالعناصر المستخدمة !

وقد ألحقت هذه المغامرة ضررا بصحتى ، التى كانت فى

(١) نوع من المداد يعرف عادة باسم « المداد السرى » ، ولعل « روسو » اسماء المداد العاطفى ، لأنه كان يستخدم فى المراسلات الغرامية ، فما ان يجفت حتى تبدى الورقة وكأنها خالية من الكتابة ، الى أن تعرض لحرارة اللهب فيبرز ما تحويه !

انحدار محسوس منذ فترة من الزمن . ولست أدري من أين جاعنى هذا الانهيار ، فقد كنت حسن البنیان ، ولم أكن أقدم على أى افراط ، من أى نوع ومع ذلك فإِننى كنت أنهار بجلاء! ولقد كنت جيد التركيب ، عريض الصدر ، مما كان يتيح لرئتي فراغا كافيا كى تتحركا بسهولة . . ولكنى كنت — برغم ذلك — قصير الأنفاس ، وكنت أشعر بضيق ، وأرسل الزفرات دون إرادة منى . ولقد أصبت باضطراب فى القلب ، وأخذت أبصق دما ، واستولت على الحمى البطيئة التى لم تفارقنى تماما على الإطلاق . . فكيف يقع المرء فى مثل هذه الحال وهو فى زهرة العمر ، دون أن يكون ثمة أذى داخلى على الإطلاق ، ودون أن يكون قد فعل ما يقضى على صحته ؟

ويقال أحيانا ان السيف يبلى القراب . وهذه هى قصتى، فإن شهواتى قد أحيتنى ، وشهواتى قد أماتتنى ! . . وقد يقال: أية شهوات ؟ . . كانت توافه . . كانت أكثر أمور الدنيا انطباعا بالطابع الصبباني ، ولكنها كانت تثيرنى كما كان خليقا أن يثيرنى الاستيلاء على هيلين(١) ، أو على عرش الكون ! . . وكانت النساء فى مقدمة هذه المثيرات ! فكانت حواسى تحتفظ بهدوئها ، إذا ما ظفرت بواحدة ، ولكن قلبى لم يكن يعرف الهدوء قط !

(١) هيلين الطروادية : كانت أجمل نساء الاغريق ، وتعد تزوجت من « منيلاوس » ، ملك أسبرطة . . ولكن باريس — أمير طروادة — اختطفها ، فشن أمراء اليونان حربا على طروادة دامت عشر سنوات ، وانتهت برد هيلين الى زوجها .

١٥٠ اعترافات جان چال روسو - الجزء الثانى

كانت مستلزمات الهوى تنهشنى وأنا فى غمرة اللذة . وكنت قد أوتيت أما حنونا ، وصديقة حبيبة ، غير أنه كان لا بد لى من عشيقه . وكنت أتمثل العشيقه المنشودة فى مكان « ماما » ، وأصورها لنفسى فى ألف صورة ووضع ، لكى أموه على نفسى! .. ولو أننى تذكرت — وأنا أعانقها — أننى إنما كنت أضم « ماما » بين ذراعى ، لما فترت حرارة عناقى ، ولكن كافة شهواتى كانت خليقة بأن تخبو ، وكنت أبكى وجدا ، ولا أستمتع بلذة ! .. لذة ؟ .. أفخلق هذا الحظ ليكون من نصيب الإنسان ؟ .. آه ، لو أنه قدر لى يوما — بل مرة واحدة فى حياتى — أن أذوق كل لذات الحب فى أوج تدفقها ، فإنى أعتقد أن كيانى الهش لم يكن ليقوى على الاحتمال .. كنت قميئا بأن أموت فى مكانى !

وهكذا كنت أكتوى بالحب ، دون ما هدف . ولعل هذه الحال هى أشد الحالات ارهاقا ! .. وكنت قلعا معذبا لسوء حال شتئون « ماما » المسكينة ، ولتصرفاتها غير الحكيمة ، التى كان مآلها أن تقود إلى خرابها تماها ، فى وقت قصير . وكان خيالى القاسى — الذى يسبق المصائب دائما — يصور لى هذه المصيبة بالذات ، دون انقطاع ، وبكل مداها ، وبكافة نتائجها ! .. فرأيت نفسى ، مقدما ، مضطرا إلى أن افترق — بحكم الفاقة — عن تلك التى كرس لها حياتى ، والتى لم يكن بوسعى أن أستمتع بهذه الحياة، بدونها! .. وهكذا كنت دواها مضطرب النفس .. كانت الشهوات والمخاوف تنهشنى بالتناوب !

وكانت الموسيقى — بالنسبة لى — شهوة أخرى ، أقل عتوا ولكنها لم تكن أقل ارهاقا ، بفضل التحمس الذى ارتميت

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى ١٥١

به فى غمرتها ، وبفضل الدراسة الدائبة لكتب « رامو » المبهمة ، وبفضل إصرارى العنيد على الرغبة فى أن أحشو بها ذاكرتى التى كانت ترفضها دائما ، وبفضل الجرى المستمر (١) ، وبفضل تلك المجموعات الهائلة التى كنت أراكمها ، وكثيرا ما كنت أقضى ليالى بأسرها فى نسخها ..

ولكن، لماذا أقتصر على الشهوات الدائمة، فى حين أن كل النزوات التى كانت تمر بخاطرى دون انقطاع : الاهواء العابرة التى لا تمكث سوى يوم واحد ، كرحلة ، أو حفلة موسيقية ، أو مسرحية فكهة أحب أن أشهدها .. كل هذه الأشياء التى كانت أبعد ما فى الدنيا عن مسراتى وعن أعمالى ، أصبحت لدى بدورها بمثابة شهوات عديدة عنيفة ، كانت فى جيشائها المستهجن تسبب لى اصدق ألوان العذاب ! .. بل أن قراءة مصائب « كليفلاند » الخيالية — وهى القراءة التى كنت أقبل عليها فى نهم ، والتى كثيرا ما كنت أعجز عن الاسترسال فيها — كانت تثير أشجائى ، فيما أعتقد ، أكثر مما كانت تثيرها مصائبى !

وكان ثمة شخص من أبناء (جنيف) يدعى السيد «باجيريه»، عمل فترة فى خدمة بطرس الأكبر فى البلاط الروسى . وقد كان من أعظم الأوغاد ، ومن أشد الحمقى الذين رأيتهم فى حياتى .. وكان دائما يفكر فى مشروعات تهاطله حماقة ، فقد كان

(١) يتعد التقلل والتوهم بالتشبه بـ (١)

١٥٢. اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثانى

ينثر الملايين كالطر ، ولم تكن الأصفار تكبده شيئا (١) . . وإذ جاء هذا الرجل إلى (شامبيرى) من أجل بعض قضايا كانت معروضة على مجلس الشيوخ ، فقد استولى على إرادة «ماما» ، كما كان متوتعا . وفى مقابل كنوزه من الأصفار - التى كان يغمقها بسخاء - أخذ يبتز منها تلك الدنانير البائسة ، قطعة بعد قطعة ! . . ولم أحبه إطلاقا ، وقد أدرك هو ذلك - فما كان الأمر يوما بالمهمة العسيرة (٢) - فلم يدع نوعا من الخسة لم يستخدمه كى يتقرب إلى . . وآلى على نفسه أن يغرنى بتعلم الشطرنج ، برغم أنه كان لا يحذقه ! . . ولقد حاولت ذلك ، بالرغم من نفسى تقريبا . وبعد أن تعلمت الحركات فى غير ما اكترأت بما إذا كانت صوابا أو خطأ ، إذا بتقدمى يتزايد سريعا ، حتى أتنى استطعت قبل نهاية الجلسة الأولى أن أرد إليه الهزيمة التى كان قد اذاقنيها فى البداية ! . . ولم أقتنع بذلك ، فقد شغفت بالشطرنج ، وابتعت طاقما ، كما اشترت « الكالابروا » (٣) ، واحتبست نفسى فى غرفتى ، ورحت أفضى الأيام والليالى فى السعى لتعلم كل الحركات الافتتاحية من ظهر قلب ، وحشو رأسى بها طوعا أو كراهية ، وأنا لعب وحيدا ،

(١) يقصد أن الرجل كان يدمى الثراء وهو لا يملك شيئا .

(٢) يفيد « روسو » بذلك أن عرفان مواطنه وما يجول بنفسه ، لم يكن بالمهمة العسيرة على أى شخص .

(٣) « الكالابروا » رسالة فى الشطرنج ، وضعها لاعب إيطالى ماهر كان يدعى « جيواكينو جريكو » ، عاش فى عهد لويس الرابع عشر .



وأحببت نفسي في غرفتي ، ورحلت ألقى الأيام والليالي في السعي
لنعلم كل الحركات الافتتاحية .

دون ما هوادة ولا نهاية ! .. وبعد شهرين أو ثلاثة من هذا العمل الشاق ، والجهود التى تفوق الخيال ، ذهبت إلى المقهى وأنا واهن ، شاحب ، متلبذ الذهن تقريبا . وقمت بتجربة ، فلعبت مرة أخرى مع السيد « باجيريه » .. وهزمنى مرة ، فائنتين ، فعشرين مرة ، فقد اختلطت كثير من الترتيبات المختلفة فى رأسى ، كما كان خيالى بالغ الوهن ، حتى أننى لم أعد أرى أمامى سوى سحابة غائمة ! .. وفى كل مرة حاولت فيها أن أتدرب لحفظ الحركات بمعونة كتاب « فيليدور » أو كتاب « ستاما » ، كان يحدث لى عين الشيء .. وبعد أن أنهك قواى ، أجد نفسى أشد ضعفا من ذى قبل . وسواء كنت قد هجرت الشطرنج ، أو أننى وجدت فى لعبه متنفسا لى ، فائنتى لم أحرز أبدا أى تقدم منذ تلك الجلسة الأولى ، حتى أنى لأجد نفسى دائما حيث انتهيت إذ ذاك ، ولو أننى تدرت آلاف القرون لما انتهيت إلا إلى اعطاء « باجيريه » الدور ، فحسب ! .. وقد تقول : هكذا يستغل الوقت على أحسن وجه ! .. والحق أن الوقت الذى أنفقته فى ذلك لم يكن قليلا ، وما كففت عن المحاولة الأولى إلا عندما لم تعد لدى طاقة على الاستمرار .. وعندما ظهرت خارج غرفتى ، كنت أبدو كشخص خارج من قبر . ولو أننى استمررت على النهج ذاته ، لما ظلت « خارجا من القبر » طويلا (١) ! وإن المرء ليقر بأن من العسير

(١) يقصد أنه كان خليقا بأن يلازم القبر .. أى يموت .

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثانى ١٥٥

— لا سيما فى تحمس الشياىب — أن يدع مثل هذا الرأس جسد صاحبه فى صحة !

ولقد أثر تداعى صحتى على طبعى ، كما هدا من حمية خيالى . فما أن شعرت بضغفى حتى ازددت هدوءا ، وفقدت بعض شغفى بالأسفار . وإذا ازددت استقرارا ، تعرضت لا للبلل ، وإنما للأسى والسوداء ، فإذا التهوس يحل محل الشهوات والعواطف المشبوية، وإذا ذبولى ينقلب حزنا واكتئابا، وأصبحت أبكى وأتهد دون ما سبب ، وشعرت بأن الحياة تفلت منى دون أن أكون قد تذوقتها ، وأخذت أتحسر على الحال التى سأترك « ماما » البائسة فيها ، وعلى الحال التى كنت أراها موثكة على القردى فيها .. وبوسعى أن أقول أن فراقها وتركها فى مسغبة كان مصدر أساى الوحيد ! .. وأخيرا ، سقطت مريضا حقا ، فراحت تعنى بى كما لم تعن أم بطفلها ، وقد كان فى هذا خير لها هى الأخرى ، إذ حولها عن المشروعات، وصرفها عن أصحاب المشروعات .. ما كان أعذب الموت لو أنه جاء إذ ذاك ! .. وإذا لم أكن قد استمتعت بكثير من نعم الحياة ، فاننى لم أشعر إلا بقليل من محنها . وكانت روحى الوداعة خليقة بأن ترحل دون الشعور القاسى بظلم الناس .. الشعور الذى يسهم الحياة والموت ! .. وكنت أجد

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى ١٥٦

العزاء فى اننى كنت أحيأ فى النصف الأفضل من نفسى (١) ، وهذا لا يكاد يعتبر موتاً ! ولولا القلق الذى كنت أستشعره إزاء حظها ، لقضيت نحبى وكأئننى أستسلم للنعاس . . بل إن هواجسى كانت ذات غاية رقيقة لطيفة ، خفتت من مرارتها . . ولقد قلت لها يوماً ، « إن كل كيأنى بين يديك ، فأسعديه ! » . . وحدث فى مرتين أو ثلاث — عند ما كنت فى أسوأ حال — أن نهضت فى الليل ، وجررت نفسى إلى غرفتها ، لكى أقدم لها نصائح بصدد تصرفاتها . . نصائح أجزؤ على القول بأنها كانت عادلة وحكيمة ، ولكن اهتمامى بمصير « ماها » كان يغلب فى هذه النصائح على كل شئ آخر . . وكأئها كانت الدموع غذائى ودوائى ، فقد كنت أستمد قوة من تلك الدموع التى كنت أذرفها فى قربها ، وأنا معها ، جالسا على سريرها ، ممسكا بيديها بين يدى . وكانت الساعات تنصرم ونحن مستغرقان فى هذه الأحاديث الليلية ، ثم أعود إلى غرفتى وأنا أحسن حالا مما كنت حين بارحتها ، وقد اغتبطت واطمأنتت للوعود التى عاهدتنى عليها ، والآمال التى بثتها فى نفسى . . وإذ ذاك ، كنت أنام بقلب مطمئن ، وبثقة فى العناية الإلهية . إننى لأدعو الله — بعد أن تعرضت لكثير من الأسباب التى تدمو إلى كراهية الحياة وبعد كثير من العواصف التى هزت حياتى وجعلتها

(١) نسبه الأفضل هى مدايم دى نكران !

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى ١٥٧

بمجرد عبء — أن يكون الموت الذى قدّر له أن يختم هذه الحياة ، أقل قسوة مما كان فى تلك اللحظة !

وبفضل العناية ، والسهر ، والضنى الذى يفوق التصور ، استطاعت « ماها » أن تنقذنى ، ومن المحقق أنها الشخص الوحيد الذى كان بوسعه إنقاذى . فقد كان إيمانى ضعيفا بدواء الأطباء ، ولكنى أوتيت إيمانا عارما بدواء الأصدقاء الصادقين . والأشياء التى يتوقف عليها هناؤنا ، تفضل كثيرا كافة الأشياء الأخرى ! .. وإذا كانت فى الحياة عاطفة مستعذبة ، فإنها هى تلك التى استشعرناها إذ عاد كل منا إلى الآخر . ولم يزد شغفنا المتبادل — مما كان من الممكن أن يزداد — ولكنه اتخذ مزيدا من الألفة ، لا أدري كيف أشرحه .. وفدا ، فى بساطته الضافية ، أشد تأثيرا ! .. وهكذا أصبحت بكل كيانى صنع يديها . أصبحت ابنها تماما ، بل وأكثر مما لو أنها كانت أمى حقا ! .. ودون ما تفكير أو قصد ، لم نعد نفترق ، بل بدأنا ندمج كيانينا فى وجود مشترك ، وداخلنا شعور مشترك بأن كلا منا لم يكن لازما للآخر فحسب ، وإنما كان فيه الكفاية والغناء له عن سواه .. فعودنا نفسينا على ألا نفكر فى أى شئ غريب عنا ، وعلى أن نقصر سعادتنا وكل شهواتنا قسرا تلما على ذلك « الاقتناء » المتبادل(١) ، الذى أحسبه كان

(١) يقصد بالاعتناء المتبادل ، العلاقة الجنسية الكاملة بينه وبين مدام

فريدا فى نوعه بين البشر ، والذى لم يكن — كما قلت — صادرا
عن هوى محسب ، وإنما كان اقتناء أكثر واقعية من المألوف . .
كان — دون ما استناد إلى الاحاسيس أو الجنس أو السن
أو المظهر — يرتبط بكل مقومات شخصية الفرد !

ترى كيف قدر لهذه المحنة ألا تجتلب السعادة إلى حياتنا ،
حتى آخر أيام « ماما » وأيامى ؟ . . لم يكن هذا ذنبى ، ولدى
من الدليل ما يعزىنى ! . . كذلك لم يكن ذنبها هى ، أو لم يكن
بإرادتها ، على الأقل ! . . فلقد كتب للطبيعة التى لا تلين ، أن
تفرض سلطانها (١) سريعا . على أن هذه النكسة المشنومة لم
تكن مفاجئة ، بل كانت ثمة مهلة ، والحمد للسماء ! . . كانت
ثمة فترة قصيرة ، وغالية ، لم تنته نتيجة ذنب منى ، ولست
ألوم نفسى أو أتهمها بإساءة استغلالها !

ذلك أننى — وإن كنت قد شفيت من مرضى الخطير — إلا
أننى لم استعد قط قواى . فما عادت لصدري عافيته ، وإنما
لازمتنى دائما بقية من الحمى ، جعلتنى فى ذبول وكلل . فلم
أعد أصبوا إلى شىء سوى أن أنفق أيامى إلى جوار تلك التى
كانت عزيزة لى ، وأن أعضدها فى ثواياها الطيبة ، وأن أمكنها

(١) يرمى « روسو » بهذا الى ان حكم الطبيعة — ممثلا فى الضعف الذى
اصاب صحته — هو الذى مرض عليه وعلى مدام دى فاران ألا يستعرا فى
سعادتهما الى نهاية عمرهما ::

اعترافات جان چال روسو - الجزء الثانى ١٥٩

من أن تحس بها للحياة الهائلة من سحر حقيقى ، وأن أجعل حياتها على هذه الشاكلة ، فيها يتوقف على . بيد اننى رأيت — بل شعرت — أن العزلة المستمرة التى كانت تجمعنا فى بيت معتم كئيب ، لن تلبث أن تتسم هى الأخرى بطابع حزين . ولاح لنا علاج ذلك ، وكأنه قفز من تلقاء نفسه ، حين أوصتنى « ماما » باللبن ، ورغبت فى أن أذهب إلى الريف لأتناوله هناك . ووافقتها على شريطة أن تذهب معى . وكان هذا كافيا لأن تعقد عزمها ، ولم يبق سوى أن نختار المكان . ولم يكن البستان القائم فى الضاحية ، من الريف تها . . إذ أنه — لوقوعه بين منازل ويساتين أخرى — لم يؤت فتنة المكان الريفى الملائم للاستجمام . . فضلا عن أننا — عقب موت « آنيه » — تخطينا عن البستان رغبة فى الاقتصاد ، إذ لم يعد يراودنا الشوق إلا نباتاته النادرة ، كما أن ثمة اعتبارات أخرى حملتنا على أن نأسف على فقد هذا المعزل !

وانتهزت — إذ ذاك — فرصة الشعور بالملل الذى لمسته عندها نحو المدينة ، فاقترحت عليها أن تهجرها نهائيا ، وأن نستقر معا فى عزلة مستحبة ، فى دار صغيرة على بعد كاف لأن يصد المتطفلين ! ولقد كانت على استعداد لأن تفعل ، وكان هذا الاقتراح الذى ألهمنى إياه ملاكها الحارس وملاكى ، كفيلا بأن يضمن لنا — حقا — أياما سعيدة هادئة ، حتى اللحظة التى يفرق فيها الموت بيننا . ولكن هذا لم يكن الحظ الذى قدر

لنا ، فقد كتب على « ماما » أن تبلى بكل بلايا الفاقة وسوء الحال — بعد أن قضت عمرها في الرخاء — حتى تغادر الدنيا وهي غير آسفة عليها . . أما أنا ، فقد كتب على أن أعانى التعاسات — من كل نوع — كى أصبح يوما مثالا للمرء الذي لا يحدوه سوى حب الصالح العام والعدالة ، بحيث يجرؤ — وهو غير مسلح بغير براعته وحدها — على أن يقول الحقيقة للناس جهارا ، دون مؤازرة الانتصار ، ودون أن يؤلف حزيا لحمايته !

ولقد عمل هاجس تعس على استبقاء « ماما » ، فلم تجرؤ على أن تهجر بيتها الحقير ، خوفا من أن تفضب مالكة . وقالت لى : « إن فكرة العزلة التى تقترحها بديعة ، وإنها لتروق لى ، ولكن لابد من تدبير أسباب العيش ، حتى فى العزلة . وإنى لاتعرض — بمبارحة سجنى — لأن أفقد مصدر عيشى ، فإذا لم يعد لدينا خبز فى الغابات ، أصبح من المحتوم علينا أن نعود إلى المدينة بحثا عنه . ولكى نقلل من حاجتنا إلى العودة ، يجب ألا نهجر المدينة نهائيا . . فلندفع هذا الايجار البسيط للكونت دى سان لوران ، حتى يدع لى معاشى (١) » ، ولنبحث عن مأوى

(١) ذكر « روسو » من قبل ان « سان لوران » كان مشرفا على الشؤون المالية لـإسلاط ملك سردينيا ، وان مدام دى لوران لم تطعن الى استئجار معاشها الا بعد أن استأجرت منه ذلك البيت الحقير ، فاكسبت بذلك ودهـ

١٦١ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى

منزل بعيد عن المدينة بدرجة تمكننا من العيش فى دعة ، وقريب منها بحيث نستطيع أن نعود إليها فى الحال ، إذا ما دعت الضرورة » . . وهذا ما جرى ، فبعد بحث قصير ، استقر بنا المقام فى (شارميت)، وهى ضيعة كان يمتلكها السيد دى كونزيه، على مشارف (شامبيرى) ، ولكنها منزلة وغير مطروقة ، حتى لكانها تقع على مائة فرسخ منها . . فبين تلين مرتفعين ، يمتد — شمالا وجنوبا — واد صغير ، يجرى فى أسفله جدول، تحف به الصخور والأشجار . وعلى أحد الجانبين — بطول هذا الوادى — بضعة بيوت متناثرة ، تناسب كل المناسبة أى امرئ يهفو إلى مأوى خلوى منزل . وبعد أن تفرجنا على بيتين أو ثلاثة — من هذه البيوت — اخترنا فى النهاية إبداعها ، وكان ملكا لسيد فى خدمة الحكومة يدعى السيد « نواريه » . وكان البيت جد ملائم للسكنى ، تقوم أمامه حديقة مرتفعة عن سطح الأرض ، تعلوها كرمة ، ويمتد تحتها بستان ، وفى مواجهتها غابة من أشجار البلوط ، ونبع قريب . وعلى مرتفع من الجبل ، مروج لرعى الأنعام . ومجمل القول ، توفرت فيه كل مستلزمات الأسرة الريفية الصغيرة التى كنا نعتزم إيواها هناك . وبقدر ما أستطيع أن أتذكر الأيمان والتواريخ ، تسلمنا البيت حوالى نهاية صيف سنة ١٧٣٦ . ولقد طربت فى أول ليلة قضيناها هناك ، فنقلت لصاحبتى العزيزة وأنا أعانقها وأغرقها بدموع الحب والابتهاج : «أواه ، يا ماما ! . . ان هذا

١٦٢. اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثانى

المقر لهو وكر الهناء والبراءة . . فإذا لم نجدهما هنا - وكل
منا مع الآخر - فليس لنا أن نرجو العثور عليهما فى أى
مكان ! « (١) » .



(١) فى أوائل القرن التاسع عشر ، آل هذا البيت - الذى اقام فيه روسو
ومدام دى فاران - الى كاتب كانت له مؤلفات ادبية وعلمية ، وقد أصدر
فى سنة ١٨١٧ كتيبا عن (شامبيك) ، سجل فيه كل صغيرة وكبيرة من
اوصاف هذا البيت الذى اعتاد السياح أن يترددوا عليه . وقد ثبتت الى
جدار المنزل - بقرب مدخله - لوحة حجرية ابرز بوضعها « هيرلو سيشيل »
فى سنة ١٧٩٢ - عندما كان حاكما للمنطقة - وقد نقشت عليها أبيات
شعرية للذكرى ، هذا معناها :

« أيها المأوى الذى شغله جان جاك . . انك لتذكرنى بعبقريته ، وبحبه
للعزلة ! » ويتحمسته وحميته . . وبصنائه وطيشه . . لقد جرؤ على أن يكرم
حياته للبجد والحقيقة : . . وكان دائما مضطهدا ، أما بنفسه واما بالحاسدين !

الكراسة السادسة

سنة ١٧٣٦

« هاك كل ما كنت أتمنى : قطعة أرض غير شاسعة ،

« وحديقة ، ونبع ماء فياض بقرب الدار ،

« وإلى جانب هذا .. غابة صغيرة .. »

ولم استطع قط أن أضيف إلى هذا :

« لقد حببني الآلهة .. بأكثر مما اشتبهت » (١)

ولكن لا بأس ، فما كنت بحاجة إلى أكثر من ذلك ، بل
إننى لم أكن بحاجة إلى أن أمتلك هذه الأشياء ، وإنما كان
يكفينى أن أستمتع بها ! .. ولقد قلت — وشعرت — منذ أجل
طويل ، أن المالك والمنافع كثيرا ما يكونان شخصين جد مختلفين ،
حتى إذا أقصينا الأزواج والعشاق عن المقارنة !

هنا يبدأ هناء حياتى القصير ، وهنا أقبلت اللحظات
الوادعة — وإن كانت وجيزة — التى أباحت لى الحق فى أن أقول :
« إننى عشت » ! .. أيتها اللحظات الغالية ، التى آسى عليها
كل الآسى .. إلا أبدئى من جديد — من أجلى — سريانك
الحبيب ، وتتابعى فى ذاكرتى أكثر بطنًا مما كنت فى فمراك فى

(١) هذه الأبيات من أشعار « هوراس » ، وقد أوردها « روسو »

باللاتينية ، وعلق عليها بالسطر الذى تطلع به لتتابعها »

الواقع ، إذا كان هذا ممكنا ! .. كيف لى بأن أطيل — كما
أشاء — هذا الحديث المؤثر ، الساذج ، فأردد نفس الأقوال
دائما ، دون أن أبعث فى نفوس قرائى — بتكرارها — سأها ،
اللهم إلا إذا سئمت أنا نفسى العود إلى ترديدها دون انقطاع !
.. كذلك ، لبت كل هذا يتألف من وقائع ، ومن أعمال ، ومن
أقوال أستطيع أن أصفها وأن أردّها إلى الحياة بطريقة ما ،
ولكن .. كيف لى أن أقول ما لم يقل ، ولم يفعل ، ولم يطف
بخاطر ، ولكنه استبرئ ، بل استشعر — ولست أملك
أن أبين أى سبب آخر لهنائى سوى هذا الشعور البسيط ؟
.. كنت أستيقظ مع الشمس ، وأنا سعيد .. فأنمشى ، وأنا
سعيد .. وأرى « ماما » ، وأنا سعيد .. وأفارقها ، وأنا
سعيد .. وأهيم فى الغابات والربى ، وأرتاد الوديان ، وأقرأ ،
وأقعد عن العمل ، وأفلح الحديقة ، وأجنى الزهور ، وأساعد
فى أعمال البيت .. والهناء يتبعنى فى كل مكان .. لم يكن
يتحصر فى شيء معين ، وإنما كان يشيع فى كل كيانى ، ولم يكن
يفارقنى لحظة واحدة !

ما من شيء جرى لى أثناء تلك الفترة الحبيبة ، ولا من شيء
فعلته أو قلته أو فكرت فيه إيانها ، إلا بقى فلم يتسرب من
ذاكرتى . أن الأوقات التى سبقتها ، والأوقات التى لحقتها ،
لا توافى ذهنى إلا بين آن وآخر ، فأذكرها دون تمييز ، وفى تخبط
.. ولكنى أذكر هذه الفترة بأسرها ، وكأنها ما تزال باقية ! إن
خيالى الذى كان يتطلع دائما إلى الأمام — فى شبابى — والذى
أصبح اليوم يلتفت إلى الوراء ، يعوضنى بهاتين الذكريتين

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى ١٦٥

الفاتنتين عن الرجاء الذى فقدته إلى الأبد ! فأننى لم أعد أرى فى المستقبل ما يستهوئنى ، بل إن رجعات الماضى وحدها هى التى تستطيع أن تهفو بعواطفى . . وهذه الذكريات تمتاز - فى الفترة التى أتحدث عنها - بأنها بالغة الحيوية والصدق ، حتى أنها كثيرا ما تجعلنى أحيا سعيدا ، برغم بؤسى وسوء حظى !

وانى لأقدم من هذه الذكريات مثلا واحدا يمكن من الحكم على وضوحها وصدقها : ففى أول يوم ذهبنا فيه كى نبيت فى (شارميت) ، كانت « ماما » فى محفة محمولة على الأكتاف ، بينما تبعتهما على قدمى . وكان الطريق صاعدا ، وهى ثقيلة الوزن - بعض الشيء - فخشيت أن تضاعف من إنهاك قوى الحمالين ، ورغبت فى أن تهبط فى منتصف الطريق تقريبا ، لتقطع ما تبقى منه على قدميها . وفيما كانت تسيير ، رأيت شيئا أزرق فى الحسك (١) ، فقلت لى : « ها هو القضاب (٢) » لا يزال مزهرا ! . ولم أكن قد رأيت القضاب قط ، ومع ذلك فأننى لم أنحن لفحصه ، وكنت قصير النظر بدرجة لا تمكننى من أن أتبين النباتات التى على الأرض ، إذا كنت أقف منتصب القامة . واكتفيت بأن ألقى نظرة على ذلك النبات ، وأنا أمر به . . ولقد مرت ثلاثون سنة تقريبا ، قبل أن أرى أى قضاب - مرة أخرى - أو ألقى إليه بالا . وفى سنة ١٧٦٤ ، كنت فى (كريسييه) مع صديقى السيد « دى بيرو » ، فتسلقنا جبلا صغيرا تقوم

(١) الامشاب الشوكية التى تحف بالطريق .

(٢) نوع من النباتات البرية

١٦٦ اعترافات جان چال روسو - الجزء الثاني

على قمته استراحة (صالون) بديعة ، تسمى بحق « بيلفى »
— المنظر الجميل — وكنت قد بدأت إذ ذاك أهوى دراسة
الأعشاب ، بعض الشيء . وفيما كنا نصعد ، ونحن نقابل
الأدغال ، إذا بى أطلق صيحة جذلانة : « آه ! .. ها هو ذا
القضاب ! » .. وكان ذلك حقاً . ولاحظ « دى بيرو » فرحى ،
ولكنه جهل سببه . ولسوف يعرفه ، إذ أننى أرجو أن يقرأ
يوماً ما كتبت هنا . وبوسع القارئ أن يحكم — من الأثر الذى
أحدثته فى نفسى مناسبة تافهة كهذه — على مدى التأثير الذى
يحدثه كل ما يمت إلى تلك الفترة !



على أن جو الريف لم يرد إلى صحتى السابقة إطلاقاً .
فلقد كنت ذابلاً ، وقد ازدادت حالى سوءاً ، ولم أعد أطيق اللبن ،
فلم يكن ثمة بد من التحول عنه . وكان الماء هو العلاج الشائع
— إذ ذاك — لكل داء ، فأقبلت على الماء فى غير ما حكمة ، حتى
أنه كاد يشفينى ، لا من على ، وإنما من حياى (١) ! .. ففى
كل صباح ، كنت أذهب — عندما أستيقظ — إلى النبع ، حاملاً
وعاء كبيراً . وهناك ، كنت أشرب على التعاقب — وأنا أتمشى —
ما يعادل ملء زجاجتين . وتحولت نهائياً عن تناول النبيذ فى
وجباتى . وكان الماء الذى اعتدت شربه عسر الهضم قليلاً ،

(١) هذا هو نص تعبير « روسو » . ومن الطريف أن كلمة « يشفى »
— فى العربية — تعنى « يبرىء » ، كما تعنى « يهلك » . وهو عين ما أورده
« روسو » !

شان معظم مياه الجبال . . وموجز القول أننى ظللت على نهجى ،
حتى أننى — فى أقل من شهرين — اتلفت تماما معدتى التى
كنت احتفظ بها حتى ذلك الوقت فى خير حال ! وإذ لم تعد
تهضم ، أدركت أننى لا ينبغى أن أرجو لها شفاء . . وفى ذلك
الحين بالذات ، وقع لى حادث كان فريدا فى نوعه وفى عواقبه
التى لن تنتهى إلا بانتهاء حياتى !

فى ذات صباح لم أكن فيه أسوأ حالا من المعتاد ، كنت
أرفع مائدة صغيرة على قوائمها ، وإذا بى أشعر باضطراب حاد
— لا يكاد يبدو له سبب — فى جميع جسمى . ولست أجد له
تشبيها أفضل من أنه كان مثل نوع من عاصفة هبت فى دمنى ،
وانتشرت لتوها فى كل أعضاء جسمى ! وأخذت عروقى تنبض
بقوة هائلة ، حتى أننى لم أشعر بنبضها فحسب ، وإنما
سمعتها ، لا سيما نبض الشرايين السباتية . وقد صحب ذلك
ضوضاء هائلة فى أذنى ، وكانت هذه الضوضاء مؤلفة من ثلاثة
أو أربعة أنواع : طنين قوى مكتوم ، وخرير واضح كأنه ينبعث
من ماء جار ، وصفير حاد جدا ، ثم النبضات التى ذكرتها ،
والتي كان بوسعى أن أمد دقائقها دون أن أجس نبضى أو أمس
جسمى بيدي ! وكان هذا الصخب الداخلى من الضخامة بحيث
أنه حرمنى من إرهاب السمع الذى كان لدى قبل ذلك ، وجعلنى
تقيل السمع — لا أصم تماما — كما هو شأنى منذ ذلك الحين !

وفى الوسع تقدير دهشتى وانزعاجى ، فقد خيل إلى أننى
أموت ، ولزمت سريرى ، واستدعى الطبيب فرويت له حالى
وأنا أرتجف ، إذ كنت أعتبرها بلا علاج ! واعتقد أنه شاركنى

هذا الرأى ، ولكنه قام بما تحتمه عليه مهنته ، وراح يسرد على تعليقات طويلة لم أقمه منها شيئا البتة ، ثم عمد — تمشيا مع نظريته الرفيعة الشأن — إلى إجراء « تجارب على كائنات حية » (١) ، وهو العلاج التجريبى الذى طاب له أن يجربه معى ، وكان جد اليم ، ومثير ، وقليل المفعول ، حتى أننى سرعان ما تحولت عنه . . وبعد بضعة أسابيع ، رأيت أننى لم أتحسن ، ولا ازدددت سوءا ، فغادرت مراشى ، واستأنفت حياتى العادية ، مع استمرار نبض عروقى وطنين أذننى ، اللذين لم يفارقانى دقيقة واحدة ، منذ ذلك الحين . . أى منذ ثلاثين عاما !

وكنيت حتى ذاك الوقت كثير النوم ، فإذا الحرمان التام من النوم — الذى رافق كل هذه الأعراض ، والذى ظل يلزمها باستمرار حتى الآن — انتهى إلى إقناعى بأنه لم يبق أملى أجل طويل فى الحياة . وقد هدأ هذا الاقتناع من اهتمامى بالشفاء ، فترة من الزمن . وإذا رأيت أن ليس بوسعى أن أطيل من حياتى ، فقد اعتزمت أن أفيد بأكبر شطر ممكن مما تبقى لى من العمر . وهذا ما تسنى لى بفضل صنيع فذ أسدته لى الطبيعة ، إذ أعفنتى — فى مثل هذه الحال المشؤومة — من الآلام التى يبدو أنها كانت قمينة بأن تتنابنى . كنت اتضايق من هذه الضوضاء فى أذننى ، ولكنى لم أكن أعانى منها ، كما أنها لم تكن مصحوبة بأية مضايقات مستمرة أخرى ، اللهم إلا الأرق

(١) IN ANIMAL VILI اصطلاح يطلق على التجارب العلمية التى

تجرى عادة على الحيوانات .

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثانى ١٦٩

فى أثناء الليل ، وبضيق دائم فى التنفس ، لم يكن ليرقى إلى درجة الربو ، ولا كان يبدو محسوسا إلا عندما أحاول الجرى ، أو أهرق نفسى فى العمل أكثر مما ينبغى قليلا .

هذا الحادث — الذى كان خليقا بأن يقتل بدنى — لم يقتل سوى شهواتى ، وانى لأبارك السماء فى كل يوم لهذا الأثر السعيد الذى أحدثه فى نفسى . وأستطيع أن أقول إننى لم أبدا العيش إلا حين اعتبرت نفسى رجلا ميتا ! . وبينما رحت أقدر الأشياء — التى كنت مزما أن أتخلى عنها — بقيمتها الحقيقية ، شرعت أشغل بالى بأمور أسمى وأنبى ، وكأنها كنت أريد أن أستبق الزمن إلى تلك الأمور التى كان ينبغى أن أبادر إلى أدائها ، والتى كنت قد أهملتها — حتى ذاك الحين — إهمالا شنيعا . كنت كثيرا ما أفسخ الدين وفقا لهواى ، ولكننى لم أكن قط بلا دين على الإطلاق . ولم يكن يكبدنى شيئا أن أعود إلى هذا الموضوع الكئيب بالنسبة لكثير من الناس ، ولكنه لطيف بالنسبة لأمريء ينشد فيه مادة للأمل والعزاء . . وكانت « ماما » — فى هذا الصدد — أكثر نفعا لى من كل رجال الدين قاطبة ! . فلم تغفل — وهى التى اعتادت أن تضع لكل شيء نهجا خاصا — عن أن تطبق هذا على الدين كذلك . وكان منهجها يتألف من أنكار جد متباينة ومفككة : بعضها معقول للغاية ، والأخرى طائشة جدا . . ومن مشاعر مرتبطة بشخصيتها ، ومن أفكار قديمة نبعت من تربيتها . فالقاعدة أن المؤمنين يتمثلون الله على ضوء أنفسهم ، فالطيوبون يتمثلونه طيبا ، والخبيثون يتمثلونه خبيثا . . والمؤمنون الحقودون والمتشائمون ، لا يرون سوى الجحيم ، لأنهم يبتغون النعمة للدنيا بأسرها . . أما النفوس المحبة

١٧٠ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثانى

والوادة ، فإنها لا تخشى الجحيم إطلاقاً ! .. ومن المدهشات التى لم يقدر لى أن أنقلب عليها قط ، أن رأيت « فينيلون » الطبيب (١) يتحدث عن ذلك فى مؤلفه « نيليماك » ، وكأنه كان يؤمن به حق الإيمان ! .. على أننى أرجو أن يكون قد لجأ — إذ ذاك — إلى الكذب .. إذ أنه لا بد للمرء ، بالرغم من كل اعتبار ، من أن يكذب أحيانا ، إذا ما كان أسقفا ! — وهذه حقيقة يعرفها الجميع ! — أما « ماما » ، فلم تكذب على . كانت هذه النفس المنزهة عن الغرض ، لا تقوى على أن تتصور الها منتقما دائماً السخط ، وما كانت لترى فى الله سوى الرحمة والشفقة ، فى حين أن الأتقياء لا يرون فيه سوى القصاص والعقاب . وكثيرا ما كانت تقول لى أنه ليس من العدالة فى شيء أن ينشد الله القصاص منا ، لأنه لم يمنحنا ما يلزم لى نكون كما يبغي ، ومن ثم فإن القصاص يكون بمثابة مطالبتنا بأكثر مما منحنا ! .. والغريب فى الأمر ، أنها — برغم عدم إيمانها بالجحيم — لم تتخل قط عن إيمانها بالمطهر (٢) ، وقد تأتى هذا عن أنها لم تكن تدرك ما تفعله بالنفوس الشريرة ، فما كانت تملك أن تدمغها بالشر ، ولا كانت تملك أن تسلكها فى الصالحين ريثما تغدو صالحة فعلا .. ولا بد فى الواقع من الاعتراف — سواء فى هذه الدنيا أو فى الآخرة — بأن الأشرار مصدر حيرة دائما !

Fénélon, Télémaque. (١)

(٢) المطهر فى المعتقدات الدينية ، هو الطريق الذى يلقى من النار الى الجنة ، ويقضى فيه البشر — عقب الموت مباشرة — مدة للتكفير عن خطاياهم ، قبل أن يصبحوا أهلا لدخول الجنة !

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثانى ١٧١

وهناك أمر غريب آخر ، فمن الواضح أن نظرية الخطيئة الكبرى والتكفير ، تنهار بفضل هذا النهج ، حتى أن أساس المسيحية الشائعة ليهتز ، وحتى أن الكاثوليكية لا تعود قادرة على أن تظل قائمة . ومع ذلك فقد كانت « ماما » كاثوليكية صالحة ، أو كانت تجهر بذلك ، ومن المؤكد أنها كانت تصدر في جهرها عن إيمان جد صحيح . وكان يبدو لها أن الناس اعتادوا أن يفسروا الكتاب المقدس في حرفية وتزمت أكثر مما ينبغى . . . وكان يلوح لها أن كل ما يقرأ عن العذاب الأبدي يجب أن يؤخذ على أنه وعيد أو مجاز وكناية . . . وكان موت المسيح يتراعى لها مثالا للخير القدسى ، يرشد الناس إلى أن يحبوا الله وأن يتحابوا فيها بينهم على غرارهم ! . . . وموجز القول ، أنها كانت ونية للديانة التى اعتنقتها ، وقد قبلت في إخلاص كل مقررات العقيدة . . . غير أنه كان يبدو منها — إذا ما نوقشت في كل مادة على حدة — أن عقيدتها تختلف تهايا عن الكنيسة التى كانت تقر لها بالولاء دائما . . . ولقد أوتيت — فوق ذلك — سداجة قلب ، وصراحة أكثر تأثيرا من أى رياء . وكثيرا ما كانت هذه الصراحة تحير الناس ، حتى الراهب الذى اعتاد أن يلقى اعترافاتها ، والذى لم تكن تخفى عنه شيئا ، فقد اعتادت أن تقول له : « إننى كاثوليكية صالحة ، وأود أن أكون دائما كذلك . . . وإنى لأعتنق — بكل طاقة نفسى — مقررات أمنا الكنيسة المقدسة ، على أننى لا أتحكم فى إيمائى ، وإن كنت أتحكم فى إرادتى ، فأسيطر عليها دون ما تحفظ . وإنى لراغبة فى أن تؤمن كل الإيمان : فبماذا تطالبنى فوق هذا ؟ » .

وإنى لأعتقد بأنها كانت خليفة بأن تتبع القانون الخلقى المسيحى — ولو لم يكن يوجد ثمة قانون خلقى مسيحى — لأن مبادئه تتمشى تماما مع أخلاقها . وكانت تفعل كل ما يأمر به ، لكنها كانت قهينة بأن تفعله ولو لم تؤمر به ! . . . وكانت تحب أن تبدى طاعتها فى الأمور غير المهمة : فمثلا لو كان أكل اللحوم مباحا — بل لو أنه كان مفروضا — فى أيام الصوم ، لصامت عنه فيما بينها وبين الله ، دون أية حاجة لمراعاة الاعتبارات التى تليها الحكمة . ولكن هذه القواعد الخلقية كانت تتبع دائما مبادئ السيد « دى تافيل »^(١) ، أو بالأحرى كانت « ماها » تدمى أنها لا ترى تناقضا بينها ، فكانت على استعداد لأن تضاجع عشرين رجلا — فى كل يوم — وهى مطمئنة الضمير ، دون أن يكون لها هم سوى إرضاء الشهوة . وإنى لأعرف أن كثيرات من المتدينات لسن أكثر منها ترددا فى هذه الناحية ، ولكن الفارق بينها وبينهن هو أنهن ينسقن إلى الغواية بفضل شهواتهن ، فى حين أنها تنساق بفضل فلسفتها السفسطائية ! . . . ولقد كانت فى أثناء أكثر الأحاديث العاطفية نائرا — بل وأجرؤ على أن أقول : أكثر الأحاديث التهذيبية عبرة — تنساق إلى هذا الموضوع ، فلا تتغير هيأتها ، ولا تتغير لهجتها ، ولا يخطر ببالها أنها تناقض نفسها . بل إنها كانت تقطع تلك الأحاديث — إذا دعت الحاجة — لتكلم فى هذا الموضوع ، ثم تعود إلى حديثها الأول بنفس الهدوء

(١) سبق لروسو أن ذكر أن السيد دى « تافيل » قد اتهم بمعتقدات مدام دى لماران ، فى سبيل بلوغ ماويه منها غامسى فى نفسها الاعتقاد بأن إرضاء شهوات النفس لا يتعارض مع إرضاء الله والضمير !

١٧٣ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى

السابق . . وهكذا كانت صادقة فى اقتناعها ، إلى درجة أن الأمر كله لم يكن يعدو أن يكون — فى نظرها — مبدأ اجتماعيا يستطيع كل من أوتى إدراكا أن يؤوله أو يطبقه أو ينبذه ، وفقا لنظرته إلى الموضوع ، دون أقل تعرض للإساءة إلى الله !

ومع أننى — بالتأكيد — لم أكن أرى رأيها فى هذا الموضوع ، إلا أننى اعترف بأننى لم أجرؤ على معارضتها ، خجلا منى من أن أبدى من قلة اللطف والأدب ما كانت تتطلبه المعارضة . ولقد كان بوسعى أن أضع قاعدة للآخرين ، وأن أحاول أن استثنى نفسى منها (١) . ولكن طباع «هاما» لم تكن فيها الوقاية الكافية لها من أن تسوء استغلال مبادئها ، كما أننى كنت أعرف أنها امرأة لا تميل إلى التقلب والتلون ، وأن استباحة الاستثناء لنفسى كان معناه أن ادع لها فرصة إباحته لكل من يروق لها ! . . على أننى أورد هذا التناقض هنا — بين ما أورد من تناقضات — بمحض المصادفة ، برغم أنه كان دائما قليل الأثر فى سلوكها ، بل إنه لم يكن ذا أثر البتة ، فى ذلك الحين . . غير أننى وعدت بأن أعرض مبادئها فى صدق وإخلاص ، وإنى لراغب فى أن أبقى بوعدى .

(١) كان روسو لا يقر مدام دى فاران فى فلسفتها السفسطائية التى لقنها إياها المسيو دى تافيل . . ولكن هذه الفلسفة بالذات ، هى التى يسرت له أن يصبح مشيقا لدام دى فاران ، علو أنه هدم هذه الفلسفة — لينتج تيام مثل هذه العلاقة بين السيدة وغيره من الرجال — لبحث عليه أن يبحث عن سبيل ليستثنى نفسه ، حتى لا يحرم من حبيبته !

ولارجع ثانية إلى الحديث عن نفسي.. فما إن وجدت لدى « ماما » كل المبادئ التي كنت بحاجة إليها لأعزز نفسي ضد مخاوف الموت وما وراءه ، حتى أقبلت باطمئنان على هذا المصدر للثقة ، وأصبحت أكثر تعلقا بها منى في أى وقت آخر ، وكأنها كنت أود أن أنقل إليها الحياة التي كنت أحس بأنها توشك أن تهجرنى ! .. وترتبت على مضاعفة تعلقى بها ، وعلى الاقتناع بأنه لم يبق ألامى في الحياة سوى أجل قصير ، وعلى رضائى العميق بما كتب لى في المستقبل .. ترتبت على كل هذا ، حالة دائمة من الطمانينة — بل ومن اللذة — خمدت فيها كافة الانفعالات التى تنأى بالهواجس والآمال عنا ، ولكنها — فى الوقت ذاته — تركتني أنعم فى سكونة ، ودون ما هم ، بما تبقى فى عمري من أيام ! .. وكان ثمة عامل ساهم فى جعل هذه الحال أكثر مذبذبة ، ذلك هو السعى إلى تنمية ميل « ماما » إلى الريف ، بكل وسائل اللهو والتسلية التى كان بوسعى توفيرها . وفيما كنت أحملها على أن تحب حديقتها ، وساحة دواجنها ، وحماتها ، وبقراتها ، اكتسبت أنا الآخر ميلا نحو هذه جميعا ، وإذا بهذه الشواغل البسيطة — التى كانت تملأ نهارى دون أن تعكر صفائى — تجدبنى تحسنا فى صحتى يفوق ما أجدانيه اللبن وسائر الأدوية الأخرى التى استخدمت للمحافظة على كيانى البائس ، إلى أقصى ما كان ممكنا !

ووجدنا قِطْفَ الثمار وجنى الفواكه تسلية فيما تبقى من ذلك العام ، فأخذنا نزداد شغفا بالحياة الريفية ، وسط الناس الطيبين الذين كانوا يحيطون بنا . وشهدنا اقتراب الشتاء



ووجدنا في قطف الثمار وجنى الفواكه تسليّة فيما تبقى من ذلك العام

بأسف بالغ ، فعدنا إلى المدينة وكاننا كنا نذهب إلى منفى . . لا سيما أنا ، إذ كنت في ريب من أنني سأشهد الربيع مرة أخرى ، فاعتقدت أنني ودعت (شارميت) إلى الأبد . ولم أبرحها دون أن أقبل الأرض والأشجار ، ودون أن أرتد إليها عدة مرات كلما ابتعدت عنها ! ولما كنت قد تخلّيت — منذ زمن طويل — عن تلميذاتي ، وفقدت شغفى بملاهي المدينة ومجتمعاتها ، فأننى لم أعد أفادر البيت ، ولم أعد أرى أحدا سوى « ماما » والسيد سالومون ، الذى أصبح — منذ قليل — طبيبها وطبيبى . . وكان رجلا أميننا ، ذكيا ، « كارتى » (١) متحمس ، يحسن الحديث عن نظام العالم ، وقد عادت على أحاديثه العذبة ، المفيدة ، بخير يفوق ما عادت على به كل وصفاته الطبية . وما كنت لأطيق يوما ذلك الغباء وذاك التخبّط الأحمق الذى تحفل به الأحاديث العادية ، ولكن الأحاديث النافعة الدسمة تبعث دائما في نفسى سرورا عارما ، وما اعتدت أن أرفضها قط ! . . وقد تولانى ميل شديد إلى أحاديث السيد سالومون ، فقد لاح لى أنني كنت اكتسب معه — سلفا — تلك المعلومات الرفيعة التى كان مقدرا لروحي أن تكتسبها حين تتخلص من القيود التى كانت تثقلها . وقد امتد الميل الذى استشعرته نحوه إلى الموضوعات التى كان يعالجها ، فشرعت أبحث عن الكتب التى تستطيع أن تساعدنى على أن أحسن فهمه . وكانت الكتب التى تمزج التقوى بالعلوم هي أكثرها

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثانى ١٧٧

بلامعة لى ، لا سيما كتب «الخطابة» وكتب «بور - رويال» (١)،
التي أخذت أطلعها ، أو بالأحرى ، التهمها . ووقع بين يدي
منها كتاب للأب «لامى» عنوانه «أحاديث عن العلوم» . وكان
مبارة من مقدمة للتعريف بالكتب التي تعالج العلوم . وقد
قراته وأعدت قراءته مائة مرة ، وعقدت العزم على أن أجعله
مرشدى . والفيتنى في النهاية أنجذب ، بالرغم من حالتي
الصحية ، أو بالأحرى بفضلها ، إلى الدراسة دون أن أملك
مقاومة . وبينما كنت أنظر إلى كل يوم وكأنه آخر أيامي ،
رحت أدرس في تحس عارم ، وكأننى سأعيش دوماً . . . ولقد
قيل لى أن هذا كان ضاراً بى ، ولكنى اعتقد - من ناحيتى -
أن هذا قد أمدنى ، لا ذهنياً فحسب ، وإنما جسدياً كذلك . .
إذ أن هذا الشغل ، الذى شغفت به ، صار مستعذباً لى ،
حتى أننى لم أعد أفكر فى علقى ، ومن ثم أصبحت أقل تأثراً
بها . ومن الصحيح يقينا ، أن شيئاً لم يؤمر لى شفاء حقيقياً ،
ولكنى - إذ لم أعد أشعر بالألم حاد - تعودت ألوهن ، وعدم
النوم ، وأن أفكر بدلاً من أن أعمل ، و - أخيراً - أن أنظر إلى
التداعى التدريجى البطيء ، الذى ألم بكيانى ، وكأنه تطور
لا مناص منه ، ولا يهلك أن يوقفه سوى الموت !

ولم تصرفنى هذه الفكرة عن كل هموم الحياة التى لا جدوى
منها فحسب ، وإنما أعفتنى أيضاً من مضايقات الأدوية التى كنت

(١) من كتب المدرسة اليانسينية . وقد سبق أن أوردنا نبذة عنها فى

تعليق سابق ☞

— حتى ذلك الوقت — اضطر إلى تقبلها مرغما . فإن سالومون لم يلبث أن اقتنع بأن هذه العقاقير لم تكن تملك لى إنقاذاً ، فأعفانى من غضاظتها ، وقنع بأن يهدىء من شجن « ماما » المسكينة ببعض الوصفات غير الضارة ، التى تغفر المريض وتحفظ على الطبيب سمعته ! وتحولت عن نظام التغذية الضيق النطاق ، فعدت إلى تناول النبيذ وكل مستلزمات حياة الإنسان الموفور الصحة ، بقدر ما كانت قواى تسمح . وكنت أقبل على كل شيء فى اعتدال ، ولكنى لم أحرم نفسى من شيء البتة ! . . بل اننى عدت إلى الخروج ، واستأنفت زيارة معارفى ، سيما السيد دى « كوزييه » ، الذى كانت صحبته تروق لى كثيراً . وقصارى القول ان ارتقاب الموت لم يعق ميلى للدرس ، بل بدا أنه أذكاه ، سواء كان ذلك راجعاً إلى أننى رأيت أن من الجليل أن أدرس حتى ساعتى الأخيرة ، أو كان راجعاً إلى أن بقية من الأمل فى الحياة كانت تكمن متوارية فى قرارة قلبى ! . . ورحت أسرع فى جمع بعض المعرفة للعالم الآخر ، وكأنما كنت أمتقد أننى لن امتلك فيه من المعرفة سوى القدر الذى سأحمله إليه . وأصبحت ولوعاً بحانوت كتيبى يدعى السيد « بوشار » ، اعتاد أن يتردد عليه عدد من رجال الأدب . . وعندما أصبح الربيع — الذى كنت أظننى لن أشهده ثانية — على الأبواب ، جمعت لنفسى عدداً من الكتب لأحملها معى إلى (شارميت) ، إذا كان لى حظ الرجوع إليها !

واتيح لى هذا الحظ ، فاستغلته لصالحى . . وإن الاغتيال الذى شهدته به البراعم الأولى للربيع ليجل عن الوصف ! . .

كانت رؤية الربيع مرة أخرى ، بمثابة البعث في الفردوس ..
 فما ان بدأت الثلوج في الذوبان ، حتى هجرنا وكرنا ، ووصلنا
 إلى (شارميت) لنحظى هناك بأولى أنغام البلبل . ومنذ ذلك
 الحين لم أعد أفكر في الموت ! ومن العجيب حقا أنني لم أصب
 قط بأمراض شديدة الوطأة في الريف . ولقد عانيت كثيرا من
 الإلآم هناك ، ولكنني لم ألزم السرير أبدا . وكثيرا ما كنت
 أقول ، عندما أشعر أنني أسوأ حالا من المعتاد « عندما تروني
 موشكا على الموت ، احملوني إلى ظل بلوطة ، وأعدكم بأن أعود
 إليكم معافى ! »

ومع أنني كنت لا أزال ضعيفا ، إلا أنني عاودت أعمالى
 الريفية ، ولكن بقدر يتناسب مع قواى . وقد عانيت أسى
 حقيقيا لعدم استطاعتى أن أعنى بالحديقة وحدى .. بيد أنني
 كنت إذا هويت ست مرات بالمعول ، شعرت بأننى أفقد
 أنفاسى ، وتصعب العرق منى ، وشعرت بعجز عن الاستمرار
 .. وإذا انحنيت ، كان خفقان قلبى يتضاعف ، والدم يندفع
 إلى رأسى بقوة بالغّة تضطرنى إلى الاعتدال سريعا . وإذا
 اضطررت إلى أن اقتصر على أعمال أقل إرهاقا ، فقد تكفلت
 — بين ما اضطلعت به من مهام — بأعشاش الحمام ، فشغفت
 بها جدا ، حتى أنني كثيرا ما كنت أقضى عدة ساعات هناك دون
 أن أشعر بالملل لحظة .. والحمامة جد هيابة ، وصعبة
 الترويض ، إلا أنني توصلت إلى أن أبث في حمامتى الثقة ، حتى
 أنها راحت تتبعنى في كل مكان، وتدعنى أمسكها متى شئت! ..
 ولم أكن أظهر في الحديقة أو في ساحة الدار ، دون أن تحط

اثنتان أو ثلاث على ذراعى ورأسى فى الحال ! .. وبالرغم من الغبطة التى كنت استشعرها ، فإن هذا الموكب لم يلبث أن غدا متعبا إلى درجة اضطرت معها إلى أن أنبذ هذه الألفة . ولقد اعتدت دائما أن أجد متعة فذة فى استئناس الحيوان ، لا سيما ما يكون منه خجولا وبريا نفورا . وكان يبدو لى من المطرب أن أوحى للحيوان بالثقة ، وما خدمته قط ، إذ كنت أود أن يحبنى بانطلاق ودون قيد !

ولقد ذكرت أننى أحضرت معى كتباً .. وقد انتفعت بها ، ولكن بطريقة أقل تمكينا لى من التعلم ، وأدعى إلى الحيرة وبلبلة الفكر . فإن الفكرة الخاطئة التى كانت لدى عن الأمور ، أغرتنى بأنه لابد لقراءة كتاب قراءة مثمرة ، من أن يحرز المرء كافة المعلومات الأولية التى يرتبط بها موضوع هذا الكتاب ، دون أن يخطر ببالى أن المؤلف نفسه كثيرا ما لا يكون محيطا بهذه المعلومات .. وأنه إنما يأخذها عن كتب أخرى ، بقدر ما تدعو الحاجة . وبهذه الفكرة الدالة على غباء ، رحت اتوقف عن القراءة فى كل لحظة ، مضطرا إلى أن ألهم باستمرار من كتاب إلى آخر .. وكنت أحيانا أضطر إلى أن أستنفذ مكتبات بأسرها ، قبل أن أصل إلى الصفحة العاشرة من الكتاب الذى أرجو أن أدرسه ! .. ومع ذلك فأننى اتبعت هذا الأسلوب المجرد من الإدراك ، فى إسراف ، حتى أننى بددت وقتا لا حد له ، وأرهقت رأسى إلى درجة أننى لم أعد أقوى على رؤية أو استيعاب شيء ما .. وفطنت — لحسن الحظ — إلى أننى كنت أسلك طريقا خاطئا ، يقودنى إلى تيه هائل ، فعدلت عنه قبل أن أضل تماما !

ومهما تكن قلة ما لدى الإنسان من ميل حقيقى للعلوم ، فإن أول شيء يشعر به حين يقبل على دراسة العلوم ، هو ترابطها الذى يجعلها تتقارب ، وتتعاون ، ويلقى كل منها الضوء على الآخر ، بحيث لا يكون ثمة غنى لواحد منها عن الآخر . ومع أن الذكاء البشرى لا يقوى على أن يسعها جميعا ، بل لابد له دائما من أن يتخذ واحدا منها كأساس ، إلا أن المرء كثيرا ما يجد نفسه فى الظلام — لاسيما فى العلم الذى اختاره — إذا هو لم يلم بفكرة عن العلوم الباقية . . ولقد شعرت بأن هذا الذى آليته على نفسى ، كان — فى حد ذاته — شيئا طيبا ونافعا ، وأنه ليس من حاجة إلا إلى تبديل الأسلوب . فأقبلت على « دائرة المعارف » أولا ، وقسمتها وفقا لفروعها ، ثم رايت أن لا بد لى من أن أفعل العكس تماما فأدرس هذه الفروع منفصلة ، وأمضى فى كل منها على حدة ، إلى النقطة التى يلتقى عندها بسواه ، فتتحد جميعا . وبهذا عدت إلى التقسيم المألوف ، ولكنى عدت إليه وقد أصبحت رجلا يعرف ما ينبغى أن يفعل . وفى هذا عوضنى التأمل عن المعرفة ، وساعد التفكير الطبيعى للغاية ، على إرشادى للصواب . وسواء كان مقدرا لى أن أعيش أو أن أموت ، فقد رايت أننى لم أوت وقتا أضيعه . وعدم الالمام بشيء — فى سن تقرب من الخامسة والعشرين — مع الرغبة فى التعلم ، يتطلب الانهماك فى الإفادة من الوقت . ومع أننى لم أكن أدرى عند أية نقطة قد يحلو للحظ أو للموت أن يوقف تحصسى ، إلا أننى كنت راغبا — مهما تكن الظروف — فى أن ألم بفكرة عن كل شيء ، لكى أثبتن اتجاه كنهاتى الطبيعية ،

أكثر منى لكى أحكم بنفسى على قيمة الجدارة القائمة على
الثقاف !

ووجدت فى تنفيذ هذا المشروع فائدة أخرى لم أكن قد
فكرت فيها ، وهى توفير أطول وقت ممكن ، لاستغلاله فى ذلك .
ولا بد أننى لم أخلق للدرس ، لأن العكوف عليه طويلا يضجرنى
إلى درجة أنه من المستحيل على أن أضطر نفسى إلى الانشغال
بموضوع واحد لنصف ساعة بأكمله ، سيما حين أكون منصرفا
إلى متابعة سير تفكير شخص غيرى (١) ، فى حين أننى أقوى
أحيانا على أن استغرق فى تفكيرى الخاص أمدا أطول ، بل
وبتوفيق كبير ! .. أما حين أتتبع تفكير مؤلف ما ، لبضع
صفحات أضطر إلى مطالعتها بإمعان واستيعاب ، فإن عقلى
يشرد ويتوه بين السحاب ! .. فإذا أصرت ، فأننى أرهق
نفسى عبثا ، وأصاب بدوار ، ولا أعود أرى شيئا .. أما إذا
تعاقبت موضوعات متباينة — ولو كان تعاقبها متواصلا دون
إمهال — فإن الواحد منها يسرى عنى عناء الذى سبقه ، ومن
ثم فأننى أمضى فيها ببسر ، دون أن أشعر بحاجة إلى أية مهلة
للراحة أو التخفف . ولقد عمدت إلى الإفادة من هذه الملاحظة
فى الخطة التى انتهجتها للدرس ، فرحت أمزج الموضوعات
بشكل كان يجعلنى أشغل بها طيلة اليوم دون أن أسأم البتة! ..
ومن الصحيح أن المهام الريفية والمنزلية كانت تحدث تغييرا

(١) كما يحدث حين يقرأ المرء كتابا للدرس ، اذ يحاول أن يتلهم سير

تفكير المؤلف ، وأن يستوعب آراءه .

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى ١٨٣

نافعا ، ولكننى — فى غمرة التحمس المطرد — لم ألث أن وجدت الوسيلة لتوفير وقت للدرس — إلى جانب أداء هذه المهام — ولأن أشغل بأمرين فى آن واحد ، دون أن يخطر لى أن هذا يقلل من إتقانى لكل منهما !

على أننى أعمد إلى شىء من التحفظ، بشأن هذه التفصيلات الدقيقة التى تفتننى ، والتى أثقل بها أحيانا على قارئى . . وهو تحفظ لا يحدسه القارئ إطلاقا ، إذا أنا لم أعن بتبنيه إليه .
فمنها — على سبيل المثال — أذكر فى استعذاب كافة المحاولات المتباينة التى قمت بها لتقسيم وقتى على نمط أتاح لى أن أجد فيه أكثر قدر ممكن من المتعة ومن الفائدة ، فى آن واحد .
وبوسعى أن أقول أن تلك الفترة ، التى قضيتها فى عزلة ، وفى مرض مستمر ، كانت أقل فترات عمرى تعرضا للخمول والضيق . وقد انقضى شهران أو ثلاثة على هذا النسق ، فى تعرف اتجاه عقلى ، وفى الاستمتاع — فى أجمل فصول السنة ، وفى البقعة التى أحالها هذا الفصل فائنة — بسحر الحياة الذى أحسست بقيمته تماما : كسحر الزمالة العذبة ، غير المقيدة — إذا صح أن نطلق هذا الاسم على معاشرة قامت على اتحاد كامل — أو سحر معرفة رائعة كنت أعززم أن اكتسبها ، ولكننى كنت أنتشى بها وكاننى حصلتها فعلا . . أو لعل نشوتها كانت أشد لأن لذة الدرس والتعلم كانت ذات دخل كبير فى سعادتى!

ومن الواجب التجاوز عن هذه المحاولات ، التى كانت بالنسبة لى مبعث لذة وابتهاج، ولكنها كانت أبسط من أن تشرح .
فأنا أكرر أن السعادة الحقة لا توصف ، وإنما هى تحس . .

وكلما عز وصفها ، كان الشعور بها أفضل وأجمل ، إذ أنها ليست نتيجة مجموعة من الوقائع ، وإنما هى حالة دائمة .
إننى كثيرا ما أكرر نفسى ، ولكننى خليق بأن أزداد تكرارا ، لو
أننى رويت الشئ الواحد بعدد المرات التى يخطر فيها ببالى !
وعندما اتخذت حياتى — التى كانت كثيرة التغير — مجرى أكثر
انتظاما ، فهاكم أقرب وصف ممكن لتوزيع أوقاتى .

كنت استيقظ قبل مشرق الشمس فى كل صباح ، فأمرق
خلال بستان مجاور ، إلى طريق جـد بديعة ، فوق حقول
الكروم التى كانت تمتد بطول سفح الجبل حتى (شامبيرى) .
وهناك — وأنا أتمشى — كنت أتلو صلاتى ، التى لم تكن تتألف
من مجرد تحريك شفتى بتمتة فارغة ، وإنما كانت تتمثل فى
سمو صادق بالقلب إلى خالق هذه الطبيعة البديعة ، التى كانت
آيات جمالها تنبسط أمام عيني . . فما أحببت قط أداء الصلاة
فى الحجرة ، فقد كانت الجدران وكل تلك الأشياء التى من
صنع الإنسان ، تبدو لى دائما وكأنها تحول بينى وبين الله . .
وإننى لأحب أن أفكر فيه وأتأمل آياته ، بينما يكون فؤادى
مطلعا إليه . وبوسعى أن أقول ان صلاتى كانت خالصة ،
وكانت جديرة — لهذا السبب — بأن تستجاب . ولم أكن
أسأل لنفسى — ولتلك التى كانت دعواتى لا تفرق بينى وبينها
إطلاقا — سوى حياة بريئة ، مطمئنة ، خالية من الرذيلة (١) ،

(١) من الغريب أن يمر « روسو » على أن العلاقة المشبهة — مهما تكن
مجردة — بينه وبين مدام دي لافران ، لم تكن من الرذيلة فى شئ !

ومن الألم ، ومن الفاقة المدقعة ، ومن موت الاستقامة . . وما إليها ، فى المستقبل . وفيها عدا ذلك ، كانت هذه العبادة تنصرف فى معظمها إلى الإعجاب والتأمل ، أكثر مما تنصرف إلى الدعاء والسؤال . . إذ أننى أدرك أن خير وسيلة للحصول من مانح النعم الحقيقية على تلك النعم اللازمة لنا ، هى فى العمل على أن نستحقها ، أكثر مما هى فى طلبها منه ! . . وكنت أعود من نزهتى بعد دورة طويلة ، وأنا منصرف البال إلى تأمل المناظر الريفية المحيطة بى ، فى سرور واستمتاع ، فهى الوحيدة التى لا تملها العين والقلب أبدا . وكنت أرقب من بعد ما إذا كان النهار قد بدأ عند « ماها » ، فإذا ما أبصرت نافذتها مفتوحة ، ارتجفت غبطة ، وهرعت نحو الدار . أما إذا كانت النافذة مغلقة ، فقد كنت أدلف إلى الحديقة وأنتظر حتى تستيقظ ، وأنا أتسلى باسترجاع ما درست فى المساء السابق ، أو العمل فى الحديقة . وإذا افتتح مصراعا النافذة ، أبادر لأقبل « ماها » فى فرائشها ، وهى ما تزال نصف نائمة ، فى كثير من الأحيان . . وكان هذا التقبيل طاهرا أكثر منه عاطفيا ، يستمد من براءته — بالذات — سحرا لم يقترن قط بهلاذ الحس !

وكنا نفطر عادة على قهوة باللبن . وكانت هذه أكثر فترات النهار هدوءا وسكينة لنا ، فكنا نسترسل فى الحديث على سجيئنا . ولقد خلفت لى هذه الجلسات — التى كانت طويلة فى العادة — ميلا قويا إلى الإفطار ، وإنى لأوثر الطريقة الإنجليزية أو السويسرية التى تعتبر الإفطار وجبة كاملة تضم الأسرة بأكملها ، على الطريقة الفرنسية التى يفطر بمقتضاها كل امرئ فى حجرته بمفرده ، أو لا يفطر إطلاقا ، فى الغالب .

وبعد ساعة أو اثنتين — تمضيان فى الحديث — كنت اخلو إلى كتيبى حتى موعد الغداء . وكنت أبداً بكتاب من كتب الفلسفة ، مثل كتاب « المنطق » لبور — رويال ، و « المقالة » للوك ، وكتب مالبرانش ، وليبينيتز وديكارت ، إلخ . وسرعان ما كنت لاحظ أن بين هؤلاء المؤلفين تناقضاً دائماً : فخطرت لى فكرة خيالية أوحى بالتقريب بينهم ، مما اتعبنى كثيراً وجعلنى أبدد كثيراً من الوقت . . وكنت أربك ذهنى دون أن أحرز تقدماً ما ! . . وإذ طرحت عنى — فى النهاية — هذا الأسلوب كذلك ، انتهجت أسلوباً يفضل به درجة لا حد لها ، وإليه اعزوك التقدم الذى استطعت أن أحرزه ، بالرغم من نقص استعدادى . . فمن المؤكد أننى لم أوت قط استعداداً كبيراً للدرس . ولقد آليت على نفسى — وأنا أقرأ لكل مؤلف — أن استوعب كل أفكاره واتتبعها دون أن أخطئها بآرائى ، أو بآراء أى مؤلف آخر ، ودون أن أجادلها . بل أننى كنت أقول لنفسى : « لنبدأ باختزان الآراء بدقة — صحيحة كانت أو خاطئة — ريثما يتوفر لعقلى من الغذاء ما يمكنه من المقارنة بينها والمفاضلة » . وإنى لأعلم أن هذا الأسلوب لا يخلو من العيوب ، ولكنه أفلح فى تمكينى من غايتى ، وهى التعلم . وبعد بضع سنوات قضيتها فى عدم التفكير إلا على غرار سواى ، دون ما تأمل بل وبدون تمحيص ، ألفيت نفسى مالكا لمدخر من العلم كاف لإرضائى ، ولتمكينى من أن أفكر دون معونة الغير ! . . وعندما كانت الرحلات والشواغل تحرمنى فرصة اللجوء إلى كتيبى — فى ذلك الحين — كنت أئسلى باسترجاع ما قرأت والمقارنة بين بعضه

وبعض ، فإذن كل شيء بميزان ، وأصنر - فى بعض الأحيان -
أحكاماً على أساتذتى . ومع أننى بدأت أشحذ مقدرتى على
النقد فى سن متأخرة ، إلا أننى لم أجد أنها قد تبددت . وعندما
نشرت آرائى الخاصة ، لم أتهم أبداً بأننى عبد لأساتذتى ،
ولا بأننى « أحلف بكلمات أستاذ ما » (١) !

وانتقلت من هذه الدراسات إلى مبادئ الهندسة ، التى لم
أجاوزها كثيراً قط ، إذ أصررت على أن أقهر ضعف ذاكرتى ،
بفضل الرجوع مائة مرة ومرة إلى حيث بدأت ، والشروع
باستمرار فى تتبع خطواتى السابقة . ولم استسغ تعاليم
« يوكليد » (٢) ، الذى كان يعنى بتسلسل البراهين ، أكثر من
عنايته بترباط الأفكار . وفضلت هندسة الأب « لامى » ، الذى
أصبح - منذ ذلك الحين - من أحب المؤلفين إلى ، والذى
أعدت قراءة مؤلفاته فى استمراء . . وجاء الجبر بعد ذلك ، فكان
الأب « لامى » هو الذى اتخذته مرشداً . حتى إذا تقدمت فى
دراستى ، أقبلت على « علم الحساب » للأب « رينو » ، ثم على
كتابه « تحاليل تستند إلى براهين » ، الذى لم أفعل أكثر من
أن مررت به مر الكرام . ولم أضن قط إلى الحد الذى أفهم
عنده تطبيق الجبر على الهندسة ، فما أحببت قط هذه الطريقة

(١) مثل لاتينى شاع من تلاميذ فيثاغورس ، الذين كانوا يرددون آراء
استاذهم فى إيمان أعمى !

(٢) عالم يونانى عاش فى الاسكندرية فى القرن الثالث قبل ميلاد المسيح ،
ووضع اصولاً للعلوم الرياضية فى ١٣ كتاباً ، خص الهندسة منها تسعة كتب .

التي تجعلك تمضى فى العملية الرياضية دون أن تدري ما الذى تفعله . وكان حل أية مسألة هندسية بالمعادلات الجبرية يبدو لى مثل مزف لحن بالاكثفاء بإدارة يد(١) !

وعندها وجدت بالحساب — لأول مرة — أن مربع المعادلة الجبرية ذات الحدين ، يتألف من مربع كل حد من حديها ، ومن ضعف حاصل ضرب كل منهما فى الآخر (٢) ، لم أشأ أن أصدق ذلك — برغم صحة عملية الضرب التى أجريتها — إلا بعد أن سجلت العملية بالأرقام . وليس معنى هذا أننى لم أوت ميلا عظيما إلى الجبر ، لأنه لا يعالج سوى كميات مجردة (مبهمة) ، ولكننى كنت — عند تطبيقه على المساحات والأبعاد — أحب أن أرى العملية ممثلة بسطور وخطوط ، وبدون ذلك لم أكن أفهم منها شيئا !

وجاءت اللغة اللاتينية ، بعد ذلك . وكانت هذه أشق دراساتى ، فلم أحرز فيها أبدا أى تقدم كبير . واتبعت فى البداية أسلوب « بور — رويال » اللاتينى ، ولكن دون ما ثمرة . فإن هذه الأشعار الاستروقوطية(٣) كانت تقبض قلبى ،

(١) يشبه « روسو » حل المسائل الهندسية بالمعادلات اجبرية ، بإدارة يد آلة موسيقية ذات زنبرك ، فاذا بها تردد النغم دون أن يدري من أدارها شيئا من طريقة عملها !

$$(٢) (١ + ب) = ٢ + ٢ + ب + ب$$

(٣) كانت قبائل « الاستروقوط » البربرية هى المصدر الأول اللغة اللاتينية.

ولا تستطيع ان تلج اذنى ! .. ووجدتني اضل وسط اكداس القواعد ، وما أن استوعبت قاعدة حتى اكون قد نسيت التى سبقتها ! .. فليست دراسة الكلمات بالتى تليق بلنسان بلا ذاكرة ، وما أصررت على هذه الدراسة إلا لى أغضب ذاكرتى على أن تقوى ، فحسب ! .. وكان لابد من أن أهجرها فى النهاية ، على أننى استوعبت التركيب بالدرجة التى تكفى لأن أستطيع أن اقرأ أسلوب كاتب سلس ، بمساعدة قاموس . وقد اتبعت هذا النهج ، فوجدتني أتقدم . واقبلت على الترجمة ، لا كتابة ، وإنما فى الذاكرة ، واقتصرت على ذلك . وبفضل الزمن والمران ، أصبحت اقرأ بطلاقة كافية مؤلفات الكتاب اللاتينيين ، ولكنى لم أستطع قط أن اتكلم أو اكتب هذه اللغة .. وهذا ما حيرنى كثيرا ، حين الفيتنى — دون أن أدري كيف — مدرجا فى عداد اهل الادب . ومن العيوب الأخرى التى تربت على هذه الطريقة من طرق التعلم ، اننى لم اتعلم قط علم العروض ، وكنت أقل إلماها بقواعد نظم الشعر . ومع اننى — فى رغبتى أن اتذوق وقع اللغة شعرا ونثرا — بذلت جهودا كثيرة للاطاحة بها ، إلا اننى أوقن بأن تحقيق هذا — دون معونة أستاذ — أمر يقرب من المستحيل ، وإذ استوعبت تركيب أسهل الأشعار جميعا ، وهو السداسى الوزن ، تلمست صبرا كافيا لأن أزن كل شعر « ميرجيل » ، مبينا القاعدة والكم ، فلماذا ما ارتبت فيها إذا كان أحد المقاطع طويلا أو قصيرا ، رجعت إلى كتاب « ميرجيل » لأسترشد به . ومن الواضح أن هذا جعلنى ارتكب أخطاء كثيرة بسبب التغير الذى تسمح به قواعد النظم .. على أنه إذا كان

لتعلم المرء بنفسه فائدة ، فإن له — كذلك — عيوباً عظيمة ، في مقدمتها العناء الذي يفوق التصور . وانى لأدري بهذا من أى شخص ، أيا كان !

وكنيت أفاضق كتبى قبيل الظهر ، فإذا لم يكن الغداء معداً ، فإننى كنت أسعى إلى زيارة صديقتائى الحائث ، أو للعمل فى الحديقة ، فى انتظار موعد الغداء . وعندما أسمع النداء ، أهرع — وأنا جد مغتبط — وقد أوتيت شهية عظيمة . فمن الجدير بالملاحظة أن شهيتى لا تتخلى عنى ، مهما أكن مريضاً . وكنا نتغذى فى انشراح ، ونحن نتبادل الحديث فى شئوننا حتى نفرغ « ماما » من الأكل . وكنا — إذا ما تحسن الجو — نذهب ، مرتين أو ثلاثاً فى الأسبوع ، إلى ما وراء الدار ، لتناول القهوة فى مقصورة عليّة الجو ، ظليّة ، زينتها بحشيشة الدينار (١) ، وكنا نشعر بارتياح شديد إليها فى القيط . وهناك ، كنا نقضى وقتاً ليس بالطويل ، فى تفقد خضرنا وزهورنا ، وفى أحاديث تتعلق بطريقة معيشتنا ، كانت تجعلنا أقدر تذوقاً لجمالها . وكانت لى أسرة أخرى ، فى أقصى الحديقة ، تتألف من نحل . ولم يكن يغوتنى قط أن أزورها ، وكثيراً ما كانت « ماما » تصحبنى . وكنيت أهتم كثيراً بعملها ، وأنعم للغاية برؤيتها فى عودتها من جنى الزهور ، وقد أثقلت سيقانها الدبقية بأحمالها ، بحيث كان يتعذر عليها المشى أحياناً . ولقد حملنى الفضول — فى الأيام الأولى — على أن أحاول التثبت مما كنت أرى ،

(١) نوع من النباتات :

اعترافات جان چاه روسو - الجزء الثانى ١٩١

فلدغنى النحل مرتين أو ثلاثة ، ولكننا لم نلبث أن وثقنا تعارفنا ، حتى أنه كان يدعنى وثائى ، مهما اقترب منه . . . وكان يتجمع حولى — مهما تكن الخلايا مليئة ، تأهباً للانفraz — فيحيط على يدى ووجهى دون أن يلدغنى قط ! . . إن كل الحيوانات توجس عادة من الإنسان — وهى ليست مخطئة فى ذلك — ولكنها ما أن تطمن مرة إلى أنه لا يريد بها أذى ، حتى تصبح ثقته به عظيمة إلى درجة أنه لا يسىء إلى هذه الثقة إذا كان همجيا بربريا !

وكننت أعود إلى مكتبى ، بيد أن أعمالى — فيما بعد الظهر — كانت أقل جدارة بأن تحمل اسم « العمل والدراسة » ، منها باسم « الراحة والتسلية » . فما كننت لأطبق قط العمل المكتبى بعد غدائى ، لأن كل عمل ، فى الأيام الحارة ، يكبدنى عناء ، بوجه عام . على أننى كننت أنشغل نفسى بالقراءة دون الاستذكار ، وبغير إرهاق ، بل وبغير ضابط أو قاعدة . وكان الشيء الذى اعتدت أن أواظب عليه بدقة ، هو التاريخ والجغرافيا . ولما كان هذان لا يتطلبان أى جهد عقلى ، فأننى كننت أمضى فيهما قدما بقدر ما كانت تسمح ذاكرتى القاصرة . وحاولت أن أدرس مؤلف الأب « بيتو » ، وأنغمست فى غياهب علم التاريخ ، ولكنى كننت لا أميل إلى الأجزاء الدقيقة منه ، التى لا قاع لها ولا شاطئ^(١) ، وكننت أفضل عليها الأبعاد الدقيقة التوقيت ، ومسرى الأجرام السماوية . بل إننى كننت خليقا بأن أغرم بعلم

(١) يقصد أنها من العمق بحيث أنه كان يتخبط فيها دون أن يهتدى

إلى غاية أو يلقه منها شيئا ☞

الفلك ، لو أننى أوتيت أدوات له ، ولكنى كنت مضطرا إلى أن أقنع ببعض مبادئه التى تؤخذ من الكتب ، وبعض مشاهدات غير دقيقة — خلال منظار مقرب — كانت كافية لمعرفة المواقع العامة للأجرام فحسب ، إذ أن نظرى القصير لم يكن يسمح لى بتمييز أى شىء بالعين المجردة ، فما بالك بالكواكب ؟ . . . واذكر — فى هذا الصدد — حادثا كثيرا ما يحملنى تذكره على الضحك : فقد ابتعت خريطة فلكية لأدرس عليها الطوالع ، وثبتها إلى إطار ، وكنت فى الليالى الصافية أذهب إلى الحديقة فأضع إطارى على أربع قوائم فى ارتفاع قامتى تقريبا ، بحيث تكون الخريطة مقلوبة . ولكى أضيئها دون أن تطفئ الرياح شمعتى ، كنت أضع هذه فى دلو على الأرض ، بين القوائم الأربع ، ثم أنظر — بالتناوب — إلى الخريطة بعينى ، وإلى الكواكب بمنظارى ، وأروح أضنى نفسى بالتعرف على النجوم واستنتاج الطوالع . واطننى قد قلت ان حديقة السيد «نواريه» كانت مرتفعة عن مستوى الأرض ، بحيث كان كل ما يجرى يشاهد من الطريق . وحدث — ذات مساء — أن كان بعض الفلاحين مارين فى ساعة متأخرة ، فرأونى فى هيئة مضحكة ، وقد أنهمكت فى عملى . وكان الضوء الواهن المنعكس على خريطةى — والذى لم يكونوا يرون مصدره ، لأنه كان محجوبا عن أنظارهم بحواف الدلو — كما كانت هذه القوائم الأربع ، والصفحة الورقية الكبيرة المكسوة بالأشكال والأرقام ، والإطار ، وحركة منظارى ، الذى كانوا يرونه وهو يروح ويجىء . . . كل هذه أوحت بفكرة السحر ، مما أفرغهم ! . . . ولم يكن لباسى صالحا لأن يطمئنهم ،

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثاني ١٩٣

فقد كنت أرتدى قُبعة ذات حافة عريضة ، تعلو قلنسوتي (طاقيتي) ، وقد أجبرتني «ماما» على ارتدائها ، مها هيا لأنظار أولئك الفلاحين صورة ساحر حقيقي ! ولما كان الوقت يناهز منتصف الليل ، فإنهم لم يرتاتوا إطلاقا في أنهم أمام اجتماع للسحرة ! ولما كان فضولهم أقل من أن يزين لهم مشاهدة ما كان يجرى ، فإنهم غبروا وهم في غزع شديد ، وايقظوا جيرانهم ليمروا لهم ما رأوا ! . . وانتشرت القصة بسرعة ، حتى أن كل امرئ في الجيرة كان يعرف — في اليوم التالي — أن اجتماع السحرة عقد في دار السيد « نواريه » . ولست أدرى ما كانت تؤدي إليه هذه الشائعة في النهاية ، لو لم يعمد أحد الفلاحين الذين شهدوا حركاتي السحرية ، إلى أن يرفع شكاته — في اليوم ذاته — إلى اثنين من « الجيزويت » ، اعتادا أن يترددا علينا ، فسفها الشكوى دون أن يعرفا جلية الأمر . ثم ذكرنا لنا القصة ، فأدليت إليهما بالسبب ، وضحكنا لذلك كثيرا . على أنه تقرر — خشية تكرار ذلك الحادث — أن أقوم بمشاهداتي الفلكية في المستقبل دون استعانة بضوء ، مكتفيا بالرجوع إلى الخريطة داخل الدار . والذين قرأوا كتابي : « رسائل الجبل » ، عن أعمال السحرية في (البنديقية) ، رأوا — كما أرجو — أن السحر كان صنعتي ردحا طويلا !

هكذا كانت حياتي في (شارميت) عندما لم أكن مشغولا بأية مهمة ريفية ، فقد كانت هذه تظفر بالأفضلية دائما ، كما أنني كنت — في الأعمال التي لا تتجاوز طاقتي — أعمل كأي فلاح ! . . على أنه من الصحيح أن ضعفى البالغ لم يدع لى — إذ ذاك —

من مقدرة فى هذا المجال ، اللهم إلا النية الطيبة . . هذا فضلا عن أنتى كنت أبغى أن أقوم بعملين فى آن واحد ، ولهذا السبب لم اتقن أيًا منهما . إذ كنت قد وضعت نصب عيني أن أهيبء لنفسى — بالقوة — ذاكرة طيبة ، فدأبت على محاولة أن أحفظ كثيرا من المعرفة عن ظهر قلب . ومن أجل هذا كنت أحمل معى دائما كتابا أدرسه وأستذكره وأردده على نفسى وأنا منهمك فى العمل ، متحملا فى ذلك عناء لا يصدقه العقل ! ولست أدرى كيف أن إصرارى على هذه المحاولات غير المجدية وهذه الجهود المستمرة لم ينته إلى أن أغدو — فى النهاية — غيبا! . . كان لابد من أن أدرس ديوان الشاعر «ميرجيل» EGLOGUES وأن أكرر الدرس عشرين مرة ، ومع ذلك فاننى لم أفقه منه كلمة واحدة ! ولقد فقدت ، أو فُككت ، عددا كبيرا من الكتب باعتمادى حلها معى فى كل مكان ، سواء كان ذلك فى أعشاش الحمام ، أو فى الحديقة ، أو فى البستان ، أو فى مزرعة الكروم . وكنت أثناء انشغالى بشيء ، أضع الكتاب فى أسفل إحدى الأشجار ، أو على السياج العشبى ، ثم كنت أنسى أن آخذه ثانية . . وكثيرا ما كنت أجده — بعد خمسة عشر يوما — تالفا ، أو يكون قرضه النمل والقواقع . وأصبحت هذه اللفتة إلى التعلم تهوسا دفعنى إلى ما يقرب من العته والحباقة ، حتى أنتى — لانشغال بالى — كنت لا أنفك أهتم وأغمم !

ولقد أحالتنى مؤلفات « بور — رويال » وكتاب «الخطابة» — اللذان كنت أقرؤهما بكثرة بالغة — إلى شخص نصف « يانسينى » . وبالرغم من قوة إيمانى ، فإن «لاهوت» هذا

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثانى ١٩٥

المذهب القاسى كان يزعجنى أحيانا . . وأخذت رهبة الجحيم — الذى لم أكن حتى ذلك الوقت أخافه كثيرا — تقض طمانينتى شيئا فشيئا . . ولو لم ترفه « ماها » عن نفسى ، لقلب هذا المذهب الرهيب كل كيانى ! . . وقد بذل الراهب الذى اعتدت أن أفضى إليه باعترافانى — والذى كان يتلقى اعترافاتها هى الأخرى — قصارى وسعه فى أن يجعلنى فى حال ذهنية طيبة . وكان هذا الراهب من « الجيزويت » ، ويدعى الأب « هيميه » . وقد كان شبيخا طيبا ، حكما ، ساظل دائما أوفر فكراه . ومع أنه كان « جيزويتيا » ، إلا أنه كان فى سذاجة الطفل ، وكانت أخلاقه وادعة أكثر منها متزاخية ، وهذا عين ما كنت فى حاجة إليه ، لأعيد إلى نفسى توازنها بعد الانطباعات الكثيرة التى أحدثتها «اليانسينية» . وكان هذا الرجل الطيب وزميله — الأب كوبييه — يفدان كثيرا لزيارتنا فى (شارميت) ، برغم أن الطريق كانت شديدة اللوعورة ، وأطول مما ينبغى بالنسبة لى هم فى سنهما . ولقد كانت زيارتهما ذات أثر طيب عظيم على نفسى ، أسأل الله أن يسبغ على راحتهما جزاء مثله . . إذ كانا طامعين فى السن — فى ذلك الوقت — بحيث أننى لا أظنهما على قيد الحياة اليوم . وكنت — أنا الآخر — اذهب لزيارتها فى (شامبيرى) ، فألفت دارهما تدريجا ، وأصبحت مكتبتهما رهن إرادتى . وإن ذكرى هذه الفترة السعيدة لترتبط ارتباطا وثيقا بذكرى «الجيزويتيين» ، حتى أننى أحب كلا منهما من أجل الآخر . ومع أن مذهبهما كان يبدو لى — دائما — خطرا ، إلا أننى لم أستطع أن أجد قط ميلا إلى أن أوليهما كراهية صادقة !

ولكم أود أن أعرف ما إذا كان يطوف بقلوب الغير من الأفكار الصبائية ما يطوف بقلبي أحيانا . ففى غمرة دراساتي ، وفى سياق حياة بريئة إلى أقصى ما يستطاع ، وبالرغم من كل ما قيل لى ، فإن الخوف من الجحيم لا يزال يزعمنى أحيانا . وكنت أسائل نفسى : « فى أى حال أنا ؟ .. وهل أدان لو أننى مت فى هذه اللحظة ؟ » . وعلى هدى أساتذتى «الينسنين» ، لم يكن ثمة ريب فى الأمر . ولكننى كنت أرى الحكم يختلف ، على هدى ضميرى ! .. وإذا كنت دائما فى خوف ، اتخبط فى هذا التذبذب القاسى ، فقد أخذت الجأ — وأنا أبحث عن مخرج — إلى وسائل من ادعى الأمور للضحك ، وكنت من أجلها على استعداد لأن أحبس أى إنسان أراه يأتيتها ! .. ففى ذات يوم ، أخذت — بطريقة آلية ، وأنا أفكر فى هذا الموضوع المقبض — أرمى جذوع الأشجار بالأحجار ، بما كان لى من مقدرة على الرماية .. أعنى دون أن أصيب أيا منها تقريبا ! .. وفيما كنت فى غمرة هذا العمل الطريف ، خطر لى أن اتخذ منه لونا من الشعوذة كى أطامن قلقى . فقلت لنفسى : « سأرمى هذا الحجر نحو الشجرة المواجهة لى ، فإذا أصبت ، كانت الإصابة بشيرا بالنجاة ، وإذا أخفقت ، فقد حاقت بى اللعنة ! .. » . وفيما كنت أقول هذا ، طوحت بالحجر ، بيد مرتجفة ، وبخفقان عنيف فى القلب .. ولكنى بتوفيق بالغ ، حتى أن الحجر أصاب الشجرة فى منتصفها تماما ، وهو أمر — إن شئتم الحق — لم يكن بالعسير ، إذ أننى كنت قد عنيت باختيار شجرة غليظة الجذع جدا ، وقريبة جدا . ومنذ ذلك الوقت لم بعد يخالجنى

شك فى خلاصى ! .. ولست ادرى — وانا اذكر هذا الحادث —
الاضحك ام اتحسر على نفسى ! ان لكم — ايها الكبار ، الذين
تضحكون ولا شك — ان تطربوا ، ولكن .. لا تسخروا من
ضعفى او عيبنى ، فإني أقسم لكم إننى أشعر به تمام الشعور!

على أن هذه الاضطرابات ، وهذه الدموع التى قد لا يمكن
فصلها عن التقوى والإيمان ، لم تكن حالا دائمة . فقد كنت
— بوجه عام — موفور الهدوء ، وكان الأثر الذى خلفته فكرة
الموت المبكر فى نفسى ، أقل انتفاء إلى الحزن ، منه إلى الضعف
والاستكانة الوداعة ، التى كان لها سحرها الخاص .. ولقد
عثرت بين أوراق قديبة على قطعة رثاء كنت قد وجهتها إلى
نفسى ، أهنئها فيها على موتى فى سن يشعر عندها المرء بقدر
كاف من الشجاعة على مواجهة الموت ، دون أن أكون قد عانيت
هلا قاسية — بدنية كانت أو عقلية — خلال حياتى ! .. ولكم
كنت مصيبا ! .. كأنها كنت أرى مقدما المصير الذى كان فى انتظارى
العذاب ! .. لأبدا ما كنت قريبا من الحكمة بقدر ما كنت
فى تلك الفترة السعيدة ! .. فنى بعدى عن الحسرة البالغة على
الماضى ، وفى تحررى من هواجس المستقبل ، كان الشعور
الغالب على نفسى باستمرار هو شعور الاستمتاع بالحاضر .
ان الانتفاء يؤتون — عادة — قدرا ضئيلا من شهوة متأججة ،
تجعلهم يتنوثون فى استهزاء تلك الملاذ البريئة المباحة لهم .
ولكن الدنيويين يرون فى ذلك جرما من جانب الانتفاء . ولست
ادرى لذلك سببا .. لا ، بل أحسبني أعرف تمامها .. فهم

يحسدون الاتقياء على بهجة الملاذ السانحة التى فقدوا هم طعامها ! .. ولقد كان هذا الليل لى ، فوجدت من بواعث الغبطة أن أرضيه وأنا مطمئن الضمير .. وكان قلبى ما يزال غضا ، فأسلم نفسه إليه تها ، وفى فرح الطفل ، أو بالأحرى - إذا كان لى أن أجرؤ على القول - فى شبق الملاك ! .. فقد كان لهذه المتع الوادعة ، ما لمباهج الفردوس من سحر جليل ! .. كان تناول الغذاء على الحشائش فى (مونتانيول) ، وتناول العشاء تحت الخمائل ، وجنى الفواكه ، واقتطاف العنب ، والأمسيات التى كانت تقضى فى انتزاع ألياف القنب مع رجالنا .. كل هذه كانت أعيادا حافلة وجدت « ماما » فيها عين ما كنت أنا أجد من سرور .

وكانت النزاهات التى نقوم بها وحيدى ، ذات فتنة أشد وأكثر ، لأن القلب كان ينطلق متحررا . ولقد قمنا - فيما قمنا به منها - بنزهة تعتبر من المعالم فى ذاكرتى : كان ذلك فى يوم عيد للقديس لويس ، الذى سميت « ماما » باسمه ، وانطلقنا معا - وحيدى - فى البكور ، بعد قداس جاء أحد الرهبان « الكرملين » ليلقيه علينا - فى مطلع النهار - فى كنيسة صغيرة ملحقة بالدار . وكنت قد اقترحت أن نتمشى فى جانب الوادى المقابل للجانب الذى كنا فيه ، ولم تكن قد زرناه قط . فأرسلنا زادنا مقدما ، إذ كانت النزهة تستغرق اليوم بطوله . ولم تكن « ماما » ثقيلة فى سيرها ، رغم أنها كانت بدنية ، ممثلة الجسم ، فأخذنا ننقل من هضبة إلى هضبة ، ومن غابة إلى غابة ، فى الشمس حيناً وفى الظل أحيانا ، ونحن نستريح من



فاخذنا تنتقل من هضبة الى هضبة ، ومن غابة الى غابة فى الشمس
حيناً وفى الظل أحياناً .

٢٠٠ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثانى

آن إلى آخر ، وقد غفلنا تماما عن سير الزمن . وكنا نتحدث عن نفسيينا ، وعن رابطتنا الوثيقة ، وعن عذوبة نصيينا في الحياة ، رافعين — من أجل دوايمه — دعوات لم تستجب ! .. وكان كل شىء يبدو وكأنه يدبر فى الخفاء لجعل هذا النهار هنيئاً . وكان ثمة مطر قد تساقط منذ فترة قريبة ، فلا أثر لغبار .. كما كانت ثمة جداول جارية ، ونسيم يداعب أوراق الشجر . وكان الهواء نقيا ، والأفق خلوا من السحب، والسماء — كقلبيننا — يسودها الصفاء ! .. وتناولنا غدائنا فى دار أحد الفلاحين ، وقد تقاسمناه مع أسرته التى باركتنا وشكرتنا من صميم الأئدة . ما أطيب أولئك الفقراء من أهل (سافوا) !

وبعد الغداء ، لذننا بالظل تحت الأشجار الوارفة ، حيث رحت أتسلى بجمع بعض العيدان الخشبية الجافة لنعد قهوتنا، بينما كانت « ماما » تتلهى بتفقد الأعشاب بين الأدغال .. ورات الزهور التى كنت قد جمعتها أثناء الطريق ، فأخذت تلغى نظرى إلى الف غريبة وعجيبة فى تكوينها ، مما لذلى كثيرا ، ومما كان خليقا بأن يجعلنى أميل إلى علم النبات ، لولا أن أوان هذا الميل لم يكن قد حان ، فقد كنت منصرفا عنه إلى كثير من الدراسات الأخرى . وخطرت لى فكرة حولتنى عن الزهور والنباتات : فإن الجو الروحى الذى الفيتنى فيه ، وكل ما قلنا وفعلنا فى ذلك اليوم ، وكل الأشياء التى خلبت لى ، ذكرتنى بذلك الحلم الذى رأيته وأنا فى كامل اليقظة فى (أنيسى) قبل سبع أو ثمانى سنوات ، والذى رويته فى مكانه (١) . وكان الشسبه من القوة

(١) فى الكرامة الثالثة .

اعترافات جان چال روسو - الجزء الثانى ٢٠١

بحيث أننى حين تذكرت الحلم ، اهتزت مشاعرى تأثرا وانساب
دمعى .. وفى نوبة من الانفعال العاطفى ، عانقت تلك الحبيبة
الغالية ، وقلت لها فى وجد : « ماما ، ماما .. لقد كنت موعودا
بهذا اليوم منذ أجل طويل ، ولست أرى ما يفوقه ! .. إن
سعادتى — بفضلك — فى أوجها ، فليتها لا تتناقص بعد ذلك ! ..
ليتها تدوم طالما ظلت أنعم باستمرائها ! .. ليتها لا تنقضى إلا
مع انقضاء أجلى ! »

وهكذا أخذت تنساب أيامى السعيدة .. بل الأيام التى
كانت أكثر من سعيدة ، حتى أننى — لعجزى عن أن أثبت ما قد
يقوى على تعكيرها — كنت أتصور أنها لن تنتهى ، فى الواقع ،
إلا مع نهايتى ! .. وليس معنى هذا أن نبغ وسواسى كان قد
نضب تماما ، وإنما كان معناه أننى رأيت هذه الوسواس تتخذ
طريقا آخر مكثنى من أن أوجه أحزاني وآلامى إلى أهداف
نافعة ، جلبت عليها دواء ناجعا ! .. ولقد كانت « ماما » تحب
الريف بطبيعتها ، فوجد هذا الميل منى ما يذكيه . وما لبثت أن
انقلقت إليها — تدريجا — عدوى الشغف بالأعمال الريفية ..
وكانت تحب تقويم الأرض (١) ، كما كانت لديها — فوق هذا —
معرفة ومعلومات كانت تستغلها فى هذا الصدد باستمتاع .
ولم تقتنع بالأرض التى كانت تابعة للبيت الذى استولت عليه ،
بل إنها كانت تستأجر تارة حقلا ، وتارة مرجا . وانتهت إلى
أن ركزت روح ابتكار المشروع لديها فى الأمور الزراعية ، بدلا

(١) تدير ممتلكاتها ومزارعها .

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثاني

٢٠٢

من أن تبقى عاطلة في الدار . وبدأت تعمل لكي تصير - في القريب العاجل - مزارعة كبيرة !

ولم أكن أحب كثيرا أن أراها تتوسع في ذلك ، فرحت أمارضها فيه قصارى ما استطعت ، وأنا واثق تمام الثقة من أنها كانت دائما تغتر فخطيء ، وأن روحها المتحررة السخية كانت تحملها دائما على أن تنفق أكثر مما يعود عليها من إنتاج . على أنني وجدت عزاء في التفكير في أن هذا الإنتاج لن يكون معدوما - على الأقل - وأنه قد يساعدها على العيش . وبالنسبة إلى كافة المشروعات التي قدر لها أن ترسمها ، بدا لي هذا المشروع أقل إيقاعا للخراب بها . ومع أنني لم أر - مثلها - فيه موردا للريح ، إلا أنني رأيت فيه شاعلا يقيها باستمرار حيل المحتالين الخبيثة !

وبهذه الفكرة ، أصبحت أرغب كل الرغبة في أن أسترده قوتي وصحتي معا ، حتى يتسنى لي أن أسهر على أعمالها ، وأن أغدو رئيسا لعالمها ، أو العامل الأول في خدمتها . ومن الطبيعي أن المران والرياضة اللذين حملتني هذه الرغبة على القيام بهما ، أصبحا ينتزعاني في كثير من الأحيان من كئيب ، ويشغلاني عن حالي الصحية ، مما كان خليقا بأن يسير بها نحو التحسن !

من سنة ١٧٣٧ إلى سنة ١٧٤١

عاد « باريو » من إيطاليا في الشتاء التالي ، وقد جلب لي معه بعض الكتب ، منها كتابا للأب بانشيرى : « بونتبي » و « كارتلا بير ميوزيكا » ، اللذان حببا إلي دراسة تاريخ

الموسيقى ، والأبحاث النظرية فى هذا الفن الجليل ، وبقى « باربيو » معنا فترة من الزمن . ولما كنت قد بلغت سن الرشد قبل ذلك ببضعة أشهر ، فقد اتفقنا على أن أذهب إلى (جنيف) فى الربيع التالى ، لأطالب بثروة أبى ، أو لأطالب — على الأقل — بذلك النصيب الذى خصنى منها ، ريثما نستبين ما ألم بأخى . ونفذت هذه الخطة كما اتفقنا ، فذهبت إلى جنيف حيث لحق بى أبى ، وكان قد ألف منذ فترة طويلة أن يزور المدينة دون أن يحتك به أحد ، بالرغم من أن الحكم الذى صدر عليه كان ما يزال قائما . ولكن أبى كان موضع التقدير لبعالته ، والاحترام لأمانيه ، فتظاهر أولو الأمر بأنهم نسوا قضيته الصغيرة . وكان الحكام فى شغل شاغل بالمشروع العظيم الذى بزغ فجره بعد ذلك بقليل ، ولذلك أبوا أن يثيروا ثائرة الطبقات الوسطى قبل الأوان ، بأن ينكروهم بتحزيبهم السابق فى لحظة غير مواتية .

وخشيت أن تقوم فى وجهى الصعوبات بسبب ارتدادى عن مذهبى ، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث ، فقوانين جنيف فى هذا الشأن ليست فى صرامة قوانين (برن) ، حيث يفقد من يرتد عن دينه لا منزلته فحسب بل أملاكه أيضا . ولم يكن ثمة نزاع فى حقى ، إلا أن الميراث نفسه ، لسبب لا أندركه ، تضاعف إلى مبلغ تافه . ومع أن أخى كان — فى غالب الظن — قد لقى ربه ، إلا أنه لم يكن ثمة دليل قانونى على هذا . لم يكن عندى من الأسانيد ما يكفى لأن أطالب بنصيبه ، فتركته عن طيب خاطر لأبى يستعين به على حياته ، وقد كان له حق المنفعة طالما هو على قيد الحياة . وما أن تمت الإجراءات القانونية وتسلمت

بالمى حتى أنفقت شيئا منه فى شراء بعض الكتب ، وهرعت إلى «ماما» أضع الباقي تحت قدميها ، وكان قلبي يطفح بشرا أثناء الرحلة . وفى اللحظة التى وضعت فيها هذا المال فى يدها، كنت أسعد ألف مرة من اللحظة التى تسلمته فيها ! .. وتقبلت هى المال قبول النفس السامية الرفيعة ، التى لا تجد من العسر عليها أن تأتى مثل هذا الفعل ، فلا يدهشها أن يعاملها الغير نفس المعاملة .. وقد أنفقت المال كله تقريبا على شخصى ، بنفس تلك البساطة التى اتسمت بها . ولو كان هذا المال قد جاء من مصدر آخر لأنفقته على نفس هذه الصورة !

ولم أكن ، فى ذلك الوقت ، قد استعدت صحتى تماما ، بل — على العكس — كنت أنوى وأذبل بشكل واضح ! .. كنت فى شحوب الموتى وهزال الهيكل العظمى ، وكانت ضربات فروقى نظيعة لا تحتل ، وازدادت نبضات قلبي ، وكنت أعانى على الدوام من عسر التنفس .. وازددت ضعفا آخر الأمر حتى كنت لا أكاد أستطيع الحراك .. كنت لا أستطيع أن أعذ السير إلا وأشعر بالاختناق ، ولا أنحنى دون أن يصيبني الدوار، وتعذر على رفع أصغر الأثقال ، فأكهرت على البقاء ساكنا جامدا ، وهو أكبر عذاب يصيب رجلا فى مثل قلتي وضجري . ولا شك فى أن مرضى كان مرده (الهستيريا) إلى حد كبير، فكأننى قد بليت بذلك المرض الذى لا يصيب إلا السعداء ! .. فالدموع التى كثيرا ما كنت أنرفها دون سبب يدعو إلى البكاء .. وفرحتى وافتتاني بحفيف ورقة من أوراق الشجر ، أو تفريد طائر طروب .. ومزاجي المتقلب فى حياة بلغت ذروة الهناء

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى ٢٠٥

كل هذه كانت دلائل على كلال من تأثير السعادة يؤدي إلى حساسية مفرطة . ونحن لم نقزود للسعادة في هذا العالم إلا بالقليل ، مما يقتضى أن يعانى الروح أو الجسم . . إذا لم يعانينا معا . . وسعادة الواحد منها تؤذى الآخر دائما تقريبا . وبينما كنت مستطيعا أن أنعم بحياتى في سعادة تامة ، فإن انحلال جهاز جسمى كان يحول بينى وبين ذلك ، دون أن يستطيع أحد أن يدلنى على موضع الداء منى . ويبدو أن جسمى قد استعاد فيها بعد قوته ، بالرغم من التداعى الذى أحسسه في كبرى وآلامى المبرحة الحقيقية التى أصبحت في الكبر أشد قوة وتبريحا . واليوم ، وأنا اكتب هذه السطور ، وقد نال منى الضعف وبلغت الستين من عمرى أو أكاد ، وغلبتنى الآلام من كل نوع على امرى ، أشعر أن في كيانى من الحياة والقوة على احتمال الآلام ، أكثر مما كان لدى من الحياة والقوة على الاستمتاع — في ميعة الصبا — في غبرة من أصدق آيات السعادة .

ورغبة في إذلال نفسى إذلالا تاما ، شرعت — بعد أن قرأت شيئا من الفلسفة — في دراسة التشريح ، وعرفت عدد الأعضاء المستقلة التى يتألف منها جهاز جسمى ووظائفها . وكنت أميل للشعور ، عشرين مرة في اليوم ، بأن الخل قد دب في أعضائى جميعا ، ولم يكن يذهلنى قط أن أجدنى في حالة احتضار ، وإنما كان يدهشنى أننى ما زلت قادرا على الحياة ! وكنت أعتقد أننى مصاب بكل مرض اقرا أوصافه ، وإنى لمقتنع بأننى لو لم أكن مريضا فقد جعلتنى هذه الدراسة القاتلة كذلك . . فلقد كنت

أجد فى الأعراض التى تنتابنى أعراض كل علة ، فحسبتهى مصابا بالعلل جميعا ! .. وبذلك انتابنى مرض ، هو أقسى الأمراض جميعا ، وكنت أظننى براء منه .. وأعنى به الرغبة الملحة فى أن أشفى ، وهى رغبة يتعذر على المرء أن يفلت منها إذا ما بدأ فى قراءة الكتب الطبية ! .. وانتهيت بشئ من البحث والقائل والمقارنة إلى أن أساس مرضى هو « ورم ليفى فى القلب » ! .. وقد لاح على سالوهمون نفسه أن الفكرة أذهلته ، ولئن كان من الواجب أن تؤيدنى هذه الافتراضات تأييدا معقولا فى قراراتى السابقة ، إلا أن الحال لم تكن كذلك ، فقد بذلت كل ما وسعنى من جهد عقلى لاكتشف طريقة علاج الورم الليفى الذى يصيب القلب .. وقد صح منى العزم على أن أتكفل بهذا العلاج الرائع .

ولقد ثيل للتعس « آتية » فى رحلته إلى (مونبيليه) لزيارة حدائق النباتات ومسيو سوفاج — المعيد — بأن مسيو فيز قد شفى مريضا بهذا الورم الليفى ، وكان هذا كافيا لأن يوحى إلى برغبة ملحة فى أن أقصد مسيو فيز للاستشارة .. فقد أعاد الأمل فى الشفاء إلى نفسى الشجاعة وزودنى بالقوة على تجشم مشاق الرحلة ، وكان المال الذى جئت به من جنيف عونى على ذلك . وشجعتنى « ماما » على الذهاب ، وهى أبعد الناس عن أن تحاول إثنائى عن عزى .. وهكذا وجدتنى فى طسريقى إلى (مونبيليه) ! وما كانت بى حاجة لأن أذهب إلى هذا المكان النائى سعيا وراء الطبيب الذى أنا فى حاجة إليه ! .. واستقلت عربة فى (جرينوبل) — إذ كان ركوب الجيئاد يتعبنى كثيرا — فوصلت إلى (موران) — بعد عربتى — خمس أو ست عربات

فغيرها ، الواحدة في أثر الأخرى .. وكان معظم هذه العربيات جزءا من موكب عروس زفت حديثا اسمها السيدة « دى كولمبيه » ، وكانت ترافقها سيدة أخرى هي السيدة « دى لارناج » ، أصغر منها سنا ، وإن لم تكن جذابة في ملامحها مثلها هي في ظرفها .. وكانت تنوى أن ترتحل من (رومانس) — وهى المدينة التى ستتوقف فيها السيدة « دى كولومبيه » — إلى مدينة (سانت أندبول) قرب (سان اسبرى) . ونظرا لما طبعت عليه من خجل ذاع صيته ، فلا تحسبن أننى تعرفت بهاتين السيدتين الظريفتين وحاشيتهما بسهولة .. ولكننى كنت أسافر فى نفس الطريق الذى يسافرون فيه ، وأنزل فى الفنادق نفسها التى ينزلون فيها ، فخشيت أن يقال عنى إننى أبعث على السأم والملالة ، وكنت مكرها أيضا على الجلوس معهم إلى مائدة واحدة .. فوجدت من المستحيل على آخر الأمر أن أتجنب التعرف بهم ، ففعلت هذا .. تعرفت بالسيدتين بأسرع مما كنت أريد ! .. وبرغم أن كل هذه الضوضاء لم تكن لتناسب رجلا مريضا ، وخاصة إذا كان فى مثل مزاجى ، إلا أن حب الاستطلاع يجعل هذه المخلوقات المكررات غاية فى الإغراء ، حتى أنهن عندما يردن التعرف برجل ، يبدأن فى امتلاك لبه ، وهذا ما وقع لى ! .. بيد أنه كان يحيط بالسيدة دى كولومبيه بعض الشبان المتأنقين ، إحاطة السوار بالعصم ، مما لم يفسح لها الوقت للتعرف بى .. أضف إلى هذا أن الأمر لم يكن ليستحق منها التفاتا طالما أننا كنا على وشك الافتراق . ولكن السيدة « دى لارناج » ، ولم يكن ليحيط بها هذا القدر من

المعجبين ، كان لا بد لها أن تتزود لرحلتها بما يلزم ، وهكذا كانت السيدة « دى لارناج » هى التى أخضت على عاتقها إذن أن تغزو قلبى .. ومنذ ذلك الحين ، وداعا لجان جاك المسكين - أو على الأصح وداعا للحمى والهستيريا والورم الليفى - وداعا لكل شيء وأنا فى صحبتها ، فيها عدا بعض نبضات القلب التى بقيت ، والتى لم يبد منها أى ميل لشفائى منها . وكان سوء حالتى الصحية هو أول موضوع تطرقنا إلى الحديث فيه . لقد كانتا تريان أننى مريض وتعلمان أننى ذاهب إلى (مونيبييه) ، ولا بد أن مظهرى وأخلاقى قد جعلت من الواضح أننى لست خليعا .. ذلك أنه تبين لى ، مما تلا من الحوادث ، أنها لم تشبها فى أننى ذاهب إلى مونيبييه لكى أعالج من نتائج الخلاعة . ومع أن سوء الصحة ليس مما يحبب النساء كثيرا فى المرء فقد أثار سقمى اهتمام هاتين السيدتين ، فكانتا ترسلان إلى فى الصباح تسألان عن حالى وتدعوانى إلى تناول الشكولاتة معها ، وتسألانى كيف قضيت ليلتى .. وذات مرة أجبت بأننى لا أدرى ، على ما ألفت فى عادتى الحميدة من الكلام دون تفكير ، فحملها هذا الرد على الاعتقاد بأننى مجنون ، وشرعتا تفحصاننى بدقة أكثر . ولم أصب من ذلك بضرر ، وإن سمعت السيدة « دى كولومبييه » تقول مرة لصديقتها : «إنه لا خلاق له ولكنه ظريف » ، وقد شجعتنى هذه الكلمات كثيرا ودعتنى إلى العمل بمقتضاها !

وإزدادت علاقتنا توثقا ، فاضطرت إلى أن أتحدث عن نفسى ، وأن أفصح عن أكون ومن أين أتيت . وقد سبب لى هذا شيئا من الحيرة والارتباك ، لأننى أدركت بوضوح أن كلمة

اعترافات جان چال روسو - الجزء الثانى ٢٠٩

«مرتد» ستقضى على سمعتى فى الطبقة الراقية وبين السيدات المهذبات ، ولست أدري أية نزوة غريبة تلك التى تملكنى وجعلتنى أقول إننى إنجليزى ، ووصفت نفسى بأننى يعقوبى ، وسميت نفسى « دودنج » ، فأخذنا تدعوانى بالمستر دودنج ، وكان معنا شخص لعين هو « المركيز ده تورنيان » ، وكان مريضا مثلى ، إلا أن كبر سنه وسوء خلقه كانا ضغنا على إيالة . وقد استبدت به رغبة فى محادثة مستر دودنج ، وحدثنى عن الملك جيمس وعن مدعى العرش وبلاط سان جرمان القديم . وكنت على أحر من الجهر ، فإننى لم أكن أعرف شيئا عن كل هذا اللهم إلا القليل الذى قرأته فى كتاب الكونت هاملتون وفى الصحف ، ولكنى أحسنت استخدام ما كان فى جعبتى من معلومات ضئيلة حتى خرجت من ورطتى . . . ولحسن الحظ لم يسألنى أحد عن اللغة الإنجليزية التى لم أكن أعلم منها كلمة !

وكنا على أطيح ما تكون العلاقات والود ، ننظر إلى غراقتنا نظرة أسف وحسرة ، وكنا نساغر نهرا ، وفى صباح يوم أحد وجدنا أنفسنا فى (سان مارسيلان) ، وأبدت السيدة « دى لارناج » رغبتها فى حضور القداس ، فصحبنا ، مها كاد يفسد خطتى : فقد مارست طقوس القداس كما كنت أفعل دائما ، واستنتجت هى من سلوكى المتواضع المتحفظ أننى من المتعبدین ، فساعت فكرتها عنى — كما اعترفت لى بعد ذلك بيومين ! — وقد اقتضائى الأمر قدرا كبيرا من الكياسة كى أحو. هذه الفكرة السيئة ، أو بالأحرى أن السيدة دى لارناج وهى المرأة المحنكة الخبيرة التى لا يدركها اليأس سهولة — (م ١٤ - اعترافات - ج ٢)

٢١٠ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثاني

كانت على استعداد لأن تخاطر بالقود إلى لتري كيف انقذ نفسي .. وقد أسرفت في التودد حتى أنتى ، وأنا الذى لا أغالى في تقدير مظهرى الشخصى ، اعتقدت أنها تسخر منى ، وتملكنى هذه الفكرة حتى لم يبق ضرب من ضروب الطيش والرعونة لم ارتكبه ! .. لقد كنت في ذلك أسوأ من المركيز دى ليجز (١) ، وكانت السيدة دى لارناج ثابتة العزم ، فحاولت إغرائى كثيرا ، وكانت تحادثنى في رقة بالغة ، حتى أن رجلا أحكم منى كان يجد من الصعب عليه أن يأخذ هذا كله مأخذ الجد ! وكلما ألحت في سعيها ازداد يقينى بفكرتى ، والذى عذنى أكثر فأكثر أنتى أصبحت جادا في ولعى بها ، فقلت لها - ولنفسى - في تأوه : « آه ! لو أن كل ما تقولينه كان صحيحا ، لكنت أسعد مخلوق ! » . واعتقد أن بساطتى المجردة إنما خبيت ظنها ، ولكنها لم تكن مستعدة للاقرار بالهزيمة !

وكنا قد تركنا السيدة دى كولومبيه وحاشيتها في (رومانس) ، وتابعنا المسير في بطء ونحن في غاية السرور - السيدة دى لارناج والمركيز دى تورنيان وأنا - وكان المركيز ، بالرغم من أنه رجل مريض كثير التأفف والتذمر ، كيسا ظريفا ، غير أنه لم يكن مما يغتبط له أن يرى غيره من الناس يتمتعون ، دون أن يستطيع هو تذوق المتعة مثلهم ! .. ولم تعن السيدة دى لارناج إلا قليلا

(١) شخصية في كوميديا « ماريغو » ، أحب لأول مرة وكان في غاية الخل من أن ييوح بحبه ، في حين أن شخصية الكونتس كانت على النقيض من شخصيته تماما ..

بإخفاء ميلها إلى ، حتى أنه كان أسرع منى فى ملاحظته . وكان يجب أن تزودنى تهكماته الخبيثة على الأقل بالثقة التى لم أكن لأجرؤ على استخلاصها من تودد السيدة إلى ، لولا أننى ظننت — فى روح من العناد ، كنت أنا وحدى قادرا عليها — أنها قد اتفقا على أن يلهوا على حسابى ! وأدارت هذه الفكرة السخيفة رأسى تماما آخر الأمر ، وجعلتنى ألعب دور الفر الأبله فى موقف ربما أمرنى فيه قلبى — وقد تملك الحب شغافه — بأن أتصرف تصرفا أفضل من هذا التصرف بكثير . ولست أدرى كيف أن السيدة دى لارناج لم يملكها النفور من كآبتى بحيث كانت تنأى عنى وهى تزدرينى أشد الازدراء ، وإنما كانت امرأة بارعة تفهم من تعامل من الناس ، فرأت فى وضوح أن مسلكى كان يتسم بالغباء أكثر مما يتسم بفتور الهمة !

وأفلحت المرأة آخر الأمر ، وبشئ من المشقة ، فى البوح بما يكنه صدرها ، وكنا قد بلغنا (فالانس) فى موعد الغداء وبقينا بها — وفقا لعاداتنا الحميدة — بقية النهار ، وحططنا رحالنا خارج المدينة ، فى (سان جاك) — ولن أنسى هذا الفندق أو الغرفة التى كانت تنزل فيها السيدة دى لارناج ! — وقد أرادت أن تقوم بنزهة بعد الغداء ، وكانت تعلم أن المريكز ليس مولعا بالسير ، وكان هدفها من ذلك أن تنفرد بى ، وبيتت أن تنتفع بخلوتها معى أكبر انتفاع ممكن، ذلك أنه لم يبق ثمة وقت تضيقه، إن كان قد بقى شئ من الوقت تنتفع به . . وسرنا حول المدينة وعلى طول الخنادق ، وعدت ألقى على مسامعها قصتى الطويلة من أمراضى ، فكانت تجيب عليها فى رقة بالغة، وتضغط أحيانا

بذراعى على قلبها ، حتى أنه لم يكن يحول بينى وبين الاقتناع بأنها تجد فى حديثها إلا غباوة كغباوتى ! .. أما الأمر الذى لم يحسب حسابه فهو أن الحب كان قد نال منى منالا عظيما ، فلقد سبق لى أن قلت إن السيدة كانت ظريفة ، وقد جعلها الحب فاتنة ، وأعاد إليها كل بهائها فى صدر شبابها ، وكانت تصطنع فى توددها من المكر والدهاء ما كان خليقا بأن يغرى رجلا من أوسع الرجال خبرة وتجربة . وكنت قلقا مضطربا ، وكثيرا ما هممت بأن أتجاوز معها حد الأدب ، لكن الخوف من إساعتها أو إغضابها ، بل والخوف الأكبر من أن أصبح موضعا للسخرية والاستهزاء ، وأن أزود المائدة بقصة تروى عنى ، وأن يهنتنى المركز العاتى — الذى لا يرحم — على بسالتي ، كل ذلك عاقنى وأثار غيظى من خجل الأخرق وعدم استطاعتي التغلب عليه ، فى حين كنت أنحى على نفسى باللائمة من جرائمه .. لقد كنت فى عذاب اليم ، وكنت قد نبذت كلامى الذى يغلب عليه الحياء ، فقد شعرت بسخافته بعد أن قطعت من الطريق هذا الشوط الكبير . ولكنى ، وقد انتابتنى الحيرة فلم أعرف كيف أتصرف أو ماذا أقول، لزممت الصمت وعلت وجهى الكآبة . ومجمل القول أننى فعلت كل ما من شأنه أن يصيبنى بالمعاملة التى كنت أخشأها ! .. على أن السيدة دى لارناج كانت لحسن الحظ رحيمة رؤوفة ، فقطعت حبل السكون فجأة بوضع ذراعها حول رقبتى ، ثم حدثنى فيها — وقد أطبق على فمى — فى لغة صريحة واضحة لم تدع لى مجالا لى شك بعد ذلك . وما كانت الأزمة لتقع فى لحظة أسعد من تلك اللحظة ،

فلقد أصبحت ظريفا ، ومنحتنى ثقتهما ، وهى التى حال افتقارى إليها دائما دون أن أكون طبيعيا . أما فى هذه المرة ، فقد كنت على سجيى ، ولم يحدث أن أجادت عيناى ومشاعرى وقلبى ، فى الحديث ، مثل هذه الإجابة ! .. كما لم يحدث لى من قبل أن أصلحت أخطائى هكذا تماما .. وإذا كانت هذه المغامرة الصغيرة قد كلفت السيدة دى لارناج شيئا من الجهد والتعب ، فعندى من الأسباب ما يحملنى على الاعتقاد بأنها لم تندم عليها !

ولو أننى عشت مائة عام لما استطعت أن أفكر قط فى هذه المرأة الفاتنة دون فيض من السرور يطفى على ! وأنا أصفها بالفتنة ، لأنها وإن لم تكن بالصغيرة أو الجميلة فإنها لم تكن أيضا بالعجوز ولا بالديمية ، ولم يكن فى وجهها ما يحول دون أن يظهر نكاؤها وظرفها فى أبهى حللها . ونحن إذا قارناها بمقارنة مستفيضة بغيرها من النساء لوجدنا أن أقل ما يتصف بالنضارة وجهها ، وأعتقد أنها أفسدته بها كانت تصبغه به من المسحوق الأحمر (الراج) .. وقد كانت ثمة أسباب لاستهانتها بفضيلتها ، فقد كانت هذه خير وسيلة تؤكد بها مفاتنها . كان من الممكن أن تنظر إليها دون أن تحبها ، ولكن ما كنت لتستطيع أن تملكها دون أن تعبدتها ، ويلوح لى أن هذا من شأنه أن يثبت أنها لم تكن تسرف دائما فى حبها إسرائفا فيه معنى .. لقد كان توددها إلى مفاجئا حيا ، حتى ليتعذر على أن أجدر عذراء يبرره ، سوى أن قلبها كان له فى ذلك نصب كصيب حواسها . وفى الفترة الوجيزة اللذيذة التى قضيتها معها ،

اجتمعت لى أسباب ذلك الاعتدال الذى أرغمتنى عليه وفرضته على غرضا ، فإنها — برغم كونها شهوانية جياشة العاطفة — كانت تفكر فى صحتى أكثر مما تفكر فى متعتها !

ولم يفت التركيز ما كان بيننا من تفاهم ! على أنه لم يكف من المزاح معى ، بل أنه على النقيض كان يعاملنى — أكثر من ذى قبل — معاملة العاشق البالغ الحياء ، شهيد قسوة السيدة وصدودها ! ولم تكن تفلت منه كلمة أو ابتسامة أو نظرة تدعنى اشتبه فى أنه قد كشف أمرنا . . بحيث كان لى أن اعتقد أننا خدعناه ، لولا أن السيدة دى لارناج ، وكانت أكثر منى فطنة وحذقا ، أخبرتنى بأن الحال ليست كما وصفت ، بل إنه كان رجلا شهما من أصحاب المروءة والنبل . . والواقع أنه ما من أحد كان يظهر ما أظهر من أدب ، أو يتصرف فى كياسة أكثر مما كان يتصرف هو دواما ، حتى نحوى أنا — فيما عدا تهكمه ، وخاصة بعد نجاحى — ولعله كان يعزو الفضل فى ذلك إلى ، واعتبرنى شخصا غير ذلك الأحمق الذى كنت أبدوه — وقد كان فى ذلك مخطئا ، كما مر بنا ! — ومهما يكن من أمر فقد انتفعت بخطئه . ومن الحق أن أقول إننى ، وقد انقلبت كمة الميزان ، كنت أحتمل نكاته بصدر رحب وسماحة ، بل كنت أجيبه عليها — والسعادة تغلب على — فخورا بأن أكتشف أمام السيدة دى لارناج تلك الفطنة التى وصفتنى بها ، بعد أن لم أعد الرجل الذى كنته !

ولقد كنا فى الريف ، وفى فصل تشيع فيه البهجة ، واستمتعنا به غاية الاستمتاع بفضل التركيز ، ولو أتى كنت

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى ٢١٥

مستطيعا أن أستغنى عن عنايته بنا ، تلك العناية التى امتدت حتى شملت مخادعنا ، فقد كان يرسل خادمه ليحجز لنا حجراتنا مقدما . وكان هذا الوغد — إما من تلقاء نفسه أو بناء على أوامر المركز — يحجز لسيدة دائما غرفة مجاورة لغرفة السيدة دى لارناج ، فى حين يلتقى بنا فى الطرف الآخر من الفندق ! .. على أن هذا لم يسبب لى من الحرج إلا القليل ، بل أضاف إلى فتنة مقابلتنا .. ودامت هذه الحياة البهجة السعيدة أربعة أو خمسة أيام ، ثلث خلالها بأحلى اللذات ! كانت لذة حية لا زيف فيها ، ولم تشبها أقل شائبة من الألم .. أول وآخر ما نعمت به من هذه المتعة ! .. ولا يسعنى إلا القول بأننى مدين للسيدة دى لارناج بأننى لن أرحل عن هذا العالم دون أن أعرف طعم المتعة واللذة !

لم يكن شعورى نحوها هو الحب بمعناه ، وإنما كان على الأقل مجاوبة رقيقة للحب الذى تظهره لى .. وكانت هى ملحة فى إشفاء غليلها من الصلة الجنسية ، حلوة فى مهارستها ، بحيث جعلت فيها كل ما يكون فى الهوى من فتنة وسحر ، مجردين من ذلك الهذيان الذى يدير العقل ويفسد المتعة . إننى لم أشعر بالحب الصادق إلا مرة واحدة فى حياتى ، ولم يكن هذا معها ، بل إننى لم أحبها كما أحببت وما زلت أحب مدام دى فاران ، ولكن امتلاكها كان يضىء على من المتعة ما يفوق متعنى مع الأخرى مائة مرة ! .. لقد كانت متعنى مع « ماما » يشوبها دائما شعور بالحزن .. شعور دفين بالضيق ، موضعه القلب . وهو شعور كنت أجد صعوبة فى التغلب عليه ، بحيث أننى بدلا من

تهنئة نفسى على امتلاكها كنت أنحى على نفسى باللائمة لإذلالها وتحقيرها ! .. أما مع السيدة دى لارناج فقد كنت ، على العكس ، فخورا بـرجولتى وبسعادتى .. وأطلقت لنفسى العنان ، فى اطمئنان وفرح ، لإشباع رغباتى . ولقد شاركتها الشعور الذى بعثته فيها ، وكنت امتلك زمام نفسى ، وانظر إلى فوزى نظرة الارتياح النفسى التى أنظر بها تهما إلى المتعة ، واستمد منها الوسيلة التى نعيننى على مضاعفتها !

ولا اذكر متى تركنا المركز — الذى كان من اهل المنطقة — غير اننا كنا وحدنا عندما بلغنا (مونتيليمار) ، حيث أمرت السيدة دى لارناج خادمتها بأن تستقل عربتى، بينما ركبت أنا عربتها، واستطيع أن أوكد لكم أننا بهذه الطريقة لم نجد الرحلة شاقة . وإنى لاجد من الصعب على أن أصف المنطقة التى اجتزناها ، وقد بقيت السيدة فى (مونتيليمار) ثلاثة أيام، لبعض شئونها ، على أنها لم تتركنى خلالها إلا ربع ساعة قامت فيها بزيارة ، عادت عليها بدعوات عاجلة ملحة . ولم تكن ميالة بأى حال من الأحوال لقبول هذه الدعوات ، فزعمت أنها متوعدة المزاج، على أن هذا لم يحل بيننا وبين السير سويا وحدنا — كل يوم — فى أجمل بقعة من بقال الريف ، وفى ظل أجمل سماء فى العالم .. واحسرتاه على تلك الأيام الثلاثة ! لقد جد فى حياتى من الأسباب ما دعانى للندم عليها أحيانا ! فما استمتعت قط بمثلها بعد ذلك !



والحب أثناء السفر لا يمكن أن يدوم ، وهكذا اضطررنا للافتراق .. وأعترف إن الوقت كان قد حان لذلك ، لا لأننى

أفعمت وزهدت ، أو لسبب من هذا القبيل ، بل إنى كنت أزداد ولعاً بها يوماً بعد يوم ، غير أنى بالرغم من حرصها . ثم يبق لى — فيما خلا صفاء النية — إلا القليل . وقبل أن نفترق أردت أن استمتع بذلك القليل ، فأذعنت هى لرغبتى ، على سبيل الاحتياط من غادات (مونبيليه) . وتحاولنا على ما كان يعترينا من أسى بإعداد العدة للمقابلة مرة أخرى . . وكان قد تقرر أن أستمتر فى العلاج ، الذى أفادنى فائدة عظمى ، وأن أقضى الشتاء فى (سانت انديول) تحت رعايتها ، على أن أبقى خمسة أسابيع أو ستة فقط فى مونبيليه ، حتى أفسح لها الوقت، لكى تعد الترتيبات التمهيدية الضرورية ، منعا للفضيحة . وقد لقننى التعليمات المفصلة عما كنت بحاجة إلى معرفته ، وعما يجب أن أقول والكيفية التى يجب أن أتعرف بها عليها ، وكان علينا فى الوقت نفسه أن نتبادل الرسائل . وقد حدثنى طويلاً فى جد واهتمام عن وجوب العناية بصحتى ، ونصحتنى بأن استشير بعض الأطباء الماهرين وأن أعنى باتباع ما يشارون به ، وأخذت على عاتقها أن تجعلنى أنفذ تعليماتهم ، مهما كان من صرامتها: طالما أنا معها . وأعتقد أنها كانت تتحدث فى صدق وإخلاص ، إذ أنها كانت تحبنى ، وقد زودتنى بالأدلة الكثيرة على ذلك ، التى يعتمد عليها أكثر من الاعتماد على هبتها نفسها لى . . . وقد أمكنها أن تحكم من طريقة سفرى بأننى لم أكن أتمرغ فى المال ، ومع أنها هى أيضاً لم تكن بالموسرة بأى حال من الأحوال إلا أنها كانت تريد أن تقاسمنى ما فى كيس نقودها ، وكانت قد جاءت به مليئاً من (جرينويل) . . وقد وجدت مشقة عظيمة

في حملها على قبول اعتذارى ، وتركتها أخيرا ، تاركا في قلبها —
فيها أعتقد — حبا صادقا لي !

وانتهت رحلتى ، بينما كنت أستعديها في ذاكرتى منذ
البداية ، وكنت قانعا في تلك اللحظة كل القناعة بأن أجلس في
عربة مريحة أحلم ، في راحة ويسر ، بالمتع التى كان من نصيبى
أن أنعم بها ، وبذلك التى وعدتني بها . لم أكن أفكر إلا في (سلنت
انديول) والحياة البهيجة التى كانت تنتظرني فيها ، ولم أكن أرى
إلا السيدة دى لارناج وبيتها . . أما بقية العالم فلم تكن
بالنسبة لى شيئا مذكورا ، حتى « ماها » نسيبتها ، واستغرقت
في التفكير في كافة التفاصيل التى نكرتها لى السيدة دى لارناج
حتى توحى إلى مقدا بفكرة عن منزلها وعن جيرانها وأصدقائها
وطريقة حياتها . وكانت لها ابنة ، كثيرا ما حدثتني عنها في
عبارات من الحب أسرفت فيها كل الإسراف ، وكانت ابنتها
هذه في السادسة عشرة من عمرها ، رشيقة فائقة ودود .
ووعدتني السيدة دى لارناج بأننى سأكون ولا شك صاحب
الخطوة الكبرى عندها . ولم أنس هذا الوعد ، وقد استبدبى
الفضول لى أرى كيف تتصرف الآنسة دى لارناج نحو صديق
أماها الحميم ! كانت تلك هى أحلامى من (بون سان أسبرى)
حتى (ريمولان) . . ولقد قيل لى أن أذهب وأشهد «بون دوجار»
(جسر الحرس) . ولم يفتنى أن أفعل ، فلقد كان الجسر هو
الأثر الرومانى الأول الذى شاهدته . وانتظرت أن أرى نصبا
جديرا بالأيدي التى أقامته . . وللمرة الاولى والأخيرة في حياتى

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى

٢١٩

جاوزت الحقيقة ما كنت أتخيل : لم يكن يستطیع غير الرومان إقامة هذا الأثر الخالد !

لقد أثر فى نفسى منظر هذا العمل البسيط ، النبيل مع ذلك ، أعظم تأثير .. ذلك أنه كان يقوم فى قلب الصحراء ، حيث السكون والوحدة يبرزان الأشياء إبرازا عظيما ويثيران شعورا بالإعجاب أقوى وأشد ، إذ أن هذا الجسر المزعوم لم يكن إلا مجرى ماء فوقه قناطر ، ومن الطبيعى أن يتساءل المرء أية قوة تلك التى نقلت هذه الأحجار الضخمة إلى هذا المكان النائي عن أى محجر من المحاجر ، وتمثلت فى أذرع الآلاف المؤلفين من الرجال فى بقعة لا يقيم أحد منهم فيها !

واجتزت الطبقات الثلاث التى كان يتألف منها هذا البناء البديع ، وكنت أشعر داخلها باحترام كاد يمنعنى من أن أطأها بقدمى ! وحملنى صدى وقع قدمى تحت هذه الأتربة العظيمة على أن أتخيل أننى أسمع الأصوات القوية لأولئك الذين أقاموا صرحها ! شعرت أننى ضائع فى وسط هذه العظمة كأننى الحشرة ، وشعرت بالرغم من إحساسى بضالتي كأن روحى قد سميت بطريقة ما ، وقلت أحدث نفسى وأنا أتأوه : « لماذا لم أولد رومانيا ؟ » ، وبقيت فى ذلك المكان بضع ساعات فى تأمل يذهل العقل ، وعدت وأنا سارح الفكر ، ولم يكن شرود الفكر ليوافق السيدة دى لارناج ، وهى التى عنيت بأن تحذرنى من فتيات (مونبيليه) ، لا من جسر الحرس .. لكن المرء لا يفكر فى كل شيء !

وفى (نيم) ، ذهبت لأشاهد الملعب المدرج ، انه عمل أنثر روعة بكثير من جسر الحرس ، إلا أن تأثيره على كان أقل بكثير من تأثير الجسر . . فلما أن الجسر قد استنفد كل إعجابى ، أو أن المدرج ، وهو يقع فى وسط المدينة ، كان أقل من أن يثير إعجابى ! لقد كانت تحيط بهذا الميدان البديع الفسيح الأرجاء منازل صغيرة قبيحة ، وامتلأت الحلبة بهنازل أخرى ، أصفر واقتبح ، حتى أن المنظر كله كان يبعث فى النفس الشعور بالاضطراب وعدم التناسق ، كما كان النفور يخذل المتعة والدهشة ، وقد رأيت منذ ذلك الحين ملعب « فيرونا » وهو أصفر بكثير وأقل مهابة وجلالا ، ولكنهم احتفظوا به فى أكبر قدر ممكن من النظافة والانتافة ، ولهذا السبب وحده أثر فى تأثيرا أبلغ وأقوى ، ووقع من نفسى موقع القبول . . إن الفرنسيين لا يعنون بشئ ولا يحترمون النصب ، وهم توافقون أشد التوق للقيام بأى عمل ، ولكنهم لا يعرفون كيف يتمونه أو كيف يحفظونه سليما إذا ما انتهوا منه !

لقد تبدلت حالى كثيرا ، واستيقظت أحاسيسى — وكانت قد تنبعت إلى العمل — حتى بقيت يوما بأكمله فى فندق (بون دى لونيل) لأنعم مع الزائرين الآخرين بطيب الجو الذى شاع فيه . وكان هذا الفندق — إذ ذاك — أشهر فندق فى أوروبا ، كما كان جديرا بما اكتسب من صيت ، فقد عرف أصحابه كيف يستغلون موقعه البديع ، فزودوه بوفرة من أطايب المأكولات . لقد كان من الغريب حقا أن تجد فى دار نائية منعزلة — وفى وسط الريف — مائدة زودت بسماك البحر وسماك النهر ولحوم الصيد البديعة والخمر المنتقا ، تقدم لك فى أدب وكياسة لا تجدهما إلا فى بيوت

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى ٢٢١

العظماء والموسرين . . وكل هذا بخمسة وثلاثين « سو » لشخص ! . . إلا أن « جسر دى لونيل » لم يبق فى هذا المستوى طويلا ، إذ أنه تمادى فى استغلال سمعته ، حتى فقدتها بأسرها فى النهاية !

ولقد نسيت اثناء رحلتى أننى كنت مريضا ، فلم أتذكر ذلك إلا عندما بلغت (مونبيليه) . ولقد كان من المحقق أننى شفيت من نوبات الهستيريا التى كانت تنتابنى ، إلا أن كل على الأخرى بقيت . ومع أن اعتيادى إياها جعلنى أقل إحساسا بها ، إلا أنها كانت تكنى لأن تحل أى إنسان على الاعتقاد — إذا ما تعرض لنوباتها فجأة — بأنه على باب القبر . . كانت هذه العلل — فى الواقع — أكثر بعثا للانزعاج منها إثارة للألم ، وكانت تسبب من عذاب العقل أكثر مما تسبب من عذاب الجسم ، وهى التى كانت تعلن عن تدمره فيها يلوح ، ومن ثم فإننى كنت — حين أشغل بالانفعالات العنيفة — لا أفكر فى حالتى الصحية . ولكن على لم تكن خيالية ، فكنت أعود إلى الاحساس بها مرة أخرى عندما يعاودنى هدوئى ، وبدأت عندئذ أفكر تفكيرا جديا فى نصيحة السيدة دى « لارناج » ، وقى هدفى من رحلتى ، فاستشرت أشهر الأطباء وعلى الأخص السيد « فيز » .

وزيادة فى الحيلة ، نزلت عند طبيب . كان إيرلنديا اسمه « فيتز موريس » ، وكان ينزل عنده عدد عظيم من طلبة الطب . ومما جعل منزله أكثر مدعاة لراحة المريض المقيم ، أنه كان يتقع بأجر معقول لقاء المأكل والسكن ، ولا يتقاضى شيئا من

نزلائه فى مقابل الرعاية الطبية . وقد أخذ على عاتقه أن ينفذ تعليمات السيد « فيز » ، وأن يعنى بصحتى . أما فيما يتعلق بالغذاء فقد كان يوفى ما عليه وفاء يدعو للاعجاب ، فلم يكن بين النزلاء من يعانى عسر الهضم . ومع أننى لم أكن ممن يابهون بالحرمان من الطعام ، إلا أن الفرص التى تهبى لى المقارنة كانت فى متناول يدى ، حتى أننى لم أتمالك فى بعض الأحيان من أن أتبين — فيما بينى وبين نفسى — أن السيد دى «تورنيان» كان موردا للأغذية أفضل من السيد « فيتز موريس » ، وعلى كل حال فلم نكن نشكو الجوع تماما ! . وكان الطلبة الشبان غاية فى المرح ، وقد أفادنى حقا هذا الأسلوب من أساليب الحياة ، وحال دون إصابتى بما كان يفتابنى قبلا من الاكتئاب . وكنت أفضى الصباح فى تناول الأدوية ، وخاصة بعض المياه — التى اعتقد أنها كانت تأتى من (فالس) ، وإن لم أكن واثقا من ذلك — وفى الكتابة إلى السيدة دى «لارناج» . ذلك أن الرسائل ظلت مستمرة ، وقد آلى روسو على نفسه أن يأتى بخطابات صديقه « دودنج » .

وكنت أنطلق — عند الظهر — فى جولة إلى (كانورج) مع أحد زملائنا الشبان الذين كانوا ينزلون معنا . وقد كانوا جميعا على خلق عظيم . وكنا نجتمع بعد ذلك لتناول الغداء ، فإذا ما فرغنا منه ، كان معظمنا يشغل بمسألة هامة حتى المساء . . تلك هى أننا كنا ننتقل إلى خارج المدينة ، لنلعب دورين أو ثلاثة من لعبة الكرة والصولجان ، ولنتناول شىء الأصيل . ولم أكن أشترك فى اللعب معهم ، إذ لم تتوفر لى القوة أو

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى ٢٢٢

البراعة فى اللعب ، ولكنى كنت أراهن على النتيجة . . وهكذا كنت أتبع لاعبينا وكراتهم عبر الطرق الوعرة الصخرية ، وأنا مهتم برهائى ، فأنعم برياضة صحية ممتعة ، كانت تناسبنى إلى أقصى حد . وكنا نتناول الشاى فى مقصف خارج المدينة ، وغنى عن البيان أن هذه الوجبات كانت مليئة بالمرح ، ولكنى أضيف إلى هذا أنها كانت محتشمة ، بالرغم من أن فتيات المقصف كن جميلات ! . . وكان رئيس الفريق هو السيد « فيتز موريس » نفسه ، فقد كان لاعبا عظيمًا . وأستطيع أن أقرر - بالرغم من سوء سمعة الطلبة - أنني وجدت بين هؤلاء الشبان من الألب والحشمة ما لا يسهل العثور عليه بين عدد مساو لهم من الرجال الناضجين . . كانوا أهمل للوضاء منهم للفسق ، وللمرح منهم للخلاعة . ولما كان من السهل على أن أعتاد أى سبيل من سبل الحياة - عندما يكون ذلك باختيارى - فأننى لم أعد أتمنى أكثر من استمرار هذه الحال .

وكان بين الطلبة عدد من الأيرلنديين حاولت أن أتعلم منهم بضع كلمات إنجليزية تأهبا لذهابى إلى (سانت أندبول) ، فقد كانت السيدة دى « لانارج » تستحبنى فى كل برىد ، وكنت على استعداد لى أذعن إلى رغبتها . وكان من الواضح أن أطبائى - وقد غاب عنهم علتى - اعقبوا الا وجود لها إلا فى مخيلتى . وبناء على هذا فإنهم كانوا يعالجوننى بأعشابهم الصينية ومياههم واللبن الخثر . . والأطباء كالفلاسفة ، ولكنهم يختلفون جد الاختلاف عن علماء أصول الدين ، إذ أنهم لا يقرون بأن شيئًا ما صحيح إلا إذا كان فى استطاعتهم أن يعللوه ، كما

أنهم يجعلون من إدراكهم مقياسا لكل ما هو ممكن ! .. ولم يكن هؤلاء السادة يدركون شيئا عن علتى ، ولذلك لم أك مريضا البتة ، فى رايبهم ! .. فإن الأطباء يعرفون كل شيء طبعا ! .. وكنت أرى أنهم إنما يحاولون خداعى وحملى على إنفاق مالى ، ولما كنت أعتقد أن نائبتهم فى (سانت انديول) مستفعل عين ما كانوا يفعلون — ولكن بطريقة أظرف — فقد صح عزمى على أن أفضلها عليهم ! .. وما أن قرأ رايى على هذا القرار الحكيم ، حتى رحلت عن (مونبيليه) ، ففادرتها فى أواخر شهر نوفمبر ، بعد أن أقمت فيها ستة أسابيع أو شهرين ، وبعد أن أنفقت فيها اثنى عشر « لوى » (١) ، دون أن يعود ذلك بأى تنع على صحتى أو على إدراكى ، اللهم فيما عدا منهج فى التشريح بدأته تحت إرشاد السيد « فيتز موريس » ، واضطرت أن أكف عن تلقيه نظرا للرائحة النتنة التى كانت تتصاعد من الجثث المشرحة ، فقد وجدت أن من المستحيل على أن أتحمّلها !



وشعرت أننى غير مستريح للقرار الذى اتخذته ، فشرعت أفكر فيه وأنا أوصل رحلتى صوب (بون سان اسبرى) وكان الطريق يؤدى إلى (شامبىرى) كما كان يؤدى إلى (سانت انديول) ، فاثارت ذكرى « ماما » ورسائلها — ولو أنها لم تكن تكتب كثيرا كما كانت السيدة دى « لارناج » تفعل — لواعج الحسرة فى فؤادى من جديد ، بعد أن كنت قد أخذتها فى

(١) اللوى عملة ذهبية كانت قيمتها ٢٠ فرنكا .

الشطرنج الأول من رحلتى .. وكانت فى عودتها قوية عنيقة .
حتى أنها رجحت على حب المتعة، فلم أجد مناصا من الاستماع
إلى صوت العقل وحده . ولعلنى كنت فى دور الأفاق — الذى
عدت إلى الشروع فى أدائه — أقل توفيقا وحظا مما كنت فى
المررة الأولى . ذلك لأن الأمر — فى هذه المرة — لم يكن يتطلب
سوى أن يوجد فى بلدة (سانت انديول) بأسرها ، شخص
واحد ، سبق له أن زار إنجلترا ، وعرف الإنجليز ، وتمكن من
لغتهم ، حتى يفتضح أمرى ! .. وكان من المحتمل ألا أروق
لأسرة السيدة دى « لارناج » ، فتعاملنى بقليل من الكياسة .
إذ كانت ابنتها — التى كنت أفكر فيها ، بالرغم منى ، أكثر
مما كان ينبغى — تسبب لى قلقا لم يفارقنى .. وكنت أرتجف
لمجرد احتمال أننى قد أقع فى هواها ! .. وكان هذا الخوف
يؤلف نصف العوامل التى كانت تحملنى على العدول .. وكنت
أقول لنفسى : أترانى — فى مقابل أفضال الأم — أسعى لإفساد
الابنة وللدخول معها فى علاقة بغيضة ، تصيب الأسرة بالتصدع
والعار والفضيحة والجحيم معا ؟

كانت هذه الفكرة توقع الرعب فى نفسى ، ومن ثم فقد
صممت تصميمًا جازما على أن أقاوم هذه النفس واهزمها ،
إذا أنا شعرت بمثل هذه الرغبة الدنيئة . ولكن .. لماذا أعرض
نفسى لصراع كهذا ؟ .. أية حال تعسة من العيش تلك التى
تدعونى إلى أن أحييا مع الأم — التى كنت أوقن من أننى سئمتها
— بينما يضطرم قلبى بحب الابنة ، دون أن أجرؤ على أن
أكشف لها قلبى ؟ .. وأية ضرورة تدعو إلى السعى نحو حال

كهذه ، أتعرض فيها للبلايا والإهانات والندم ، فى سبيل متع حظيت مقدما بأعظمها فتنة ؟ .. ذلك أنه كان من المحقق أن أهوائى كانت قد فقدت حذتها الأولى .. كان الميل للمتعة ما يزال قويا ، ولكن العاطفة المتأججة كانت قد ولت . وقد خالطت ذلك أفكار تتصل بموقفى ، وواجباتى ، وتلك الأم المفرطة الطيبة والكرم ، التى تورطت فى ديون — فوق التى كانت تثقل عاتقها — فى سبيل نفقاتى الطائشة ، والتى أنفقت كل ما كانت تملك من أجلى ، أنا الذى كنت أخدعها بخسة .. ولقد اشتد هذا التأنيب وثقل على ضميرى حتى انقلبت الكفة آخر الأمر ، فما أن اقتريت من (سان اسبرى) ، حتى قررت أن أسرع باجتياز (سان انديول) دون أن أتوقف فيها . ونفذت هذا القرار ببسالة ، وإن كنت لا أنكر أننى زغرت بعض زغرات . بيد أننى فى رضائى عن نفسى ، كنت أتذوق — للمرة الأولى فى حياتى — لذة القدرة على أن أقول : « من حقى أن أشيد بذكر نفسى ، فاننى أعرف كيف أقدم واجبى على متعتى » !

وهذا هو الالتزام الحقيقى الأول ، الذى خرجت به من دراستى ، إذ أنها علمتني أن أفكر ، وأن أقارن .. وبعد مبادئ الطهر والعفة — التى انتهجتها منذ عهد قريب — وبعد قواعد الحكمة والفضيلة التى ارتضيتها لنفسى ، والتى كنت فخورا كل الفخر باتباعها ، وجدتنى أشعر بالخزى من أن أكون متساهلا مع نفسى ، ومن أن أخالف قواعدى المقررة بهذه السرعة وهذه القوة ، وطمعنى هذا الشعور على ، فانتصر على المتعة ، وربما

كان للاعتزاز بالنفس نصيب — فى قرارى — يعادل نصيب
الفضيلة سواء بسواء . ولكن ، إذا لم يكن هذا الاعتزاز هو
الفضيلة ذاتها ، فإن آثاره كانت تشابه آثار الفضيلة إلى درجة
أن المرء يخطئ فى التفريق بينهما !

ومن الآثار الطيبة للأفعال الصالحة ، أنها تسمو بالروح
وتميل بها إلى الاتيان بشيء أفضل ، ذلك أن الضعف البشرى بلغ
مبلغا عظيما ، حتى لينبغى لنا أن نسلك فى عداد الأعمال الصالحة
الامتناع عن الشر الذى تغرينا نفوسنا على ارتكابه . . وما أن
اتخذت قرارى حتى أصبحت رجلا آخر ، أو — على الأصح —
أصبحت الرجل الذى كنته من قبل . . الرجل الذى حملته
نشوة هذه التجربة على أن يختفى . فواصلت رحلتى وقد
انطوى صدرى على أطيب المشاعر وأفضل القرارات ، منتوبا
التكبر عن خطئى ، وعدم التفكير إلا فى تنظيم سلوكى فى
المستقبل على أساس من قوانين الفضيلة ، مكرسا نفسى دون
قيد أو شرط لخدمة أبر الأمهات ، منزرا لها إخلاصا يعادل
حبنى لها ، منصتا لنداء واجبى وحده ، ولكن والسفاه ! . .

كان إخلاصى فى العودة إلى الفضيلة ، يبدو وكأنه يخبىء لى
مصريا آخر . بيد أن مصرى الحقيقى كان قد كتب فى لوح
القدر ، وبدأ يتحقق فعلا . وفى اللحظة التى لم يكن فيها قلبى
— الزاخر بحب كل ما هو طاهر وشريف — يرى أمامه سوى
البراءة والسعادة ، كنت أقترب من اللحظة القاتلة التى قدر لها
أن تجر وراءها تلك السلسلة الطويلة من الكوارث التى حلت بى !
كان تعجل الوصول قد جعلنى أسرع فى سفرى أكثر مما

كنت أنتوى ، وكنت قد أرسلت خطابا إلى « ماما » من (فالانس) أخبرها فيه باليوم والساعة اللذين توقعت أن أصل فيها . ولما كنت قد استبقت موعدى بنصف يوم ، فقد قضيت ذلك الوقت فى (شاباريان) لكى أصل فى اللحظة التى عينتها بالضبط ، وكنت أتوق إلى أن استمتع غاية الاستمتاع بهرأها ثانياً ، ففضلت أن أؤجل وصولى قليلا حتى أضيف إلى ذلك متعة الشعور بأن ثمة من ينتظره . وكان حليف هذا الإجراء النجاح دائما ، فقد كنت أجد القوم يحتفلون بوصولى — فى كل مرة — وكأنه يوم عيد صغير . وهذا ما توقعته فى هذه المناسبة ، وكانت تلك العناية — التى كانت تهفو بالقلب والمشاعر — جديرة بالتعب الذى كان يبذل فى سبيل الظفر بها !

ووصلت فى اللحظة التى عينتها تماما . ومذ كنت على مسافة بعيدة من غايتى ، رحت أنعم النظر فى الطريق ، علنى أراها . . « ماما » ! . . وراح قلبى يخفق فى عنف أخذ يطرد بازدياد اقترابى . ووصلت وأنا ألهث ، إذ أننى كنت قد تركت عربتى فى المدينة . . ولم أر أحدا فى الفناء أو عند الباب أو مطلا من النافذة ، فبدا القلق يساورنى خشية أن يكون قد وقع حادث . . ودخلت فإذا كل شيء هادئ ، وبعض العمال يأكلون فى المطبخ ، ولم تكن ثمة إشارات تنم عن أن القوم ينتظروننى . وبدأت الدهشة على الخادم لرؤياى إذ أنها كانت تجهل أمر قدومى . وصعدت الدرج . . وأخيرا رأيته . . تلك الأم العزيزة ، التى اجتمع لها فى قلبى كل ما فى الحب من رقة وقوة وإخلاص . وهرعت إليها ، فألقيت نفسى عند قدميها . وقالت

لى وهى تعانقنى : « آه اذن فقد عدت ايتها الصغير ! .. اكانت رحلتك ممتعة ؟ .. كيف حالك ؟ » . واذهلنى هذا الاستقبال بعض الشيء ، فسألتها عما إذا كانت قد تلقت خطابى . واجابتنى بنعم ، فقلت : « ما كنت أعتقد هذا » . وانتهى الحديث عند هذا الحد ، فقد كان معها شاب تذكرت أننى رأيته فى المنزل قبل رحيلى ، ولكنه بدا — فى هذه المرة — وكأن المقام قد استقر به هناك ، وكان ذلك هو الواقع فعلا . ومجمل القول أننى وجدت من حل محلى !

وكان هذا الشاب من منطقة (غو) ، وكان أبوه — واسمه « فننزريد » — أمين حصن (شيبون) ، أو كبير ضباطه كما كان يدعى نفسه . أما الابن فقد كان عاملا يصنع الشعر المستعار ، وكان يطوف بالبلاد ممارسا مهنته ، عندما قدم نفسه إلى السيدة دى « فاران » فأحسنست استقباله ، كما كانت تفعل مع عابرى الطريق جميعا ، لا سيما أولئك الذين يكونون قادمين من مسقط رأسها . وكان الشاب ذا شعر أشقر غزير حائل اللون ، وجسم بديع التكوين ، ووجه سمين ، وعقل فى ثقل جسمه ! .. فقد كان يتحدث كالمغرور المتحلق ، وهو يخلط بين اللهجات ، ويمزج الأحاديث التى تتطلبها مهنته بقصة طويلة — عن مغامراته وفتوحاته الغرامية — لم يكن يضمنها ، فيما زعم ، سوى نصف من ضاجعهم من المركيزات ! .. وكان يدعى أنه ما صفف شاعر حسناء ، إلا وزين رأس زوجها أيضا ! .. كان مغرورا أخرق جاهلا وقحا ، أما فيما عدا هذا ، فقد كان من أحسن الشبان فى العالم ! .. ذلك هو

البديل الذى حل محلى اثناء غيابى والرفيق الذى قدمه الى بعد عودتى ! وإذا كانت الأرواح التى تنطلق من القيود الدنيوية ، تظل ترى — خلال أضواء الأبدية — ما يجرى بين أهل الأرض ، فاغفر لى — إذن — أيها الطيف الحبيب الاثير ، أننى لا أغض الطرف عن أخطائك ولا عن أخطائى ، بل أننى اكشف عنها جميعا أمام القارىء ، وعلى قدم المساواة ! .. لسوف أكون — ولا بد لى من أن أكون — صادقا نحوك صدقى نحو نفسى ، ولن يصيبك من ذلك قط إلا ما يقتل كثيرا عما يصيبنى أنا ! .. آه ! كم يكفر خلقك الوديع الرقيق ، وطيبة قلبك — التى لا ينضب معينها — وصراحتك ، وكل صفاتك الباعثة على الإعجاب .. كم تكثر هذه عن نقاط ضعفك ، إذا ما ذكرت تلك الهفوات التى يمكن أن توصف بأنها من أخطاء عقلك وحده ! .. لقد أخطأت ، ولكنك كنت براء من الرذيلة — ولقد استحق مسلكك اللوم ، ولكن قلبك ظل نقيًا دائما .

ولقد أظهر القادم الحديث غيرة وحمية وعناية بتنفيذ الشئون الصغيرة العديدة التى كانت « مايا » تحتاج إليها ، ونصب نفسه رئيسا على عمالها .. وكان كثير الضجيج ، بقدر ما كنت شديد الهدوء ! .. كان القوم يرونه ويسمعونه فى كل مكان فى وقت واحد : عند المحراث ، وفى مخزن الدريس ، وفى مخزن الخشب ، وفى الاسطبل ، وفى ساحة المزرعة . وكانت فلاحه البساتين هى الشئ الوحيد الذى أهمله ، إذ أنها كانت هادئة جدا ، لا تهيب الفرصة لإحداث ضوضاء .. كان يفرح أشد الفرح بوسق عربة وقيادتها ، ونشر الخشب أو

تكسره .. فما كنت تراه إلا والفأس أو البلطة فى يده ، وهو يعدو ويدفع ما أمامه ويصيح بكل ما فيه من قوة .. ولست أدري كم من عهـل الرجال قام به ، ولكن الذى أدريه أنه كان يحدث من الضوضاء قدر ما يحدثه عشرة رجال أو اثنا عشر . وكانت كل هذه الضوضاء والحركة تخدع «ماما» المسكينة ، فقد حسبت أنها وجدت فى هذا الشاب كنزا يعاونها فى شئونها ، وأرادت أن تحمله على التعلق بها فاستخدمت فى ذلك كل السبل التى اعتقدت أن من الممكن أن تأتى بالنتيجة المرجوة .. ولم تنس ذلك السبيل الذى كانت تعمل عليه أكثر من سواه !

ولابد أن القارئ قد استشف شيئا عن قلبى ، وعن مشاعره الصادقة الثابتة ، لا سيما تلك التى حدث بى إلى العودة إلى « ماما » إذ ذاك ، ولكن يا للانقلاب المفاجئ الكامل فى كيانى كله ! .. فليضع القارئ نفسه فى موضعى ، ليستطيع الحكم ! .. لقد رأيت كل ذلك المستقبل السعيد — الذى تخيلته لنفسى — يتلاشى فى لحظة ، وتبددت أحلام السعادة التى كنت أعتر بها اعتزازا .. ووجدتنى للمرة الأولى وحيدا ، أنا الذى ألفت منذ صباى ألا أرى لنفسى وجودا إلا فى وجود « ماما » ! .. كانت تلك اللحظة مظلمة ، ولكن اللحظات التى تلتها كانت قائمة كثيفة .. كنت ما أزال شابا ، ولكن ذلك الشعور العذب بالمتعة والأمل — الذى يبعث الحياة فى الشباب — كان قد هجرنى إلى الأبد . ومنذ ذلك الحين مات فى أعماقى الحس المرهف — نصف ميتة — ولم أعد أرى أمامى إلا أطلالا حزينة لحياة تافهة ، فإذا ما أذكى شهواتى — بين الحين والحين — طيف

من سعادة ، فإن هذه السعادة لا تبدو لى حقيقية . . بل أننى كنت أوقن بأن ظفرى بها ، لن يجعلنى سعيدا حقا !

ولقد كنت غاية فى السذاجة ، كما كانت ثقتى بـ ما جـد عارمة ، حتى أننى لم أجدس قط السبب الحقيقى للهجة الألفة التى كان القادم الجديد يتحدث بها ، والتى اعتبرتها من نتائج طبيعة « ماما » السهلة الهيئة التى تجتذب الناس جميعا إليها . . وما كنت لأجدس الأمر ، لو لم تبج به هى نفسها ، فقد بادرت إلى الاعتراف ، فى صراحة كان من المحتمل أن تنكى سخطى ، لو أن قلبى كان يتسع لزيد من السخط . . ذلك أنها كانت ترى الأمر بسيطا ، فقد عابت على إهمالى أثناء وجودى فى البيت ، وتذعرت ضدى بغياى المتكرر ، وكأنها كانت طبيعتها تقتضيها ملء الفراغ بأسرع ما يمكن ، فقلت لها وقلبي يتزق حزنا : « واه يا ماما . . ما هذا الذى تجرؤين على أن تحدثينى به ؟ . . يا له من جزاء على إخلاص كذلك الذى أثرتك به ! . . هل انتقدت حياتى هكذا مرارا ، لغر ما دأيت إلا لتحرمينى ذلك الذى جعلها عزيزة عندى ؟ . . ان هذا سيوردنى مورد التهلكة ، ولكنك ستأسفين على فقدى ! » . فردت — فى هدوء كان خليقا بأن يدفعنى إلى الجنون — بأننى طفل ، وأن الناس لا يموتون من مثل هذه الأمور ، وأننى لم أفقد شيئا ، وأنا خليقان بأن نكون صديقين حميمين — بكل ما للصدقة من معنى — وثيقى الصلة فى كل أمر من الأمور ، وأن حبها العميق لى لن يقل ولن ينتهى إلا بانتهاء حياتها ! . .

ومجمل القول أنها جعلتني أدرك أن جميع مزايى باقية على ما كانت عليه ، وأننى لن أجد أى نقص فيها ، بالرغم من أن ثمة من أصبح يشاركنى إياها . ولم يظهر قط حبى لها — فى صفائه وصدقته وقوته — ولا ظهرت روحى — فى إخلاصها واستقامتها — مثلما ظهرا على هذه الصورة الواضحة ، فى تلك اللحظة . فقد أقيت بنفسى عند قدميها ، وخرقت الدموع مدرارا ، وأمسكت بركبتىها ، وهتفت بها وأنا شارد الفكر : « كلا يا ماما ! .. إننى أحبك حبا أعظم من أن يسمح لى بذلك ، وامتلاكك أغلى عندي من أن أستطيع مشاركة آخر فيه . . إن الندم الذى شعرت به عندهما وهبتنى نفسك — لأول مرة — قد ازداد بازدياد حبى ، ولن أستطيع أن أحتمل هذا الندم بنفسى الثمن . لسوف أظل دائما أعبدك . وأبقى جديرا بحبك ، طالما ظلت حاجتى إلى احترامك أكبر من حاجتى إلى امتلاكك . إننى أكل أمر نفسك إلى نفسك ، وأضحى فى سبيل اتحاد قلبيينا بكل متعنى ! .. وخير عندي أن أموت ألف مرة من أن أسعى إلى إذلال من أحب ! » .

ولقد ظلت أمينا على هذا القرار فى ثبات وحزم أجرؤ على القول بأنهما جديران بالشعور الذى دفعنى إلى هذا القرار . ومنذ تلك اللحظة كنت أنظر إلى تلك الأم العزيزة بعينى الابن البار ! .. ولا بد لى من أن أضيف إلى هذا أن قرارى ، وإن لم يكن قد صادف موافقة منها شخصيا — كما تبين لى جليا — إلا أنها لم تحاول قط أن تثنيى عن عزى بترك الاقتراحات المغرية ، ولا الملائمة ، ولا بسبل الغواية التى تجيد النساء استخدامها

دون أن تصب أنفسي بالجروح ، والتي نادرا ما يبين فيها
بالفشل !

* * *

ووجدتني مكرها على أن أسعى إلى مصير مستقل عن
« ماها » .. واستعصى على التفكير ، فسرعا ما ارتيت في
أحضان نقيضه تماما ، إذ سعيت إلى البحث عن المصير المنشود
عندها هي نفسها .. واستغرقت في البحث عنه عندها ، حتى
أفلحت في نسيان نفسي أو كدت ، واستوعبت مشاعري الرغبة
الملحة في أن أراها سعيدة مهما كان الثمن .. ولقد كنت أرى
العيب لها أن تفضل سعادتها على سعادتي ، فلقد كنت أرى
سعادتي في أغوار سعادتها ، بالرغم منها !

وهكذا ، بدأت تنمو مع مصائبى ، تلك الفضائل التي كانت
بزورها قد غرست في أعماق قلبي ، والتي هزبتها الدراسة ،
ولم تكن تنظرها إلا الشدة حتى تؤتى ثمارها . وكانت النتيجة
الأولى لإنكار الذات والتجرد عن الغرض ، أن زال من قلبي كل
شعور بالحق والحسد نحو ذلك الذي حل محلي ، بل أنني
— على العكس من ذلك — كنت أريد في إخلاص صادق أن أصبح
وثيق الصلة بهذا الشاب ، وأن أصوغ خلقه ، وأعلمه وأشعره
بسعادته ، وأجعله جديرا بها إذا أمكن . وبالاختصار أن أفعل
له ما سبق لأني أن فعله من أجلى في ظروف مماثلة ! .. إلا أن
طبيعتنا لم تكونا متماثلتين . ومع أنني كنت أرق حاشية
وأوسع علما من أنني إلا أنني لم أوت قلة مبالاته أو ثباته أو قوة

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى ٢٣٥

خلقه ، التى كانت تبعث على الاحترام ، والتى كان لابد منها لضمان النجاح . زد على ذلك اننى لم أكن أجد فى هذا الشاب الصفات التى وجدها « آنيه » فى ، وأعنى : دهاء الخلق والحب والعرفان بالجميل . . وأهم من هذا كله ، الإدراك بأننى أحتاج لرعايته ، والرغبة الملحة فى الانتفاع بهذه الرعاية .

كانت تعوزه كل هذه الصفات . وكان هذا الذى أردت ان ألقنه العلم ، لا يعتبرنى أكثر من متحلق يبعث على السأم والضجر ، ولا يحسن من الأمور سوى الثروة . وكان — من ناحية أخرى — يعجب بنفسه بوصفه شخصا له شأنه فى المنزل . فكان يبالغ فى تقدير الخدمات التى يحسب أنه كان يؤديها بالوضوء التى كان يحدثها . وكان يرى أن مؤوسه ومعاوله أنفع كثيرا من كل كئيب القديرة ! . . ولقد كان مصيبا بعض الشيء ، ولكنه — اعتمادا على هذا — كان يزهو ويستكبر فى صورة تدعو المرء إلى الإغراق فى الضحك . وكان يحاول أن يمثل مع الفلاحين دور سيد من سادة الريف ، غما لبث أن أخذ يعاملنى نفس المعاملة ، بل أنه راح يعامل « ماما » كذلك ! . . وإذ بدا له أن الاسم « فتزونريد » لم يكن فيه ما يميزه ، هجره واتخذ له اسم السيد دى « كورتيل » ، وهو الاسم الذى عرف به فيما بعد فى (شامبيرى) وفى (موريين) حيث تزوج !

ومجمل القول أن هذا الشخص البارع لم يلبث أن أصبح كل شيء فى المنزل ، بينما أصبحت أنا . . لا شيء ! . . ولو أن سوء الطالع ساقنى إلى إغضابه ، فإن « ماما » هى التى كانت

تتلقى اللوم بدلا منى ، ولهذا السبب فإن خوفي من تعريضها إلى سلوكه الفظ كان يدعو إلى أن أجيبه إلى كل رغباته وعندما كان يقبل على تكسير الأخشاب - وهو عمل كان يفخر به كل الفخر - كنت أقف متفرجا عاطلا ، ومعجبا صامتا بقوته وجلده على العمل ! على أن سجاياه لم تكن في مجموعها بالسجايا القبيحة . . لقد كان يحب « ماما » لأنه ما من أحد كان يستطيع أن يمسك نفسه عن حبها . ثم انه لم يظهر لى شيئا من النفور أو الكراهية ، وكان فى اللحظات التى يستولى فيها السكون عليه ، ينصت إلينا هادئا ، ثم يعترف فى صراحة بأنه لم يكن إلا أحمق . . ولا يلبث - بعد ذلك مباشرة - أن يرتكب حماقات جديدة . زد على ذلك أن إدراكه كان محدودا ، كما كان نوقه وضعيا ، حتى لقد كان يتعذر على المرء مجادلته ، أو الشعور بالراحة معه . ولم يقنع بالظفر بأشد النساء فتنة وسحرا ، بل انه جمع - على سبيل التغيير - بينها وبين وصيفة عجوز جهراء الشعر خلاقمها من الأسنان ، وكانت « ماما » تحتل خدماتها - التى تثير فى النفس الاشمزاز - فى صبر وأناة ، وإن كانت تضيق بها كل الضيق ! وإذا شاهدت هذا اللؤم الجديد ، بلغ منى الحقد والغيط مبلغهما . على أننى لاحظت شيئا آخر - فى الوقت ذاته - كان أشد تأثيرا فى نفسى ، ودفعنى إلى اليأس أكثر من أى أمر آخر وقع حتى ذلك اليوم . وكان هذا الشيء هو فتور فى مسلك « ماما » نحوى ، أخذ يزيد رويدا رويدا !

ذلك أن الحرمان الذى فرضته على نفسى ، والذى تظاهرت

هى بالموافقة عليه ، إنما هو أحد تلك الأمور التى لا تغتفرها النساء قط — وإن تظاهرن بقبولها ! — لا بسبب ما حرمن هن منه ، وإنما بسبب الشعور بعدم الاكتراث الذى ينطوى عليه الأمر . ولو أنك أخذت — على سبيل المثال — أوفر النساء عقلا ، وأكثرهن فلسفة وأقلهن شبقا ، لوجدت أن الجريمة الوحيدة التى لا تغفرها هذه المرأة للرجل قط — ولو كان اهتمامها به فيها عدا ذلك أضال ما يكون — هى أن يكون بوسعه أن يستمتع بها ولكنه لا يفعل! .. وليكن مفهومها أن هذه القاعدة بلا استثناء ، إذ أن العاطفة — مهما تكن طبيعية وقوية — لا تلبث أن تتغير لدى المرأة بسبب الحرمان الذى لا باعث له سوى الفضيلة والحب والتقدير . . . ومنذ ذلك الحين ، لم أمد أجد لدى «لما» تلك الصلة الوثيقة التى تربط بين قلبين ، والتى كانت تنعم قلبى دائما بأحلى المتع . ولم تعد تبوح لى بأسرارها ، اللهم إلا أن تشكو من ذلك الدخيل . أما عندما يكونان معا على صفاء ، فماننى لم أكن أحظى بأسرارها . . . ولم تلبث — آخر الأمر — أن انتهجت نحوى مسلكا بامد بينى وبينها تدريجا ، ومع أن حضورى ظل ببعث سرور لها ، إلا أنه لم يعد ضرورة لا غنى لها عنها ، حتى لقد كنت أقضى أياما بطولها دون أن أراها ، فما كانت لتفطن إلى ذلك !

ووجدتنى — دون أن أفطن — معزولا وحيدا فى هذا المنزل الذى كنت فيه قبل ذلك بمثابة « الروح » ! .. والذى أصبحت أحياء فيه حياة مزدوجة كما ينبغى أن يقال .. فالتفت

تدريجا أن أغض الطرف عن كل ما كان يقع في هذا المنزل ، بل
 اننى أخذت أعزل أولئك الذين كانوا يقيمون فيه . ولكى
 أجنب نفسى العذاب المتصل ، رحت أحتبس نفسى مع كبرى ،
 أو أذهب فأبكى وأتأوه ما شاء لى الهوى وسط الغابات .
 وسرعان ما أصبحت تلك الحياة فوق ما يطيقه إنسان ، وشعرت
 بأن الوجود الشخصى مع البعد القلبى بالنسبة لامرأة كنت
 أعزها كل هذا الاعزاز ، كان يهيج شجونى . . وأن الكف عن
 رؤيتها ، أقل قسوة ! ولذلك قررت أن أهجّر المنزل . . ولقد
 قلت لها هذا ، فإذا بها تحبّذه ، بدلا من أن تعارضه ! . . وكانت
 لها صديقة فى (جرينوبل) — تدعى السيدة « ديبين » — كان
 زوجها صديقا للسيد « دى مابلى » ، محافظ مدينة (ليون) .
 ولقد اقترح السيد ديبين أن أتولى تعليم أولاد السيد دى مابلى ،
 فقبلت ، ورحلت إلى ليون دون أن أسبب لنفسى — بل دون
 أن أشعر تقريبا — بأقل أسف على فراق كان مجرد التفكير
 فيه — فيما مضى — يبعث فىنا آلاما كنزعات الموت !

وكانت لدى المعرفة الضرورية — تقريبا — لكى أكون
 مربيا ، وأعتقد أننى أوتيت موهبة لذلك . وقد اتسع لى الوقت
 — فى السنة التى قضيتها بمنزل السيدة دى مابلى — كى أكشف
 عن حقيقة نفسى ، فإذا ما فطرت عليه من سباحة ورقة ، كفيل
 بأن يجعلنى أهلا لهذه المهنة ، لولا ما كان يشوبه من حدة
 الطبع . . فقد كنت كالملاك الكريم ، طالما سارت الأمور على
 ما يرام ، وطالما كنت أرى تعبى وعنايتى — اللذين لم أكن
 أقصد فيهما — يؤتيان ثمارا . ولكننى كنت أغدو شيطانا إذا

ولقد أكرهت على تقسيم على بين الاثنين ، كما هو واضح للقارئ ، ولعلنى كنت مستطيعا بشيء من الصبر والهدوء أن أوفق في على ، ولكنى كنت خلوا منهما ، ومن ثم فأننى لم أحرص مع تلميذى أى تقدم ، وكانت النتيجة غاية في السوء .. وما كنت لأفتر إلى المثابرة ، وإنما كان يعوزنى الاتزان والكياسة بوجه خاص .. إذ أننى لم أكن أعرف من الأساليب التى تستخدم مع الأطفال إلا ثلاثة ، كانت كلها دائها عقيدة عديية الجنوى ، وكثيرا ما كانت تعود عليهم بأبلغ الضرر .. وهذه السبل الثلاث هى : العاطفة ، والمجادلة ، والغضب . ولقد تأثرت ذات مرة من « سانت مارى » تأثرا ذرفت معه الدمع ، وحاولت أن أثير فيه عاطفة مهائلة ، كأنها كان فى وسع الطفل أن يتأثر تأثرا صحيحا ! .. وفى مناسبة أخرى أرهقت نفسى فى مجادلته ، وكأنه كان قادرا على أن يفهمنى ، ولما كان يلجأ فى

٢٤٠ اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثاني

بعض الأحياء إلى جدال غاية في المكر والدهاء ، فقد اعتقدت أنه ولا بد نكبي ، ما دام يعرف كيف يجادل ! .. أما « كونديللاك » الصغير ، فقد كان أشد جلبا للضيق والضجر ، إذ أنه لم يكن يفهم شيئا ، ولا يجيب عن أى سؤال ، ولا يتأثر بأى مؤثر ! .. كان عنيدا لا يتزحزح عن موقفه ، ولم يكن موفقا فى شىء اللهم إلا فى إثارة غضبى . وإذ ذاك ، كان يغدو هو العاقل وأنا الطفل !

لقد تبينت كل أخطائى ، وكنت أدركها تمام الإدراك . إذ أننى درست أخلاق تلميذى وأفلحت فى سبر غورهما . ولا اعتقد أن حيلهما انطلت على مرة ، ولكن ما جدوى تبين الشر إذا كنت لا أعرف كيف أعالجه ؟ .. ومع أننى كنت أستشف كل شىء ، إلا أننى لم أكن أمنع شيئا ، ولم أفلح فى شىء .. كان كل ما أفعله هو عين ما كان ينبغى لى ألا أفعله !

ولم يكتب لى — فيها يتصل بأمر نفسى — من النجاح ، أكثر مما كتب لى فيها يتعلق بتلميذى ، وكانت السيدة «دييان» قد أوصت بى السيدة دى مابلى ، وطلبت منها أن تهذب عاداتى وأن تطبعنى بطابع يتفق والمجتمع الراقى ، فجهدت السيدة فى ذلك بعض الجهد ، وأرادت أن تعلمنى كيف اشرف البيت الذى أنزل فيه ، بيد أننى أبديت من الارتباك والخجل بل والغباء ما ثبط همتها ودعاها إلى اليأس منى . ولكن هذا لم يمنعنى من الوقوع فى حبها بطريقتى المعهودة : وقد عملت على أن تلاحظ هذا ، وإن لم أجرؤ أبدا على البوح لها بحبى ، ولم يكن من طبيعتها أن تتوعد قط إلى رجل ، وهن ثم فقد

٢٤١ اعترافات جان جاله روسو - الجزء الثاني

ذهبت غمزاتي ونظراتي وتاوهاتى ادراج الرياح ، وسرعان ما سئمتها ، إذ رأيت أنها لم تكن تؤدى إلى شيء !

وكننت أثناء إقامتى مع « ماما » قد فقدت تماما الرغبة فى السرقات الصغيرة ، إذ أننى حين رأيت أن كل شيء قد بات ملك يدى ، لم اعد أجد ما يدعو إلى السرقة ! فضلا عن أن المبادئ السامية التى انتهجتها كانت كفيلة بأن تجعل منى فى المستقبل شخصا ساميا لا يأتى أمثال هذه الصقائر ، وهذا ما صرت إليه - يقينا - منذ ذلك الحين . . بيد أن هذا لم يكن راجعا إلى أننى استأصلت الداء من جذوره ، وإنما كان مرده إلى أننى تعلمت التغلب على ما كان ينتابنى من إغراء . وكان الخوف كثيرا ما يملكنى من أن أوغل فى السرقة - كما كننت أفعل فى طفولتى - إذا عاودتنى الرغبة وتهاياتلى الفرصة . وقد تبدى لى الدليل على ذلك فى دار السيد « دى مابلى » . فبالرغم من كثرة الأشياء الصغيرة التى كانت تحيط بى ، والتى كانت فى متناول يدى ، إلا أننى لم أولها نظرة واحدة . . غير أن رغبة قوية تملكتنى فى الحصول على نبيذ أبيض بسيط المفعول اسمه نبيذ « أربوا » ، كان لذيذ الطعم ، وقد طاب لى كثيرا بعد أن تناولت منه بضغ كؤوس على المائدة . . وكان كثيفا بعض الشيء ، وقد زهوت بمهارتى فى تنقية النبيذ ، فعهد إلى بهذا النوع بالذات ، فمقت بتنقيته ، ولكنى أفسدته أثناء ذلك . على أن الفساد لم يلحق إلا مظهره ، فظل لذيذ الطعم ، وكننت أنتهز الفرصة لأأخذ بعض الزجاجات بين الحين والحين أتجرعها عندما يحلو لى ، ولكننى - لسوء الحظ -

(١٦ م - اعترافات - ج ٢)

لم اك اقوى على أن أثرب دون أن أقرن الشراب بالاكل ، فما
 حيلتى فى الحصول على الخبز ؟ .. كان من المستحيل على أن
 احتفظ بشيء منه . ولو أننى أرسلت الخدم لشرائه ، لانفصح
 امرى ، ولكان ذلك — فى الوقت نفسه — إهانة ، أو شبه إهانة ،
 لرب البيت ، كذلك كنت أخشى أن أشتريه بنفسى ، فكيف
 يستطيع سيد مهذب — والسيف إلى جانبه — دخول مخبز
 وشراء رغيف من الخبز ؟ .. وأخيرا تذكرت الملجأ الآخر الذى
 لجأ إليه أمير كبير قيل له ان الفلاحين لم يكونوا بجدون الخبز ،
 فأجاب بقوله : « إذن دموهم يأكلون الفطائر ! » .. ولكن ،
 يا للمسقة التى كابدها فى الحصول على الفطائر ! .. كنت
 أخرج وحدى فى طلبها ، فأجتاز المدينة بأكملها فى بعض الأحيان
 من طرف إلى طرف ، وأمر بثلاثين محلا من محلات الفطائر ،
 قبل أن أدخل أحدها . وكان من الضرورى ألا يكون فى المحل
 غير شخص واحد ، وأن تكون سمات هذا الشخص بشوشة
 جدا ، قبل أن يستقر رأى على المغامرة .. وما أن كنت أفوز
 بكعكى الصغيرة العزيزة ، وأحكم غلق باب غرفتى على ، حتى
 كنت أتى بزجاجة نبيذى من قاع صوان بغرفتى .. وبالفنشوات
 الصغيرة اللذيذة التى نعمت بها وحدى وأنا أقرأ بضع صفحات
 من رواية ! .. فقد كنت أحب دائما أن أقرأ وأنا أتناول طعامى
 إذا كنت وحيدا ، فإن القراءة أثناء الطعام ، كانت دائما الهواية
 التى تعوضنى عن سمر أخلو إليه . وكنت ألهم صفحة ثم
 ازدرد لقمة ، وكان كتابى كان يتناول الطعام معى !

وأنا لم أكن أبدا غاسقا أو سكريا ، بل الواقع أننى لم أتمل



فقد كنت أحب دائما أن أقرأ وأنا أتناول طعامي إذا كنت وحيدا.

فى حياتى قط ! .. وهكذا توالى سرقاتى الصغيرة ، التى لم تك
تخلو تهما من الحرص والحذر ، بيد أنها لم تلبث أن اكتشفت ،
إذ فضحت الزجاجات أمرى . ولم توجه إلى أية ملاحظة ، إلا
أن القبول لم يعد موكولا إلى ، وقد تصرف السيد « دى مابلى »
فى هذا كله تصرفا كريما معقولا ، فقد كان رجلا شهيا ،
يخفى تحت ستار من الخشونة الملائمة لمنصبه نزع رقيقة
حقا ، وطيبة قلب نادرة ! .. كان ذكيا عادلا ، بل إنه
كان لطيفا ، وهو امر لا تنتظره من ضابط من ضباط البوليس
الراكب . وقد قدرت له تسامحه فأصبحت أكثر تعلقا به ،
وحملنى هذا على أن أمكث فى منزله فترة أطول مما كان ينبغي
لى ، ولكننى وقد كرهت آخر الأمر مهنة لم أكن أصلح لها —
بعد أن زججت بنفسى فى موقف كله تعب ، ولم يكن فيه ما يسر .
وبعد سنة من التجربة لم أقتصد فيها شيئا من جهدى —
قررت أن أترك تلميذى وأنا مقتنع بأننى لن أفلح فى تنشئتهما
تنشئة صحيحة . وكان السيد دى مابلى يرى هذا جيدا كما
كنت أراه ، على أننى لا أعتقد أنه كان يقدم على فصلى — من
تلقاء نفسه — لو لم اكفه مؤونة العناء .. ومن المحقق أن هذا
التساهل المفرط — فى حال كهذه — ليس مما أقره !

ومما زاد فى عدم احتمالى لمركزى ، أننى كنت أقارنه على
الدوام بذلك المركز الذى خلفته ورأى : ذكرى (شارميت)
الغالية ، وذكرى حديقتى وأشجارى ، ونبعى ، وبستانى —
وفوق هذا وذاك — ذكرى تلك التى أشعر أننى خلقت من أجلها ،
والتي كانت حياة كل شيء وروحه . وعندما كانت تعاودنى

٢٤٥ اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثانى

نكرى متعنا وحياتنا البريئة ، كان قلبى يرزح تحت شعور من الضيق والاختناق يسلبنى الشجاعة والقدرة على أن افعل أى شئ ! وقد راودتنى — مائة مرة — رغبة عنيفة فى الانطلاق لفورى على قدمى ، والعودة إلى السيدة دى فاران . . كنت على استعداد لأن أموت لفورى راضيا ، لو قدر لى أن اراها مرة أخرى !

ولم أستطع — آخر الأمر — أن أقاوم هذه الذكريات الرقيقة — التى كانت تنادىنى إليها — مهما يكن الثمن ، فقلت لنفسى إننى لم أتذرع بما يكفى من الصبر والكرم والود ، وأننى لو كنت قد أجهدت نفسى أكثر مما فعلت لظلت أعيش معها فى علاقة من الصداقة الخالصة ، وقد وضعت أجمل المشروعات فى العالم وتحرقت شوقا إلى تنفيذها !



وهكذا ، تركت ذات يوم كل شئ ونبذت كل شئ ، ثم شرعت فى رحلتى أنهب الأرض نهبا ، فوصلت إلى الدار بعد استخدام جميع وسائل المواصلات التى توغرت لى فى صدر شبابى . . ووجدتنى عند قدميها مرة أخرى ! أواه ! لقد كنت أموت مغتبطا ، لو أننى وجدت — عند عودتى — فى استقبالها إياى ، أو فى عينيها ، أو فى عناقها ، أو — أخيرا — فى قلبها ، ربيع ذلك الذى كنت أجده من قبل ، والذى كانت نفسى مفعمة به فى عودتى !

واحسرتاه على ما يصادف البشر من خدع قاتلة ! : لقد تلتقننى « ماما » بذلك القلب الطيب الذى لا يموت إلا بموتها ؛

ولكنى بحثت عبثا عن الماضى الذى ولى إلى غير عودة . وما أن مكثت معها نصف ساعة ، حتى شعرت بأن سعادتى السابقة قد زالت إلى الأبد ، ووجدتني في نفس المركز المحزن الذى اضطررت إلى الهرب منه دون أن أستطيع توجيه اللوم إلى إنسان ! .. ذلك أن « كورتيل » لم يكن في قرارة نفسه فتى شريفاً ، وقد لاح عليه السرور — لا الضيق — لرأى . ولكن كيف أستطيع أن أحتمل وجودى كشخص زائد عن الحاجة ، عند تلك التى كنت لها كل شيء ، والتى لن تكف عن أن تكون لى كل شيء ؟ .. كيف أستطيع أن أعيش غريباً في منزل كنت أشعر أنني ابنه ؟ .. بل إن رؤية الأشياء التى شهدت هنائى الماضى ، كانت تزيد المفارقة إيلاماً . . . وكنت خليفاً بأن أغدو أقل الما في أى جو آخر للمعيشة ، فإن شعورى بأننى كنت أذكر دون انقطاع كل تلك الذكريات الطوة ، كان يهيج في صدرى الإحساس بفداحة ما فقدت . . . وإذ راحت الحشرات — التى لم يكن من ورائها طائل — تنهش قلبي ، واستبدت بى أشد ألوان الكآبة سواداً ، أخذت ألوذ بالوحدة في غير أوقات الطعام ، وانفردت بكتبي ، وسعيت إلى أن أجدها فيها بعض التسلية النافعة !

وشعرت بأن الخطر — الذى كنت أخشاه طويلاً — بات وشيك الوقوع ، فأخذت أجهد عقلى من جديد ، محاولاً أن أجده من نفسى وسيلة للتحصن ضده إذا ما نضبت موارد « ملما » . . . فلقد كنت أدير شئوننا المنزلية على أساس أن لا تزداد الأمور سوءاً ، أما بعد أن تركتها فقد تغير كل شيء . . .

كان مدير ماليتها مسرفا ، يريد أن يختال بجواد أصيل وعربة . . وكان مولعا بتمثيل دور النبيل أمام الجيران ، كما أنه كان — فى كل ذلك — يؤدى عملا لا يعرف عنه شيئا . وكان معاش « ماما » مستنفدا مقدما . إذ كانت الدفعات التى تواتيها منه — كل ثلاثة أشهر — مرهونة ، وكانت متأخرة فى دفع الإيجار ، وقد تراكت عليها الديون ، وتوقعت أن يحجز على معاشها ، أو أن يقطع عنها نهائيا . . ومجمل القول أننى لم أر أملى إلا الخراب والكوارث ، وبدأت لى تلك اللحظة وشيكة ، حتى لقد تجسم أمام ناظرى كل ما تنطوى عليه من مظالم !

وكانت غرفتى العزيزة الصغيرة هى ملهاتى الوحيدة ، وبعد أن بحثت طويلا عن أدوية لعلاج قلقي العقلى ، فكرت فى أن أبحث عن علاج للمتعاب التى كنت اتبأ بها ، وعدت إلى افكارى القديمة ، وبدأت نجاة أبنى القصور فى أسبانيا ، محاولا أن أنقذ « ماما » المسكينة من النهاية القاسية التى كنت أراها على وشك التردى فيها ! . . لكنى لم أكن أشعر أننى على علم كاف ، ولا كنت أعتقد أننى موهوب إلى حد يكفى لأن يلعب نجمى بين رجال الأدب ، أو أن أجمع ثروة بهذه الوسيلة . . والهمتنى فكرة جديدة — خطرت لى — بالثقة التى عجزت عنها مواهبى المتوسطة . . ذلك أننى لم أكن قد أقلت عن دراسة الموسيقى عندما كفت عن تدريسها ، بل أننى — على النقيض من ذلك — كنت قد درست نظرياتها دراسة تكفينى لأن أعتبر نفسى عالما فى هذه الناحية من الفن . وبينما كنت أسترجع الصعوبة التى صادفتنى فى تعلم قراءة « النوتة » ، والصعوبة

الكبرى التى كنت لا أزال الاقيها فى الغناء بمجرد النظر إلى « النوتة » ، اخذت افكر فى ان هذه المشقة قد تكون راجعة إلى طبيعة الامر وليس إلى عجزى وقصورى ، لا سيما واننى كنت اعلم انه ليس من السهل على أى إنسان ان يتعلم الموسيقى . وعندما فحصت ترتيب العلامات الموسيقية وجدت انها كثيرا ما تنم عن سوء ابتكار . . وكنت قد فكرت طويلا فى التعبير عن السلم الموسيقى بالأرقام ، وذلك لتفادى رسم الخطوط والعلامات المدرجة عند الرغبة فى كتابة أبسط النغمات . ولم تكن تعوقنى سوى صعوبات تتصل بالطبقات والزمن وقيم « النوتة » .

وقد عاودتنى هذه الفكرة من جديد ، فلما أنهبت النظر فيها ، وجدت ان هذه الصعوبات ليست مما يتعذر التغلب عليه . . وافلحت فى تنفيذ فكرتى ، فاستطعت .آخر الأمر ان اكتب أى موسيقى — مهما يكن شأنها — بأكثر ما يمكن من الدقة . . بل ان بوسعى ان أقول : بأكبر قدر من البساطة . واعتبرت نفسى — منذ تلك اللحظة — من أصحاب الثراء ! . . ولم أعد افكر — وانا شديد الشوق إلى ان تقتسمه معى ثروتى ، تلك المرأة التى كنت مدينا لها بكل شئ — إلا فى الارتحال إلى باريس ، موقنا من اننى سأحدث انقلابا بمجرد عرض مشروعى على الحفل (الاكاديمية) ! . . وكنت قد حملت معى — من ليون — قليلا من المال ، كما اننى بعثت كتبى . وهكذا لم يمض أسبوع ، حتى أصبح قرارى بعدا للتنفيذ ، فرحلت أخيرا عن (سافوا) ، حاملا معى مشروعى الموسيقى ، وانا مغمم بالافكار

اعترافات جان چاه روسو - الجزء الثانى ٢٤٩

الرائعة التى الهمنيها هذا المشروع ، كما رحلت من قبل عن
(تورين) مصطحبا نافورتى الصغيرة !

تلك كانت أخطاء شبابى و عيوبه ، سردت قصتها بإخلاص
صادق يرضى قلبى . وإذا قدر لى - فيها بعد - أن أمجد
السنوات التالية من عمرى ، سنوات النضج ، بأية فضيلة
من الفضائل ، فلن أكون - فى ذلك - إلا منتهجا عين الصراحة
التى اتبعتها من قبل ، فهذه هى نيتى وغايتى !

على أنه من الواجب أن أتوقف هنا . . إن الزمن كفىل بأن
يدفع كثيرا من الأسرار والأحجية . وإذا قدر لمفكراتى أن تنتقل
إلى الأجيال المقبلة ، فقد تفهم هذه الأجيال يوما ما كان ينبغى
أن أقول ! . . وإذ ذاك سيتبين السر فى إخلادى إلى الصمت !



الكراسة السابعة

سنة ١٧٤١

بعد عامين من الصمت والصبر ، أعود إلى القلم بالرغم مما كنت قد اعتزمت . فأمسك أيها القارئ حكك على الأسباب التى تضطرنى إلى ذلك ، فلن يكون بوسعك أن تحكم إلا بعد أن تقرأ ما أنا قائل !

لقد تبين أن شبابى الوداع مضى ينساب فى حياة معتدلة ، كثيرة الرفق ، دون ما ضائقات بالغة ، ولا فترات رخاء عارم . . وكان هذا الاعتدال — إلى حد كبير — نتاج طبيعتى التى جمعت بين التوثب والضعف ، ومن ثم فهى أقل اندفاعا إلى الإقدام ، منها إلى التأثر بالمثبطات . . وأنها لتخرج من تقاعدها بفورات ، ولكنها لا تلبث أن تعود بتقاعس واستمراء . . كما أنها تحملنى دائما — بعيدا عن الفضائل الكبرى ، وأكثر بعدا عن الرذائل الكبرى — إلى حياة الخمول والدعة التى كنت أظننى قد خلقت لها ، دون أن تمكننى إطلاقا من تحقيق أى شئ عظيم ، سواء كان طيبا أو خبيثا !

ألا ما أعظم اختلاف الصورة التى سارسمها عاجلا ! . . فإن القدر الذى ظل خلال ثلاثين عاما يحسابى ميسولى ، راح يعارضها ثلاثين عاما أخرى ، وسيتجلى كيف أن هذا التعارض المستمر بين مركزى وميسولى ، قد خلق عيوباً جسيمة ، وتعاينات لم يسمع لها مثيل . وكل الفضائل — فيها عدا القوة — التى تجعل من البلايا أمعالا مجيدة !

لقد كتب الجزء الاول بأسره من اعترافاتى ، من الذاكرة . . ولا بد أننى ارتكبت كثيرا من الأخطاء فيه ، أما وأنا مضطر إلى كتابة الجزء الثانى من الذاكرة — كذلك — فمن المحتمل أنى سأرتكب مزيدا من الأخطاء ! . . فإن الذكريات الناعمة التى تبقت لى عن أعوامى الجميلة ، التى انقضت فى هدوء وبراءة ، قد تركت ألف أثر غاتن أحب أن أسترجعه دون ما توان ! . . ولسوف يتجلى عاجلا مدى اختلاف هذه الأعوام من بقية عمري . إن استعادة ذكراها لى لون من المرارة المتجددة . وبدلا من أن أضاعف مرارات حالى الراهنة بتلك الذكريات الباعثة على الأسى ، فإننى أقصيتها إلى أبعد ما أستطيع ، وكثيرا ما انجح فى ذلك ، إلى درجة أننى لا أتوى على العثور عليها عند الحاجة . وإن هذه المقدرة على نسيان الهموم بسهولة ، لعزاء أسبغته السماء على ، وسط تلك الهموم التى راق للقدر أن يهيلها يوما على رأسى . فإن ذاكرتى التى تستعيد بمقدرة غدة ما يستحب من الأمور ، هى العامل المرجح السعيد الذى يغالب خيالى الفظيع الذى لا يجعلنى أرى سوى القاسى من أحداث المستقبل !

إن كل الأوراق التى جمعتها كى تعيننى على التذكر ، وكى اهتدى بها فى هذا المشروع ، قد انتقلت إلى أيد أخرى ، ولن يقدر لها أن تعود إلى يدي . . ومن ثم فليست أملك مرشدا أميناً أستطيع أن أعتمد عليه ، اللهم إلا واحدا ، يتمثل فى سلسلة الأحاسيس التى كانت تنم عن تتابع نمو كيانى ، وعن الأحداث المتعاقبة التى كانت إما سببا وإما نتيجة لتلك الأحاسيس والمشاعر . . إننى لأنسى مصائبى بسهولة ، ولكنى

لا أستطيع ان انسى اخطائى ، كما أننى أقل نسياناً لمشاعرى الطيبة ، فإن ذكرها أعز لدى من أن تمحى عن صفحة قلبى إلى الأبد . ولقد أستطيع أن أحذف شيئاً من الوقائع أو أن أحرفها ، وقد ارتكب أخطاء فى التواريخ ، ولكن من المتعذر ان يختلط على الأمر — أو أن أخطئ — إزاء ما حملتنى عواطفى على فعله . وهذا هو الموضوع الرئيسى هنا . فإن الغرض الحقيقى لاعترافتى هو أن أكشف بدقة عن دخيلة نفسى فى جميع مواقف حياتى . . فإنى إنما وعدت بأن أروى قصة نفسى . ولكى أكتبها بآمانة ، لا أرانى بحاجة إلى مذكرات أخرى ، إذ يكفينى أن أعود للغوص فى أعماق كدابى حتى الآن !

على أن ثمة فترة تتألف من ست أو سبع سنوات ، أملك — لحسن الحظ — معلومات وثيقة عنها ، ممثلة فى مجموعة منسوخة من خطابات معينة ، استقرت النسخ الأصلية لها فى حوزة السيد « دى بىرو » . وهذه المجموعة — التى تنتهى فى سنة ١٧٦٠ — تشمل جميع الفترة التى مكنتها فى « الصومعة » — (الارميتاج) — ونزاعى الكبير مع من كانوا يزعمون أنهم أصدقاؤى . . وإنها لفترة من حياتى جديدة بالذكر ، فهى منبع كل البلايا الأخرى . أما بالنسبة للخطابات الأصلية الأقرب عهداً ، والتى بقيت فى حوزتى — وهى قليلة العدد جداً — فإنى لن أنسخها وأضيفها إلى هذه المجموعة التى قدر لها أن تكون أضخم من أن أرجو أن أوفق فى إخفائها عن عيون رقبائى (١) ،

(١) العبارة التى ذكرها « روسو » هى : « أخفائها من أعين (ارجوسائى) »

٢٠٥٢، اعترافات جان چاڤ روسو - الجزء الثانى

وإنما سأسلكها فى سياق هذا المؤلف نفسه ، عندما يبدو لى أنها كفيلة بأن تلقى أضواء على الوقائع ، سواء لصالحى أو ضدى . ذلك أننى لا أخشى قط أن ينسب القارىء أننى اكتب اعترافانى ، وأن يظن أننى اكتب تقريرا أو مبررا لما تخل حياتى . . وإنما يجدر به ألا يتوقع أن أمسك عن ذكر الحقيقة إذا كانت فى صفى وصالحى .

وفيما عدا ذلك ، فليس لهذا القسم الثانى من صفة يشترك فيها مع القسم الأول سوى هذه الحقيقة ، وليس له من ميزة عليه إلا بقدر أهمية الأمور التى يتضمنها . وفيما عدا ذلك ، فلن يخفق هذا القسم فى أن يكون مغايرا لسابقه من كافة الاعتبارات (١) . فلقد كتبت الأول بلذة وسرور وارتياح ، فى

==

البقرة « . . وارجوساتى هى جمع « أرجوس » . وهو تعبير مجازى ، مان « ارجوس » اسم يطلق فى أساطير اليونان على عملاق ذى مائة عين ، أتباعه الرب « هيرا » — عندما تولدت فى الغيرة — ليراهب « يو » معشوقة الاله « زيوس » ، التى كانت قد مسخت على شكل بقرة !

(١) التعبير الذى أورده « روسو » هو : « لن يخفق فى أن يكون أفضل شأننا » . . وهو ما لا احسبه بقصده ، فالواقع أن هذا الجزء من اعترافاته — وهو الذى يشمل الكرامات من ٧ الى ١٢ — يضم أحداثا ومعلومات على قدر كبير من القيمة تدفع على قدر ما ورد فى القسم الأول . وإنما اختار « روسو » هذا الوصف لأنه كان — عندما كتب هذا القسم — ضحية لاتفاعلات نفسية قاسية ، أوحى إليه بأن اعز أصدقائه ، الذين أووه فى إنجلترا — حيث كتب

==

٢٥٤ اعترافات جان بول روسو - الجزء الثاني

(ووتون) أو في قصر « ترى » ، وكانت لكل الذكريات التي تواردت على خاطري مباحج جديدة . ولقد رحت أسترجمها دون انقطاع ، وباستمتاع متجدد ، فاستطعت أن أراجع وانتح ما أوردته من أوصاف — دون ما ملل أو ضيق — حتى أصبحت راضيا عنها . أما اليوم ، فإن ذاكرتي وعقلي الكليلين يكادان يجعلانني عاجزا عن كل عمل ، ولست أشغل بهذا القسم إلا مكرها ، والأسى يعتصر قلبي . . إنه لا يمثل — بالنسبة إلى — سوى محن وخيانات وغدر وذكريات تحزن النفس وتمزقها . . إنني لأنزل للعالم عن كل شيء ، كي أوارى في ليل الزمان ما أنا موشك أن أقوله . . وإنني إذ اضطر إلى الكلام — بالرغم مني — أعمد كذلك إلى الاستخفاء ، وإلى التحايل ، وإلى محاولة الخداع ، وأتأخر إلى تصرفات أنا أبعد الناس عن أن أكون قد خلقت لممارستها !

إن للسقف الذي أوجد تحته عيونا، وللجدران المحيطة بي آذاننا . وإنني — إذ يحف بي جواسيس ورقباء أشرار ويقظون، وإذ يتوزعني القلق والهم — لأسطر على الورق في عجلة بضع كلمات مفككة لا أكاد أجد وقتا لمراجعتها . فما بالكم بتصحيحها! . . إنني أدرك أن أعدائي لا يزالون — برغم الحواجز الهائلة التي تقام حولى دون انقطاع — في خوف دائم من أن تجد الحقيقة

=

الكراسات الست الأولى — قد تأمروا عليه مع ملك بروسيا ، فتأخذ بلادهم ، وظل ينتقل وهو مبتكر ، لا يكاد يامن الى استقرار . ومن هنا ندرك سر التشاؤم والأسى والشك والعنوط التي تطبع بخديقه هذا ::

٢٥٥ اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثاني

بنفذا تتسرب منه . فكيف يتسنى لى أن أدفع بها إلى النور ؟ . .
 لسوف أحاول ، وأنا قليل الرجاء فى النجاح . فبهذا الذى
 يقول إن فى هذا مادة لصور مستحبة ، ولإضفاء ألوان جذابة
 على هذه الصور ؟ . . إننى لهذا أنذر المقبلين على قراءة هذا ،
 بأن ليس ثمة شيء — فى سياق هذا الحديث — يستطيع أن
 يقيهم السأم ، اللهم سوى الرغبة فى استكمال التعرف على
 إنسان ، وسوى الحب الصادق للحق والصدق !



تركتهمونى — فى القسم الاول — وأنا راحل محسورا إلى
 باريس ، مخلفا قلبى فى (شارميت) ، حيث أقمت آخر قلعة لى
 فى أسبانيا (١) ، معتزما أن أعود إلى هناك يوما فأتطرح عند
 قدمى « ماما » — إذ تكون قد ارتدت إلى نفسها وسجيتها —
 بما أكون قد أحرزت من كنوز ، ومطمئنا إلى طريقتى الموسيقية
 بوصفها ثروة محققة أكيدة !

وتخلفت بعض الوقت فى (ليون) لأزور معارفى ، ولأحصل
 على بعض التوصيات التى أفيد منها فى باريس ، ولأبيع كتبى
 الهندسية التى كنت قد حملتها معى . ولقد رحب بى الجميع ،
 فأتطهر السيد والسيدة « دى مابللى » اغتباطا لرؤيتى ، ودعوانى
 للعداء عدة مرات ، وتعرفت لديهما بالراهب « دى مابللى » ،
 كما كنت قد تعرفت من قبل بالراهب « دى كونديللاك » ، وكان
 الاثنان قد أقبلا لزيارة شقيقتهما . ولقد أعطانى الراهب

(١) اصطلاح يقابل « بناء القصور فى الهواء » عندنا .

٢٥٦ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى

« دى مابلى » خطابات تقدمه إلى أناس فى باريس ، منها واحد للسيد « دى فونتنيل » ، وآخر للكونت « دى كايپرس » . وقد اتاحت لى الرسالتان معرفة شخصيتين لطيفين جدا ، لا سيما السيد الاول الذى لم يكف حتى موته عن أن يؤثرنى بوده ، وعن أن يمنحنى — فى الأحاديث التى كانت تدور فى خلواننا — نصائح كان خليقا بى أن أحسن الاستفادة منها .

وزرت السيد « بورد » الذى كنت قد تعرضت به منذ وقت طويل ، والذى كثيرا ما ساعدنى بقلب كبير وبأعظم سرور صادق . ولقد ألفيته فى هذه المناسبة على حاله التى عهدتها . فقد كان هو الذى باع كتبى ، كما أعطانى من لده — أو حصل لى من الغير — على خطابات توصية طيبة . وزرت السيد وكيل الحكومة ، فقد كنت مدينا له بمعرفة السيد « دى بورد » ، كما أدين له بالتعرف إلى الدوق « دى ريشيليو » ، الذى مر بليون فى ذلك الوقت ، سقدمنى السيد « بالو » إليه . وقد أحسن السيد « ريشيليو » استقبالى ، ودعانى إلى أن أزوره فى (باريس) — وهذا ما فعلته عدة مرات — ولكن . . دون أن يكون لهذه الشخصية الرفيعة — التى سأتكلم عنها كثيرا فيما بعد — أى نفع لى !

كذلك زرت الموسيقى « دافيد » الذى أولانى عونهُ فى ضائقتى فى إحدى رحلاتى السابقة ، إذ أعارنى — أو منحنى — قلنسوة وزوجا من الجوارب ، لم أردها إليه قط ، ولا هو سألنى أن أردها أبدا ، برغم أننا تقابلنا كثيرا منذ ذلك الحين . على أننى لم ألث أن قدمت إليه — فيما بعد — هدية تعادل تلك الأشياء

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثاني ٢٥٧

تقريبا . وبوسعى أن أتحدث عن نفسى بأشياء أفضل من هذا ، لو أننى كنت بصدد ما كان ينبغى عمله ، لا ما عملته فعلا . . وهما حالان ليستا سواء ، لسوء الحظ !

كذلك رأيت النبيل السخى «بيريشون» ، فلم أفتقد سخاءه المعهود ، فقد منحنى عين الهدية التى كان قد قدمها من قبل إلى « برنار » اللطيف إذ دفع أجر مقعدى فى عربة البريد السريعة . . وزرت الجراح « باريسو » ، أحسن وأفضل الناس عملا . كما قابلت عزيزته « جودفروا » التى كان على علاقة مستمرة بها منذ عشر سنوات ، والتى كانت كل مؤهلاتها تقريبا تتمثل فى لطف الخلق وطيبة القلب ، والتى لم يكن فى وسع المرء أن يراها لأول مرة دون أن يوليها حسن اهتمامه ، ولا أن يفارقها دون ما اشفاق وتأثر ، إذ أنها كانت فى آخر أطوار السل ، الذى لم يلبث أن ماتت به بعد ذلك بقليل . وليس أقدر على كشف الميول الحقيقية لآى إنسان ، من أخلاق أولئك الذين يتعلق بهم (١) . . وقد كان بوسع أى امرئ رأى

(١) أرتد روسو — فى هامش مؤلفه — معلقا على هذا بقوله : « ما لم يكن قد خدع فى اختياره من البداية ، او ما لم تكن شخصية المرأة التى تعلق بها قد تغيرت — بعد ذلك بتأثير مجموعة من الظروف غير العادية ، فإن من المستحيل أن تكون هذه القاعدة مطلقة . ولو اريد اقرار هذه القاعدة دون تعديل ، لجاز الحكم على « سقراط » بشخصية زوجته « كسانتيت » ، او « ديون » بشخصية صديقه « كالليوس » . . وهذا خليق بأن يكون أبعد الأحكام عن الإنصاف ، وأكثرها خطا . وفوق هذا ، لا ينبغى أن تطبق هذه القاعدة هنا على زوجتى تطبقا يسىء اليها . نهى بالتأكيد أضيق عقلا وإسهل

٢٥٨ اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثاني

« جودفروا » اللطيفة أن يدرك شخصية « باريسو » الطيب .
 إننى مدين لكل هؤلاء الكرام . ولقد أغفلتهم جميعا —
 فيما بعد — لا عن جحود ، بالتأكيد ، وإنما نتيجة ذلك الكسل
 العتيد الذى كثيرا ما يظهرنى بمظهر الجاحد ! .. بينما الواقع
 أن ذكرى خدماتهم لم تبرح فؤادى قط ، كما أن اظهارهم على
 عرفانى ما كان ليكبذننى ما تكبذنيه المثابرة على ذكره . ولقد
 كانت المواظبة على التراسل أمرا فوق طاقتى دائما ، فإنى ما أن
 أبدا فى الشعور بتكاسلى فيها ، حتى يحملنى الخجل والحيرة
 فى طريقة إصلاح عيبى على مضاعفة هذا العيب ، فإذا بى اكف
 عن الكتابة بالمرة ! ومن ثم فقد لذت بالصمت إزاء هؤلاء ، حتى
 بدا أننى نسيتهم . ومع ذلك فلن «باريسو» و «بيريشون» لم
 يلقيا بالا ، فكنفت أجدهما دائما كما عهدتهما . أما فى حالة السيد
 «بوردي» ، فلن يلبث أن يتبدى كيف أن الانتقام للشعور بالاهمال ،
 حل — بعد عشرين عاما — محل الحب الصادق والذكاء البديع !
 وما ينبغي لى أن أنسى — قبل مبارحة ليون — شخصية
 لطيفة زرتها فى اغتباط لم أشعر قط بمثله — وقد تركت فى
 فؤادى ذكريات جد رقيقة . تلك هى الآنسة « سير » ، التى
 تحدثت عنها فى القسم الأول (١) ، والتى جددت تعارفى بها عندما

==

انسياها للخداع بما كنت انصور ، ولكنها ذات خلق طاهر ، رائع ، خال من
 أى خبث ، جدير بكل تقديرى ، وهذا ما سيظل يحظى به ما حييت .

(١) الكراسة الرابعة . وقد كتب لها « روسو » يوما أروع خطاب غرامى

فى كل مخطاته الأدبية !

اعترافات جان جال دوسو - الجزء الثاني ٢٥٩

كنت في دار السيد « دى مابلى » . ولما كان لدى متسع من الوقت ، في هذه الرحلة ، فقد رأيتها كثيرا ، ومال إليها قلبي في وجد قوى . ولدى من الاعتبار ما يحملنى على أن أظن أن قلبها لم يكن على النقيض ، بيد أنها أولتنى من الثقة ما بدد بكل إغراء بأن أسوء استغلالها . ولم تكن تملك شيئا ، ولا كنت أنا أملك أكثر منها ، وكان مركزنا جد متشابهين ، إلى درجة لا تغرى بأن نتحد ، لا سيما وأننى كنت — بالأبراء التى كانت تملكنى — بعيدا كل البعد عن التفكير في الزواج . ولقد أنبأتنى بأن تاجرا شابا ، يدعى السيد جنيف ، كان يبدو راغبا في أن يرتبط بها . وقد التقيت به عندها مرة أو اثنتين ، فترأى لى أنه شساب أمين شريف ، وكان معروفا بذلك . وإذا خيل إلى أنها كانت تحبه ، تمنيت أن يتزوجها — وهو ما فعله فيما بعد — فأسرعت بالرحيل كى لا أكرر صفو عواطفها البريئة ، مزجيا لسعادة هذه الشابة الفاتنة دعوات ، لم يقدر لها أن تستجاب على هذه الأرض إلا لأجل قصير . . . والأسفاه ! . . . جد قصير ! . . . فقد علمت فيما بعد أنها ماتت بعد عامين أو ثلاثة من زواجها ! ولما كنت قد شغلت طيلة رحلتى بحسرات عاطفية ، فقد أحسست — ولا أزال أحس في كثير من الأحيان ، كلما فكرت في ذلك — بأنه إذا كانت التضحيات التى يقدم عليها المرء في سبيل الواجب والفضيلة تكبده ثمنا غاليا ، إلا أنه لا يلبث أن يلقى الجزاء ممثلا في الذكريات الناعمة التى تخلفها له تلك التضحيات في قرارة مؤاده !

وإذا كنت قد رأيت باريس — في رحلتى السابقة — من ناحية لا تجعلها أهلا للإعجاب، فإننى رأيت — في هذه الرحلة —

٢٦٠ اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثانى

جانبها اللامع . على أن هذا لم يكن الشأن بالنسبة لسكنائى ، فقد ذهبت — حسب ارشاد السيد بورد — للقامة فى نزل « سان كنتان » ، بشارع (ديه كوردييه) ، على مقربة من « السوربون » .. وكان شارعاً وضيقاً ، ونزلاً وضيقاً ، وحجرة وضيقة .. ومع ذلك فقد اعتاد هذا النزل أن يأوى رجالاً محترمين ، من أمثال جريسبه ، وبورد ، والراهبين الشقيقتين « دى مابلى » ، وكونديلاك ، وكثيرين غيرهم — وإن لم أعتبر فيه ، لسوء الحظ ، على واحد منهم — غير أنى التقيت بشاب يدعى السيد « دى بونفون » ، كان ريفيساً أعرج ، محامياً ، يحرص على انتقاء ألفاظه . وقد تعرفت عن طريقه إلى السيد « روجان » الذى أصبح الآن أقدم أصدقائى . وعن طريقه تعرفت إلى الفيلسوف « ديديرو » ، الذى سأكثر من الحديث عنه فيما بعد .



ولقد وصلت إلى باريس فى خريف سنة ١٧٤١ ، وكل مواردى خمسة عشر «لوى» ، ومسرحيتى الهزلية «نارسيس» ، ومشروعى الموسيقى . ولما لم يكن لدى وقت أضيعه فى محاولة تدبير انفاقها على خير وجه ، فقد أسرعته إلى استغلال خطابات التوصية التى كنت أحملها . وأى شاب يصل إلى باريس مزوداً بشكل وسيم ، ومعلناً عن نفسه بمواهبه ، قمين بأن يتأكد دائماً من أنه سيجد ترحيباً . وقد كنت كذلك ، فمكنتنى هذا من أن أحظى بنعم كثيرة ، وإن كانت لم تساعدنى مادياً بدرجة تفكر . ومن كافة الأشخاص الذين حملت إليهم التوصيات ، لم يقبث سوى ثلاثة أنهم نافعون لى ، وهم : السيد داميسان

٢٦١ اعترافات جان چالده روسو - الجزء الثاني
 - وكان سيداً من (سافوا)، كان إذ ذاك من الفرسان، وأحسبه
 كان ذا حظوة لدى الأميرة «دى كارينيان» ثم السيد «دى بوز»،
 سكرتير ديوان الخطوط وحارس الأوسمة بديوان الملك . .
 وأخيراً الأب «كاستيل» الجزويتى، مخترع «الكافيسان» (١)،
 البصرى . وكانت خطابات التوصية للأخيرين منهم صادرة من
 الراهب «دى مابلى» .

ولقد تكفل السيد داميسان بها كانت تمس إليه حاجتى ،
 إذ عرفنى إلى اثنين ، أحدهما السيد «دى جاسك» ، رئيس
 برلمان (بورديو) (١) ، الذى كان يحقن العزف على الكمان حذفاً
 بالغاً . . وثانيهما الراهب «دى ليون» ، الذى كان يقيم إذ ذاك
 فى السوربون ، وكان راهباً شاباً ، موفور اللطف، مات فى زهرة
 عمره . بعد أن تألق فى المجتمع لنضع بسنوات تحت اسم
 الشيفالييه روهان (٢) . وكان كل منهما مشغولاً بتعلم التلحين؛

(١) الكلايسان آلة موسيقية ، و «الكلايسان البحرى» آلة ذات مفاتيح
 تتصل - الى جانب الأوتار - بمكعبات ملونة . ماذا عزف عليها - كما يعزف
 على الآلة الموسيقية - تتابعت الألوان تتابع الأنغام ، بحيث تتماشى الألوان
 الأساسية المتبعة الأولى ، مع الأنغام السبعة الأولى فى الموسيقى - وكانت
 غاية المخترع ، أن يحدث المؤثرات النفسية بالألوان !

(١) فى الأصل : " الرئيس ذو القلنسوة المخبلية السوداء المستديرة !
 (٢) بطننا من سيرة «الشيفالييه دى روهان» ، فلم نجد من يحمل لقب
 «شيفالييه» - أى فارس - وينطبق عليه ما ذكره «روسو» عن التألق وتصر
 المعز «نوى» الشيفالييه لويس دى روهان » ، الذى اشترك فى مؤامرة
 ==

٢٦٢ اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثاني

فرحت أدرسه لها بضعة أشهر ، مما أنعش مواردى المالية الناضبة . ولقد أولانى الأب « ليون » وده ، ورغب فى أن يتخفى سكرتيرا له ، ولكنه لم يكن غنيا ، فلم يكن بوسعه أن يدفع لى مرتبا يتجاوز ثمانمائة فرنك . . فرفضت منصبه وأنا آسف ، إذ لم يكن مرتبه يكفى لنفقات سكنى وتغذيتى ومستلزمات معيشتى .

أما السيد « بوز » ، فقد استقبلنى استقبالا طيبا جدا . وكان عالما ، ومشغوبا بالمعرفة ، ولكنه كان متغطسا بعض الشيء . وكانت السيدة دى بوز خليقة بأن تكون ابنته ، لا زوجته ! وكانت لامعة الذكاء ذات مهابة . وقد تناولت الغداء فى دارها بضع مرات ، وما كان أحد ليشعر بمثل ما كنت أشعر به من خجل وارتباك فى محضرها ، فقد كان مسلكها غير المتكلف يحرجنى ويجعل مسلكى أدمى إلى الضحك . . فإذا قدمت لى طبقا ، كنت أدفع « شوكتى » فالتقطت فى تواضع - قطعة صغيرة لها تقدمه لى ، بطريقة كانت تجعلها ترد إلى خادمها الطبق الذى كانت قد أعدته لى ، وهى تدير وجهها لى لا أراها وهى تضحك ! . . ومع ذلك ، فما كان يساورها أى

=

فقد الملك لويس الرابع عشر ' وأعدم . ولكن هذا عاش بين سنتى ١٦٢٥ و ١٦٧٤ ' أى قبل مولد « روتسو » . و « زوهان » الوحيد الذى عاشه « روتسو » هو الأمير ادوار دى زوهان - الذى عاش بين سنتى ١٧٣٤ و ١٨٠٣ - وكان كاردينالا ، ولكنه لم يكن « شيفالييه » . ولعل الأمر التيسر لى « روتسو » .

٢٦٢. اعترافات جان جاله روسو - الجزء الثاني

ريب في صلاحية رأس هذا الريفى الشاب ، ولم يفتها أن ترى فيه بعض الذكاء . ولقد قدمنى السيد دى بوز إلى صديقه السيد « دى ريومور » ، الذى اعتاد أن يحضر إلى داره لتناول الغذاء في أيام الجمعة ، وهى أيام انعقاد اجتماعات محفل العلوم . ولقد حدثه السيد دى بوز عن مشروعى ، وعن الرغبة التى كانت لدى فى أن أضعه تحت اختبار المحفل ، فتكلل السيد دى ريومور بالاقتراح ، فلم يلبث أن حظى بالقبول !

وفي اليوم المحدد لمناقشة المشروع ، تولى السيد دى ريومور تقديمى والتعريف بى . وفي اليوم ذاته — ٢٢ أغسطس سنة ١٧٤٢ — تشرفت بأن قرأت على المحفل المذكرة التى أعدتها لذلك . ومع أن هذا المحفل الجليل كان عظيم المهابة والرغبة — يقينا — فلئننى كنت أمامه أقل ارتباكاً منى أمام السيدة دى بوز ، واستطعت أن أؤدى القراءة وأن أجيب على الأسئلة بنجاح . فاستقبلت الرسالة بتقدير ، وجلبت لى التهاني ، مما أدهشنى أكثر مما سرنى . . فما كنت لأتصور أن أى امرئ لا ينتهى إلى المحفل — أيا كان — يبدو لأعضائه ذا إدراك سليم ! وكانت اللجنة التى تولت مناقشتى تتكون من السادة دى ميران ، وهيلو ، ودى فوشى . وكان ثلاثتهم من الأكفاء دون ما ريب . . ولكن لم يكن بينهم واحد يلم بالموسيقى إلما كافيا — على الأقل — لأن يجعله فى وضع يمكنه من الحكم على مشروعى !

سنة ١٧٤٢

وفي خلال مناقشأتى مع هؤلاء السادة ، تبينت — فى شك أكثر منى فى دهشة — أن العلماء وإن كانوا أقل من سواهم

٣٦٤ اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثاني

تحاملا ، في بعض الأحيان ، إلا أنهم أكثر تشبها بما يكون لديهم من آراء ، وكأنهم يجدون في ذلك لونا من التعويض . فبتسدر بها كانت معارضة هؤلاء السادة واهية ، وخاطئة في الغالب ، ومع أنني كنت أردھا بحجج قاطعة — برغم تهيبى ، كما ينبغي أن أعترف ، وبرغم سوء تعبيرى — إلا أنني لم أوفق مرة واحدة إلى أن أحلهم على أن يفهموا قولى وأن يقتنعوا به . وكنت أبهت دائما للسهولة التى كانوا يخطئوننى بها — مستخدمين في ذلك بعض العبارات الرنانة — دون أن يكونوا قد فهموا شيئا . ولقد اكتشفوا — حيث لا أدري — أن راهبا يدعى الأب « سوهيتى » ، كان قد تصور فكرة كتابة السلم الموسيقى بالأرقام . وكان هذا كافيا لأن يزعموا أن طريقتى لم تكن جديدة . وقد يكون الأمر كذلك ، إذ أنني وإن لم أسمع قط بالأب سوهيتى ، ومع أن طريقتة في كتابة النغمات الرئيسية السبع في الترانيم الكنسية دون أى تفكير في الثمانيات ، لا تستحق — في أى اعتبار — أن تقاس بابتكارى البسيط الملائم لكتابة جميع أنواع الموسيقى الممكن تصورها ، في غير مشقة ، بوساطة الأرقام : من طبقات ، ووقفات ، وثمانيات ، ومسافات وتوقيت ، وتقويم . . وكلها أشياء لم تخطر لسوهيتى ببال إطلاقا . . بالرغم من كل هذا ، فقد كان من الصحيح تماما أن يقال إنه — فيما يتعلق بالتعبير الأولى عن النغمات الرئيسية السبع — كان أول مبتكر في هذا المضمار . ولكنهم^(١) لم يكتفوا بأن يعزوا إلى هذا الابتكار البدائى أهمية أكثر مما كان

(١) يقصد « روسو » أعضاء المحفل الذين تولوا مناقشته .

اعتراضات جان چاله روسو - الجزء الثانى ٢٦٥

يستحقها ، وإنها أبوا أن يفتنوا عند هذا ، وبمجرد أن حاولوا أن يتكلموا عن المبادئ الأساسية للطريقة ، لم يقولوا سوى لغو .

كانت الميزة الكبرى لطريقتى ، هى الاستغناء عن التبديل والطبقات ، بحيث يمكن كتابة أية قطعة ونقلها حسب الرغبة ، ومهما تكن الطبقة المنشودة ، بوساطة التبديل المقترح فى حرف ابتدائى واحد عند بداية اللحن . ولكن هؤلاء السادة كانوا قد سمعوا بعض مدمى الموسيقى فى باريس يقولون إن طريقة العزف بتبديل الطبقات غير ذات قيمة . ومن هنا ، قلبوا إبرز ميزات طريقتى إلى اعتراض ضدها يتعذر التغلب عليه ، وانتهوا إلى تقرير أن طريقتى صالحة للأداء الصوتى ، وغير صالحة للأداء الآلى ، بدلا من أن يقرروا — كما كان ينبغى — أنها صالحة للأداء الصوتى ، وأكثر صلاحية للأداء الآلى . وبناء على تقريرهم ، منحنى المحفل شهادة مليئة بالاطراء السديع للغاية ، يتبدى خلال سطورها أنه — فى الواقع — لم ير أن طريقتى جديدة ولا نافعة ! .. ولم أشعر قط بأن من الواجب أن أزين ببثل هذه الوثيقة مؤلفى الذى سميت « رسالة فى الموسيقى الحديثة » ، ولجأت فيه إلى تحكيم الراى العام !

ومن حتى — فى هذه المناسبة — ان الفت النظر إلى أن المعرفة الممتازة بالشئ — على شريطة أن تكون شاملة عميقة — أفضل من كافة الأضواء التى تليقها الثقافة والعلم ، فى تكيين المرء من إصابة الحكم ، إذا لم تكن هذه الأضواء مقترنة بدراسة خاصة للموضوع المعروض على بساط البحث . وكان الاعتراض القوي البوجد ، الذى وجه إلى طريقتى ، موجها من « رامو » .

٣٦٦ اعترافات جان جاك بوسو - الجزء الثاني

وما أن شرحت له ردى ، حتى تبين ضعفه ، فقال : « ان علامتك صالحة جدا ، من حيث أنها تحدد القيم الموسيقية ببساطة ووضوح ، كما أنها تعين المسافات بدقة ، وتبين دائما النغم المفرد في حالة ازدواج النغم ، وهى أمور لا تيسرها طريقة النوتة العادية . . ولكن علامتك غير صالحة من حيث أنها تتطلب جهدا ذهنيا لا يتناسب دائما مع سرعة الأداء » . واستطرد قائلا : « ان وضع علامتنا الموسيقية يتجلى للعين دون حاجة إلى الاستعانة بهذا الجهد ذهنى . فإذا ارتبط نغمان — أحدهما مرتفع جدا ، والآخر منخفض جدا — بسلسلة من الأنغام الوسيطة فإن بوسعى أن أرى — من أول نظرة — التطرق التدريجى من أحد النغمين إلى الآخر . . أما حسب طريقتك ، فلا بد لى — للتأكد من هذا التسلسل — من أن أورد كل أرتامك متعاقبة — الواحد بعد الآخر ومن ثم فإن النظرة الشاملة لاتمدك بشيء ! »

ولاح لى انه اعترض مفحم ، فأقررت لتوى بقوته ، فى حين أنه بسيط ومدهش ! . . فهو اعترض لا توحى به سوى الخبرة الواسعة بالفن ، ومن ثم فلا عجب فى أنه لم يخطر ببال أحد من أعضاء المحفل ، ولكن هذه هى حال هؤلاء العلماء الكبار جميعا ، فهم يعرفون كل الاثياء ، بيد أن الماهم بكل شيء — على حدة — قليل ، بحيث لا ينبغى للواحد منهم أن يقضى برأى إلا فيما يتعلق بالفرع الذى اختصه بدراسته !

وقد أتاحت لى زيارتى المتعددة لأعضاء لجنة مناقشة رسالتى ، ولغيرهم من أعضاء المحفل ، فرص التعرف لى

اعتزافات جان چاله روسو - الجزء الثانى ٢٦٧

جميع أولئك الذين كانوا فى طليعة المبرزين فى ميدان الأدب فى (باريس) . ومن ثم فإنتنى كنت على معرفة قائمة بهم ، عندما وجدتنى - فيما بعد - مدرجا بفتة فى سلكهم . أما فى الفترة التى اتحدث عنها ، فقد كنت - لفرط استغراقى فى طريقتى الموسيقية - مصرا على أن أحدث بها انقلابا فى هذا الفن ، وأن أحرز بهذا شهرة ترتبط دائما فى ميادين الفن الجميل - فى باريس - بالثراء ! .. ولهذا احتبست نفسى فى غرفتى وعكفت على العمل شهرين أو ثلاثة فى حمية لا سبيل إلى وصفها ، لأشرح - فى مؤلف أقدمه للرأى العام - المذكرة التى قرأتها على المحلل . وكانت العقبة تتمثل فى العثور على ناشر يتكفل بمؤلفى ، نظرا لأن الرموز الجديدة كانت تتطلب بعض نفقات ، فى حين أن الناشرين لا يبيعرون دراهمهم على رؤوس المبتدئين ، مع أننى كنت أرى أن من الإنصاف أن يعود على مؤلفى بالخبز الذى التهمته وأنا أكتبه !

وعثر لى « بونفون » على « كايو » - الأب - الذى عقد معى اتفاقا على أن نقسم الربح ، بفض النظر عن « الامتياز » (١) الذى كان على أن أتكفل بدفع نفقاته وحدى . وقد أساء « كايو » - المذكور - تدبير الأمر ، بحيث أن النقود التى دفعتها لأحصل على الامتياز ذهبت أدراج الرياح ، ولم أخرج بدرهم واحد من هذه الطبعة ، التى كانت - فى الواقع - ضئيلة

(١) نظام 'يتبادل' « حق النشر » ، يقتصر حق طبع كتاب معين ، على مؤلف

أو ناشر معين .

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث

الرواج ، بالرغم من أن الراهب « ديفونتين » وعد بالعمل على ترويجها ، كما أن غيره من الصحفيين تحدثوا عنها حديثا طيبا!

ولقد كانت العقبة الكبرى في تجربة طريقتي ، هي أن أحدا لم يكن ليرضى بأن يضيع الوقت الذي يتطلبه تعلمها ، إذا هي لم تصبح الطريقة السائدة في الموسيقى . وقد قلت ردا على ذلك ، أن المران على أسلوبى في العلاقات الموسيقية ، يجعل الأفكار من الوضوح بحيث أن الذى يشرع فى تعلم العلامات الموسيقية العادية ، يستطيع أن يقتصد من الوقت الذى يستغرقه تعلمها ، إذا هو بدا بطريقتي . ولأقامة الدليل العملى، قدمت دروسا فيها — بالمجان — لشابة أمريكية تدعى الآنسة « دى رولان » ، كان السيد روجان قد عرفنى بها . فإذا بها تصبح — خلال ثلاثة أشهر — قادرة على أن تقرأ على «نوتتى» أى نوع من الموسيقى ، وأن تغنى بمجرد النظر إلى « النوتة » — باتقان يفوق اتقانى أنا — كل قطعة غير بالغة الصعوبة . وكان هذا التوفيق رائعا، ولكنه ظل مجهولا . فقد كان أى امرئ سواى خليقا بأن يملأ الصحف به ، أما أنا ، فبالرغم من أننى أوتيت المقدرة على اكتشاف الأشياء المفيدة ، إلا أننى لم أعمد قط إلى إبراز قيمتها !

وهكذا تحطمت « نافورتنى الصغيرة » مرة أخرى (١) .

(١) يشبه « روسو » مشروعه الموسيقى ، بالنافورة الصغيرة التى بنى عليها آمالا عندما بارح (تورين) ، والتى أورد قصتها فى الكراسى الثالثة بالجزء الأول .

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثانى ٢٦٩

ولكنى فى هذه المرة الثانية ، كنت فى الثلاثين من عمرى ، وكنت قد وجدت نفسى فى طرق (باريس) المعبدة ، حيث لا يستطيع المرء أن يعيش بلا موارد . ولن يدهش القرار الذى انتهى بى إلى هذه النهاية ، سوى أولئك الذين لم يقرأوا بلعمان الجزء الأول من هذه المذكرات ! .. ذلك أننى كنت قد بذلت مجهودا كبيرا ، وإن لم يكن مثمرا ، فكنت بحاجة إلى استجمام . وبدلا من أن استسلم للقنوط ، أسلمت نفسى لخبولى المعهود ، وللعناية الالهية ، ولكى أدع لهذه العناية وقتا كى تقوم فيه بدورها ، فقد أقبلت على اتفاق بضع قطع مالية من فئة «لوى» — كانت قد بقيت معى — فى غير ما تعجل ! .. وديرت نفقات متعى البريئة بحيث لا أتخطئ عنها ، فلم أعد أذهب إلى المقهى سوى مرة فى كل يومين ، وإلى المسرح مرتين فى الأسبوع . أما النفقات اللازمة لصحبة الفتيات ، فإننى لم أكن بحاجة إلى الحد منها ، لأننى لم أنفق «سو» واحد على هذه الناحية ، فى حياتى ، اللهم إلا فى مناسبة واحدة ، سأضطر إلى الحديث عنها بعد قليل .



٣٧٠. اعترافات جان راسو - الجزء الثاني

((كتابي))

صدر من هذه السلسلة :

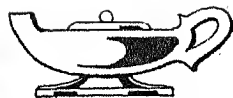
- | | |
|-------------------------------|-----------------------------------|
| ٢٥ - الحرب والسلام ج ٤ . | ١ - وجود الحب السبعة . |
| ٢٦ - تعلم كيف تسترخي . | ٢ - الحبيب الأول . |
| ٢٧ - متركب النقص . | ٣ - جريمة حب . |
| ٢٨ - غرام سوان ج ١ . | ٤ - أنا كارينينا . |
| ٢٩ - غرام سوان ج ٢ . | ٥ - الحرب والسلام ج ١ . |
| ٣٠ - كيف نجحوا في الحياة . | ٦ - الحرب والسلام ج ٢ . |
| ٣١ - كيف تحصل على الثروة . | ٧ - الخاطنة . |
| ٣٢ - غرام سوان ج ٣ . | ٨ - البؤساء ج ١ . |
| ٣٣ - لماذا انت عصبي . | ٩ - مدام بوفاري ج ١ . |
| ٣٤ - عش بحكمة عش سليما . | ١٠ - مدام بوفاري ج ٢ . |
| ٣٥ - زواج الحب . | ١١ - البؤساء ج ٢ . |
| ٣٦ - التحليل النفسي للاعلام . | ١٢ - الخطيئة الاولى . |
| ٣٧ - حذار من الشبهة . | ١٣ - الفتنة . |
| ٣٨ - امير الانتقام . | ١٤ - الحب هو الكثر . |
| ٣٩ - اعترافات جان راسو ج ١ . | ١٥ - فن الحياة . |
| ٤٠ - اعترافات جان راسو ج ٢ . | ١٦ - د. زيفاجسو ج ١ . |
| تحت الطبع : | ١٧ - د. زيفاجسو ج ٢ . |
| ٤١ - اعترافات جان راسو ج ٣ . | ١٨ - د. زيفاجسو ج ٣ . |
| ٤٢ - اعترافات جان راسو ج ٤ . | ١٩ - د. زيفاجسو ج ٤ . |
| ٤٣ - اعترافات جان راسو ج ٥ . | ٢٠ - البؤساء ج ٣ . |
| ٤٤ - مرتفات ويلرنج ج ١ . | ٢١ - الحرب والسلام ج ٣ . |
| ٤٥ - مرتفات ويلرنج ج ٢ . | ٢٢ - محاكمة سقراط . |
| ٤٦ - مرتفات ويلرنج ج ٣ . | ٢٣ - الجريمة لا تفيد . |
| ٤٧ - قلوب فضالة . | ٢٤ - نساء ومآسي في ساحة العدالة . |
| ٤٨ - اوديب . | |

اعترافات جان جهان بوسو - الجزء الثانى ٢٧١

- | | |
|-------------------------|--------------------------|
| ٤٩ - عاشقات في الخريف . | ٦٢ - نينو تشيكا ج ٢ . |
| ٥٠ - أسرار الجاسوسية . | ٦٣ - ماريانا ايلانوفنا . |
| ٥١ - الابن الضال . | ٦٤ - الخمسة الدون . |
| ٥٢ - ارواح هائبة . | ٦٥ - البعثة . |
| ٥٣ - الثمار للوطن . | ٦٦ - الائمة ج ١ . |
| ٥٤ - السبعة ج ١ . | ٦٧ - الائمة ج ٢ . |
| ٥٥ - السبعة ج ٢ . | ٦٨ - الائمة ج ٣ . |
| ٥٦ - بنر سبع ج ١ . | ٦٩ - القلم ج ١ . |
| ٥٧ - بنر سبع ج ٢ . | ٧٠ - القلم ج ٢ . |
| ٥٨ - جين ايسر ج ١ . | ٧١ - القلم ج ٢ . |
| ٥٩ - جين ايسر ج ٢ . | ٧٢ - بوشكين . |
| ٦٠ - جين ايسر ج ٣ . | ٧٣ - ذات الرداء الابيض . |
| ٦١ - نينو تشيكا ج ١ . | |

رقم الإبداع : ٤٣٧٦
الترقيم الدولي : ٦ - ٠٨٠ - ١٦٣ - ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزى القارئ ..

إذا أردت أن تعرف قيمة هذا الكنز الأدبي الخالد الذى توافيك به (مطبوعات كتابي) اليوم ، فأليك ما كتبه عنه المفكر المطلاع الأستاذ «سلامة موسى» فى عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (أخبار اليوم) ، إذ قال : «واعترافات جان جاك روسو من الكتب التى يجب أن نترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة ..» .

.. كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ «عبد الرحمن صدقي» فى مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٣٩ يقول : «انقضى نصف ومائة وستون سنة على وفاة «روسو» ، وانصرف الأدباء وجمهرة القراء عن مطالعة كتب «روسو» أخرى ، ولكنهم لم ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) ، ذلك أن الاراء فى السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، أما نجوى النفس البشرية فهي لا تتغير ولا تتبدل» .

.. والواقع أن هذه (الاعترافات) التى تقدم (مطبوعات كتابي) إليك اليوم أول ترجمة أمينة «كاملة» لها باللغة العربية ، هى أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقري «جان جاك روسو» ولقد كان من أهم الميزات التى كتبت الخلود لهذه الاعترافات ، إنها كانت أول عمل أدبي يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فقد سجل «روسو» فى هذا الكتاب أدق أحداث حياته - خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها - دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة !

هلمى مراد

Bibliotheca Alexandrina



0395432